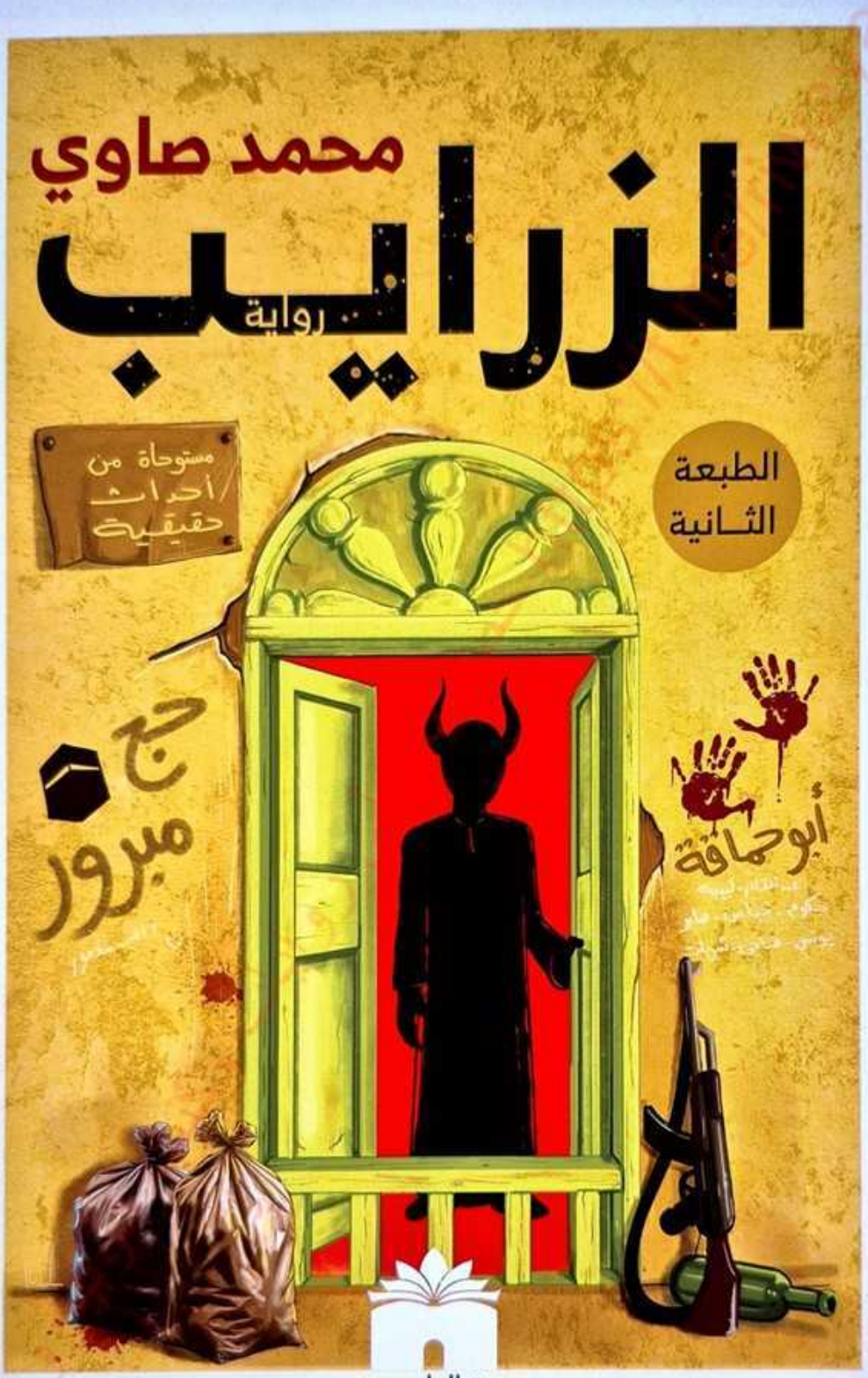

بيت الياسمين

٢٧٠٥٢٩٩٣٢٠

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -
ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكترونى:
baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
(+202) 01016685583
(+202) 01110094625

اسم العمل: الزرايب - رواية
المؤلف: محمد صاوي

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
رقم الإيداع:
2024/2858
الترقيم الدولى:
9789778172867
تصحيح لغوي: محمد حمدي
تصميم الغلاف: أحمد مسعد
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى 2024

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو اي جزء منه أو تجزئته في نطاق
استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل
من الأشكال، دون إذن خطى مسبق.

https://t.me/riwayat2025

إهداء

إلى ذلك الذي كان لا يملك إلا قليلًا من الجنيهات، فأجّر شقة في «منطقة الزرايب»، وكنت أنا طفلًا يحبو، فترعرعت في أشنع بقعة على الأرض، لكنه حافظ على نفسي من الضياع، وأرشدني إلى طريق النور رغم الظلام المحيط.

إليك يا أبي.

أنت سبب كتابتي لهذه الرواية، وخوضي لتلك التجربة التي صنعت مني حصنًا منيعًا صعب كسره في عالم مائل ومهلهل، كنت أتمنى أن أجعل منك بطلًا فيها، لكن لا مكان للطهارة بين صفحاتها.

فليرحمك الله يا أعظم الآباء.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

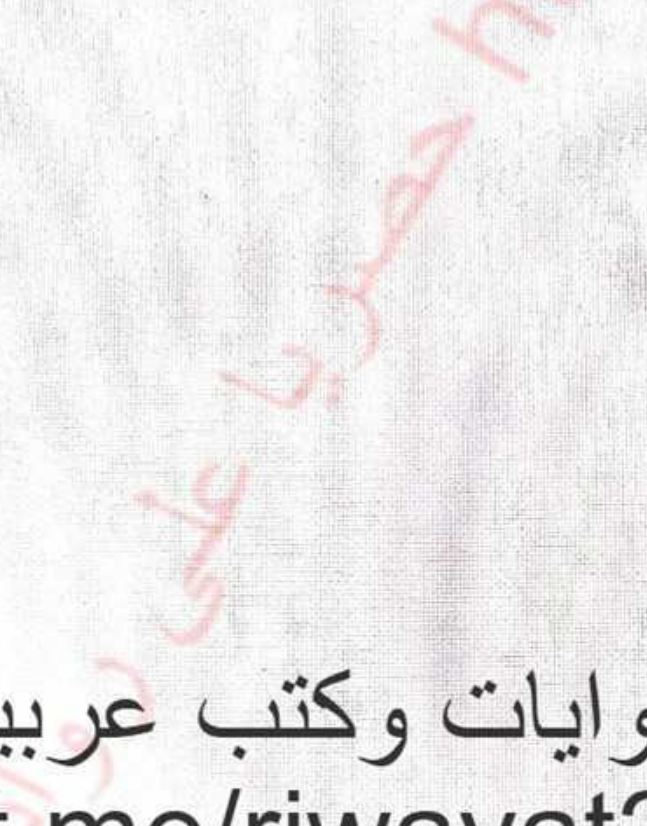

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

إلى سكان منطقة الزرايب، لا أتمنى أن يقرأها أحد منكم، حتى لا يبحث عني ويقتلني.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

كنت طفلًا صغيرًا ذا عامين، حين أحضرني أبي إلى منطقة الزرايب، مغلوبًا على أمره لا يملك إلا قليلًا من الجنيهات، وزوجة ضعيفة، وابنًا صغيرًا، يتكئ على خيبة أمل، وحسرة من واقع مرير، يبحث عن مأوى من وحشة الطرق ومفجعات الدنيا، فأوقعه قدره على أرض الزرايب، وترعرعت أنا فيها، بكل العتمة والظلام والجحود والسرقة والقتل وتفشي وباء الانحدار الأخلاقي، كبرت في عالم مظلم ضئيلة فرصي للخروج منه، ومع هول ما أبصره كل يوم، سمعت حكايات الأوائل الصانعين للمنطقة، والمفسدين الذين تسببوا في خلق تلك الوحوش من البشر، ولولا أنني كنت من سكان المكان، لما صدقت أن أناسًا بتلك البشاعة خلقوا على الأرض وعاشوا معنا.

وكنت دائمًا أسأل نفسي سؤالًا، لم اختار أبي تلك البقعة المرعبة ليسكنها؟ ألم يشعر بالخوف علي وأمي، حتى ولو كان العالم موحشًا، أكان الجحيم اختيارًا أيسر وقتها؟

حتى وجدت الإجابة بعد ما يقارب ثلاثة عقود من عمري، أن الله قد دبر لي هذا الأمر وتلك العيشة العويصة، لأكتب هذه الرواية، وتكون واحدة من أبشع التجارب وأصعبها في حياتي، وأكون سببًا في خروج حكايات الزرايب إلى الناس خارجًا، فيعلمون أن الدنيا فيها أبشع مما يتصورون، لكنهم محظوظون فقط لأنهم لم يولدوا في منطقة الزرايب.

محمد صاوي

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

استهلال..

عكفت على تأدية واجبي كشيخ أزهري، في حياتي كلها التي بدأتها طالبًا للعلم، وأكملتها معلمًا لدين الله، وطلبت من خالقي أن تعم رسالتي في الأرض، حتى يكون علمًا أنتفع به، ولا يفرق معي في أي مكان كان، وتلقيت اليوم جواب نقلي بوزارة الأوقاف، كنت أعمل في جامع النور بالعباسية، ورأوا أنني مناسب لأن أنتقل إلى زاوية صلاة(1) صغيرة في منقطة اسمها الزرائب بالخصوص، لم أسمع عنها من قبل، لكن مكالمة هاتفية من الشرطة كانت كفيلة بأن أفهم الأوضاع بداخلها. بعض الإخباريات تشير إلى أن الناس لا يعرفون الصلاة، وإن أدوها تكون باطلة، بعيدون عن الدين، وزادوا تأكيدًا أن المنطقة مقام للمخدرات والدعارة والفساد والمعاصي، وعلي أن أغير وأبدل ما فيها من جحود، وقبلت، متعجبين استسلامي، إذ إن الأمر عرض على شيوخ كثر قبلي، وأنا الذي لم أعرض، وهذا لأن الله جل علاه يضعني أينما يريد، وأظن بأن رسالتي هنا عويصة، لكنها سامية، فقلوب الناس إن تربت على المعاصي لا تتقبل حسنة تدخلها، ولعلي خير يستقبلونه فيتغيرون.

ركبت سيارة أجرة لم توافق على الولوج للمنطقة، واقتربت منها أكشف معالمها بتوجس وارتياع، أمضي على قدميّ فارغًا مما يحرسني، فالله موجود في كل مكان، هو الحارس والمعين، دهست أرضها، فتأففت من نسمات الرائحة الكريهة، كأن الأموات يدفنون على سطحها، فالشوارع مخضبة بالخراء والصنان والقمامة ومجاري الصرف الصحي، النجاسة والرجس هيمنا عليها، وتلقت أذناي ما يجرحهما ويغضب الله، قحة، أقذع السباب، وشافت عيناي الرذائل والمناقص، الناس يسيرون كأنهم وحوش، لا تستقيم ظهورهم إثر معاقرتهم للمخدرات، والأسلحة ملتحمة بمقابضهم، ينتصبون على رؤوس الشوارع ولذع لسانهم يخدش النساء دون حيطة، يبيعون المخدرات عيانًا، ولم يخجلوا مروري، بارتدائي ملابس الأزهر، طربوش أحمر ملفوف بشال أبيض وعباءة بيضاء تغلفها جبة كحلي بأزرة، تندروا على ملابسي، وهيئتي، ضحكوا وهزؤوا، وكنت أرمقهم بعينين بشوشتين، آملًا أن تكون أيامي بينهم فيها صلاح لهم، لكن الأمر مرعب، كأنني أغوص في قعر لظى، حتى وصلت بالقرب من زاوية الصلاة، وقفت على ناصية شارع منتظرًا شخصًا يدعى (سيد عطية)، لقد بلغته الشرطة بقدومي، وفد إلي وسألني: «الشيخ حامد؟» قلت له: «بإذن الله». فرد الولد، وهو شاب لم يتجاوز الثلاثين، وأنا قد هزمني عقدي الخامس، وقال: «متأسف منك، لقد بلغت الشرطة بأن زاوية الصلاة سيتم غلقها، لكنني أعتقد أن الجواب لم يصل». فرددت متسائلًا باغتمام: «كيف يغلقون بيت الله؟» فقال بابتئاس: «اشترى البيت الذي تقع فيه الزاوية رجل اسمه فتحي الخمورجي، وسيحولها إلى زريبة للقمامة». امتقع وجهي ورددت بكدر: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم تساءلت: «وكيف لا تعلم الشرطة شيئًا كهذا؟» فتلفظ ساخرًا: «يا شيخ، أتظن بأن الشرطة تعرف ما يحصل في هذه المنطقة؟» لففت رأسي أتفقد قبحًا وبشاعة، فأردف: «على كلٍّ، أنا مثلك، أرسلتني الوزارة لأستقبلك وأسهل لك المعيشة هنا، أوفر لك مسكنًا وغيره، وعلمت اليوم من صاحب البيت الجديد أن الزاوية سيتم غلقها، وأرسلت الجواب، لكنني أعتقد أنه لم يفتح بعد». لم تسعفني الكلمات، خنقني الوجوم، وكدت أرحل لولا أن نبهني الله بشيء، فقلت: «أمن الممكن أن آخذ منها على الأقل الكتب الدينية؟» وقف (سيد) مفكرًا، ثم قال: «انتظرني هنا وسأسأل الرجل، إن وافق سأحضر لك المفتاح».

وقفت أتطلع إلى الحياة حولي بعينين مترقبتين، شهدت فظائع، رهقًا، كفرًا، تدنيًا أخلاقيًا، اختلالًا في الموازين، وشجارات، حتى إن واحدًا كاد يقتل آخر اختلافًا على جرعة مخدرات، وفكرت في أن المكان يحتاج إلى نبي ليغيره، وارتعدت من دواخلي على درك جهنم المعد لناس كهؤلاء، وفي أثناء غرقي في أمواج من البؤس والتعسر، اقترب مني عجوز أعجف خط الشيب فوديه يستند على منسأة، وقال: «سلامٌ عليك».فرددت بكياسة: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». فتساءل عن هويتي فقصصت عليه الحكاية، وتبادلنا الأحاديث فوجدته يفهم بعض الأشياء في الدين على نحو خاطئ، فعافرت لتصحيحها وكان لا يقبل ويجادل، وأحسست

بأنه يحتاج إلى أعوام لتغييره، لكن الذنوب حولي تقتلني، فانبثقت الكلمات من فمي دون حساب: «لم الناس هنا بهذا الشكل؟ ألا يوجد من يذكّرهم بدينهم؟ أكل الناس هنا غير صالحين؟ فوالله لا أقدر على رؤيتهم، أنظر إلى ملابسهم، هيئتهم، تصرفاتهم، وألسنتهم البذيئة، ينظرون إليك كأنهم سيأكلونك».

بش الرجل ورد: «أتعرف عائلة أبو حماقة؟» لم ننطق لعدم معرفتنا أيًا من سكان المنطقة، فاستطرد: «كانوا ناسًا صالحين عاشوا هنا من زمن وسيرتهم الطيبة ما زالت حية بيننا حتى الآن». استفهمت: «وماذا حدث؟»

تنهد وقال: «ككل شيء يذهب». فتحرك لساني تلقائيًا: «ما دائم إلا وجه الله»..فرد الرجل: «إن كنت تريد معرفة قصتهم، أقعد وبعض العجائز مثلي نخوض في سيرتهم لعلها تكون حسنات، أتأتي معي؟».

فتلفظت: «أكانوا صالحين إلى تلك الدرجة؟» اقترب الرجل وهمس: «كالأنبياء».

كدت أنغمس معه في مناظرة، لولا أن (سيد عطية) انبلج قائلًا: «المفتاح يا شيخ حامد». فتناولته منه واستأذنت العجوز، ومشينا في الشارع مفزوعًا مما تبصره عيناي، حتى وصلنا إلى زاوية الصلاة، قمت بحل رتاج الباب، فانبعثت رائحة عطنة، بدا المكان مهجورًا منذ عقود، خلعت نعلي وولجت، فدهست ربوة من تراب فغرزت قدمي، وبلعني الظلام، تفقدت الأنوار فلم أجد، فناديت (سيد) وطلبت منه أن يحضر شموعًا وبخورًا، دقائق وعاد بخمس شموع وعودي بخور، ناولها لي من الخارج مع علبة أعواد ثقاب، أشعلت الشموع وفرقت أربعًا في الزاوية وقبضت على واحدة أستشعر بها طريقي، ثم أحرقت رأسي عودي البخور ووضعتهما في جهتي الزاوية اليمنى واليسرى، ومشيت بالشمعة فكشفت الهوام تركض كطوفان، وشباك العنكبوت تغطي الجدران فصنعت من الزاوية بيتًا عملاقًا للعشرات منها، وصرير الفئران يحوم في المكان، تركض بفزع حولي، والتراب يغمرها كبحر مموج، أديم الأرض كومة منه، نقبت عن مكنسة بلا جدوى، عاينت الكتب فكانت متآكلة، قرضتها الفئران، ففوضت أمري إلى الله، وركنت الشمعة، وقررت أن أصلي ركعتين تحيةً للمسجد، ووقفت أمام المحراب، كنت متوضئًا، فقلت بهدوء: «الله أكبر».

وشرعت في صلاة قد تكون الأخيرة في مسجد على وشك أن يتحول إلى زريبة قمامة، وفي نفسي أيقنت أنها أول صلاة بعد أعوام طويلة، فاعتزمت النية لعلها تترك نورًا في جحر الظلام.

روايات وكتب عربية وعالمية

1

سحماء كفؤاد مالكي، غليظة، قاسية، تخضبت بدماء أبرياء كثر، أنا عصا (جاد الله أبو حماقة)، أعينه على الخطى، فهو سيدي، خليلي، ومكروهي، ولا أميل إليه، لكن شاء المولى أن أكون عكازه، معينه على الظلم، وضرب الكلال ممن يزرعون أرضه.

عشر سنوات عمري في قبضته، حافري مدبب، ورأسي ذهبي لامع، متشكل كصقر، يظن بأنها علامة على القوة، وهل هناك سمو كهيئته، وعملقته، وهيكله المفزع، وشاربه المتحرش بوجهه، كث، مهيب، مرفوع، مقوس حول فمه البارز أسفل أنفه الأقنى، نظرته المروعة التي تطل من عينيه العسليتين المحفورتين أسفل حاجبين سميكي الشعيرات ترهب البدن، رجل عتل، حتى بعد أن شيب فوديه وقارب على إتمام عقده السابع.

في العقد الذي استعملني فيه (جاد الله) بعد أن رجرجت خطواته إثر شيبه المباغت، سمعت أساطير عنه، وأبصرت أهوالًا، وكنت سببًا في تشقق رؤوس ضحاياه، وخمش وجوههم، وتفصد دمائهم، كما أنني أصنع الرضوض بيسرة وعجلة.

والحكاية المصدقة، أنه في أوائل القرن العشرين، ارتحل (جاد الله أبو حماقة) إلى أسيوط، مركز منفلوط، كعفريت حط على المكان، رسخ على قطعة أرض، وابتاعها، وبنى بيتًا فسيحًا بحجارة لبنة، سرعان ما ترمم على الطريقة المدنية ليضحى قصرًا ملكيًا.

تزوج بابنة العمدة بعد أن هز جيبه ونزح بالجنيهات فلمعت أعين المخبول وسال لعابه، جمع العمالة من الفلاحين، وزرع أرضه بمحاصيل جمة، وعاث في خادميه فسادًا وتخريبًا بنفوسهم الهشة، كجبروت فرعون، وقايين في عصيانه، يبين بهيبة تنحني أشنبة الرجال في حضرتها، «ألم ينطق من أي داهية آتى؟» هكذا ردد العوام، ولم يعثروا على إجابة، حتى تسلل الخبر على لسان أحد خدامه، بعد أن سقطت من فيه (جاد الله) لأحد بشوات مصر(2) الذين يزورونه، فصيته واسع يصل إلى كبراء البلد، وقيل إن أباه (أبو حماقة) كان يتاجر في العبيد بأسوان، علم (جاد الله) أن الخبر سرب، سجن الخادم في الليمان بضعة أيام، ذاق تنكيلًا واغتصابًا لكرامته المهانة، ثم نفي من المركز.

«أبو حماقة كان ظالمًا». ذلك ما يردده المحتاجون بعد أن حفظت آذانهم قصص أبوه الذين لا يعرفون لمَ سمي بهذا الاسم، أو أنه لقب، ولا أعرف أنا، ما همهم هي أفعاله، «كان يضرب العبيد بالسياط».. يا الله، حقًا، من شابه أباه، مساكين، غلابة، لا يقدرون على نطق الحق، يتلفظون بالكلمات في الخفاء، وتصل إليه، فيكون العقاب قاسيًا.

يتعاظم (جاد الله) بصفات أبيه مع العوائل من كبار المدينة، وأنصت أنا، فأعلم، تزوج باثنتين، واحدة ماتت في الخمسين، ثم تزوج بعدها بصغيرة بكر، أنجب منها (جاد الله) وقد كان عمره قارب على السبعين. والنهاية كما سائر البشر، كفن وقبر ولحم عفن، ودود لاهث. ترك (أبو حماقة) ثروة تقدر بثلاثة عشر آلاف جنيه عام 1906م، عاش تسعين عامًا، وزعت على ست، ثلاثة رجال وثلاث فتيات، فكان نصيب (جاد الله) ألفين وثمانمئة وثمانية وثمانين جنيه وثمانية وثمانين قرشًا، امتلك ثروة بلا تعب وسنه لم تتجاوز الثالثة والعشرين، حظ كثيف، وبغض وفير.

ترك إخوته، وقصد أسيوط ربوعًا له، وبعد أن أكمل نصف دينه، أنجب ثلاثًا، رجالًا كما تمنى، ولم يرزق ببنت. امتهن مهنة أبيه لكن على نحو آخر، ينغص عيشة عاملين يرضون بأجر بخس ملاذًا من الجوع والفقر، يخطئون، فيذوقون قسوتي، يرفعني (جاد) مهددًا في وجوه ضحاياه، لا ينتظر سماع مبرر، فيضرب بأس.

في منزل (جاد الله أبو حماقة) اتكأت على المشجب خاصته، يقدر على الوقوف والسير مجاهدًا الزمن رغم سنه الثامنة والستين، كث في سيره حتى انتصب أمام مرآة بجانبي، رفع طوق جلبابه، أحكم الجبة عليه، وعدل من لاسته المزركشة، أفرط في وضع المسك، ثم مد أصابعه المجعدة وضغط على رأسي الصقري، على

حين رفعت (سمنة) زوجه -التي تجاوزت ستة عقود بثلاث وحدات- الطست الذي كان يغطس فيه قدميه، ووقفت على ساقيها صالبة طولها كعشرينية بكامل صحتها، السمن البلدي سبب في عافيتها، فنطق دون النظر إليها: «اجمعي أولادك وزوجاتهم تحت».

لم تسأل عن الغاية، رحلت مسرعة، الساعة لم تتجاوز الثامنة صبحًا، الغرفة بها أريكة، سرير نحاسي ملوكي مُغطى بستارة مصنوعة من الديباج، مرآة، تسريحة يتربع سطحها تمثال كبش أبنوسي أسود، مشجب لتعليق ملابسه، شيشة ذهبية، ومشربية قاهرية، الجدران منمنمة بالفسيفساء مشكلة مسجدًا أمامه شيخ يرفع عقيرته بأذان، مبصرًا سماء خضراء.

وقف خمس دقائق يعدل من ملابسه ببطء وئيد، ثم استند إلي وتحرك، حل رتاج الباب، وخرج، كقصر الملوك، سلاملك، تحف متراصة في فناء مترامٍ على أثاث قيم، جدران مزخرفة، غرف مرصوفة، صالة واسعة يملؤها فرش وثير، وفي صدرها حملت ست أرائك تتوسطها طبلية وثلاث طاولات متفرقة، ركضت خادمتان وصنعتا شايًا بعدد سكان البيت، وأسكنتاه على الطاولات بجانب عدد من قلل الماء. قعد أولاده وزوجاتهم وقد ملؤوا خمس أرائك، جمعتهم (سمنة) في دقائق معدودات، لا يقدرون على التأخر في تلبية أمر لـ(جاد الله أبو حماقة)، رسى يكشفهم بعينيه من فوق السلم.

(عبد القادر) الابن الأكبر خمسة وأربعون عامًا، تربع بجانب زوجه (لبيبة) -الأربعينية- يحدثها بلغة الإشارة يستفهم منها عن سر جمعهم، ويرتشف حسوة من كوب شايه، أخرس لكنه يسمع، فقد أصابته حمى في أثناء صغره استحوذت على لسانه، وقعد بجانبهما ابنه (يونس) واحد وعشرون عامًا، وعلى أريكة أخرى أبناؤه (خباس) ثمانية عشر عامًا و(حكّوم) سبعة عشر عامًا و(صابر) خمسة عشر عامًا، وعلى أخرى (ضاحي) أحد عشر عامًا و(شربات) تسع سنوات، في صمت وهدوء، وعلى أريكة رابعة جلس (خطاب)، ثلاثة وأربعون عامًا الابن الثاني لـ(جاد الله) وزوجه (باتعة) ثلاثينية وابنه (محمود) الرضيع لا يصدرون نأمة، فقط يستمتعون بالشاي الساخن، وعلى الأريكة الخامسة جثا (نوفل) الابن الأصغر لـ(جاد) وزوجه (هند)، يتضاحكان بمساخر دون احترام لمن حولهما، يجلسان في وئام، تسقيه (هند) الشاي في فمه وتضحك بانحلال، ثم همس (نوفل) في أذنها فزغدته في جنبه ونضحت بضحكة خليعة ثم كتمت فمها والنظرات حولهما تأكلهما بغيظ.

تنحنح (جاد الله)، فساد الصمت، الإبرة إن سقطت الآن يسمع صوتها، نزل على السلاملك، يخبط بي الأرض مستعرضًا قوة دنت من الموت، وصل إليهم، فتسمروا، نظر إليهم نظرةً باردة، فارتعدوا، جلس على أريكة سادسة وبركت زوجه (سمنة) شماله، وأسندني على فخذه، ثم ركضت خادمة ووضعت أمامه نارجيلة، أمسك خرطومها وتنفسها، لم تصدر همسة، النظرات جامدة، رهبة جثمت عليهم، النفس يؤخذ بحساب، لم يفتتح حديث، حتى قطع السكوت صوت (جاد الله): «يطلبونني عمدة للمركز بعد موت أخيك مصباح يا سمنة».

لم ينطق أحد، فالأمر ليس بجلل، (جاد الله) يعامل كعمدة للبلدة حتى لو هناك عمدة آخر. ولما طال السكوت بشت (سمنة) رغم حزنها على أخيها وقالت: «بشرة خير يا حاج، مبارك». فرد (جاد الله) بعجلة يقلب فحم شيشته بالمهباش(3): «لكنني سأرفض».

خرجت من فيه ثم سعل حتى برزت عيناه، إذ إن التدخين يقتله، ثم عاد وصلب نفسه واستطرد: «أرى أن عبد القادر يصلح لها».

جلجلت (هند) بضحكة غير مقصودة، فأطبقت شفتيها بغتة، رمقها بعينين جامدتين، كأنه الموت، سقطت عيناها، فقال: «ألا تعرف راقصة الموالد الأدب؟» فتزعم الصمت، انتظر الرد لثوانٍ، ونظراته تشق قلب (هند) و(نوفل) بألم دفين، لم يقدرا على رفع أعينهما، من ذا الذي يستطيع أن يدافع عن ذاته في حضرته، فأعرض (جاد) عن الأمر لمعرفته بضعفهما.

عار واعتذار. كلماته فصمت صدر (هند) وشرخت فؤاد (نوفل)، فهو لم يتجاوز الثلاثين، منذ عام، كان على

شفير الانتحار فقط لأنه أراد أن يتزوج براقصة غجرية ضعضع أهلها تحت وطأتي، ضربت منهم أعدادًا جمة، (جاد) كسر تماسكهم وطردهم شر طردة من المركز، عندما علم بأن (نوفل) متيم بـ(هند)، فالهيام اخترقه، وبعد حروب بين الأب وابنه انتصر فيها (جاد)، حن في النهاية لحال ابنه المسكين، وزوجها له، أكرمها لكنه لا يتقبلها، يعلم أنها لا شأن لها، ولا تملك ما يؤهلها للانتساب إلى عائلة (أبو حماقة)، لكنه متيقن بأن لا أحد يجرؤ الخوض في عرضها، حتى لو كانت غير شريفة، رغم أن تلويثها للنسل أمر حتمي، لكن كلًا يحمل رعيته على منكبيه، فهو قديمًا ترك إخوته ليصنع ذاته.

تقطب حاجبا (عبد القادر) علامة على الرفض، لكنه لم يحرك ساكنًا، إلا أن (نوفل) نطق متحاشيًا النظر إلى عيني (جاد): «وكيف سيدير عبد القادر شؤون العمودية وهو أخرس!» فنظر إليه الأخير شزرًا وقال: «هو أخرس وليس عبيطًا». تسلم (خطاب) الحديث بقلب واجف: «يقصد يا حاج كيف سينطق بالأحكام بين الناس». حدق إليه (جاد) بامتعاض وقال: «سيشير لـ(لبيبة) وتنطق هي بالأحكام». حزت الحديث (باتعة): «بهذا تكون لبيبة هي العمدة». فرد سريعًا غاضبًا: «ومنذ متى تتحدث النسوان والرجال يتناقشون!».

تلقفت لذع كلماته وكتمت، ليتفصد صوت (هند): «كنت أظن بأننا عائلة واحدة». رفعني (جاد) وهدد بي أبناءه: «والله إن لم تسكتوا نسوانكم لأكسر رؤوسهن، ألستم رجالًا، تصمتون على مساخر حريمكم؟» تلقى (نوفل) اللطمة بصبر ينضب، وقال معترضًا: «كلما تكلمت هند تغضب، هي من آل أبو حماقة كغيرها».

في اللحظة التي أطبق (نوفل) شفتيه لصقت أنا في بطنه، بعد أن ألقاني (جاد الله) بغل، ثم قال بحنق: «الراقصة علمتك أن تعلي صوتك على أبيك، وما فائدتك في البيت، تأكل وتشرب وتفعل المساخر أنت وهي أمام العيال الصغيرة، أراها تتقصع كلما خرجت من باب غرفتها، وجهها مكشوف ولا تستحي، وتقعد أنت أمامي فاردًا صدرك وتملي علي ما أقوله في بيتي ومن ينطق ومن يسكت، تعال وخذ مكاني أفضل».

ركض (خطاب) في أثناء حديث أبيه وأمسكني وناولني له، امتقع وجه (نوفل) من وقع الكلمات، أصابه وجل، والدمع ينز من عينيه رويدًا، ازدادتا احمرارًا، اكفهر، وتوسع جفناه حتى كاد يلفظ عينيه، وبغضب الدنيا جمعاء رفع الطاولة أمامه وقلبها بغيظ فانسكب الشاي، فوقف (جاد) وفرد هيكله العملاق، عزم على ضربه، إلا أن (نوفل) شد (هند) -التي بكت بحرقة- من يديها وشرع يرحل، فأفلتته وصرخت بصوت متشنج: «أستسكت على إهانة زوجتك؟».

تركها ومشى، فحدجت إلى عيني (جاد)، تفل في وجهها، فلملمت عباءتها وسارعت إلى غرفتها ونحيبها يعلو. قعد واستراح (جاد)، فكادت تخرج (باتعة) كلمة من فمها لولا أنه قطع الحديث قائلًا: «والله لو نطق أحد بما لا يعجبني، لأطردنه من البيت».

حملت (باتعة) ابنها وتوجهت إلى غرفتها. بان الكدر على وجه (عبد القادر)، فهو لم يرض، لذلك شرع في الحديث بلغة الإشارة، صمتت (لبيبة) حنكة، فهي ذكية وتنطق الكلمة بحساب، طال سكوتها، فافتتح شدق (جاد) متسائلًا: «ماذا يقول؟».

رغم أنه ابنه، لم يشغل باله بتعلم لغة الإشارة لأجله، أمه تفهمه، أبناؤه، إخوته يفهمون جزءًا من حديثه، لكن زوجاتهم لا يفهمون، ولم يتواءم معهم، عاش غريبًا وسطهم حسب ما رأيته على وجهه وما يدور في عشر سنوات قضيتها في البيت، لا يكلم أحدًا، يتعرض للمضايقات من الكل، إلا (سمنة)، حنان صدرها احتواه، لم يعامله أبوه بحنو يومًا لكنه يحبه ويحترمه، يحب إخوته رغم تجبرهم، يحب زوجاتهم، عياله، كل من في البيت ينال منه الحنان، ويتلقى في المقابل الظلم والقهر والتندر.

الحكاية التي يتناقلونها أنه أصيب بالحمى في عامه التاسع، ست سنوات بعد الحادثة مرت تخضب حياته ظلامًا، حتى زوجه أبوه بـ(لبيبة)، بنت غلبانة والدها كان بائع خضراوات مات بعد زواجها، ولا تملك عائلةً من بعده. ورغم أنها ليست ذات حسب ونسب يؤهلانها للفوز بابن (جاد الله أبو حماقة)، فقد رأى أن ابنه عليل،

نصف إنسان، فلا بأس من زواجه بـ(لبيبة).

سمعتهما يتحدثان في سنين ولت عن زواجهما، فلم تكن تفهمه لعام ونصف، تتعامل معه بصعوبة المستحيل، لكنها أحبته، فتعلمت كيفية الحديث معه، ومع الوقت تعلمت (سمنة) وباقي الإخوة، أنجبت (لبيبة) ستة منه، يبدو عليها أنها تطمح لأن تكون سيدة البيت، لكن أمن الممكن أن تنال زوجة الأخرس مكانة كتلك!

(سمنة) و(خطاب) ظهر عليهما أنهما فهما ما قاله (عبد القادر)، تلجلجت (لبيبة) فهي لا تبغي حصد زوجها للتقريع، فتحت فمها فضحك (خطاب) ومنع عنها الإحراج قائلًا: «المجنون يقول لك إنه لا يريد العمودية، بل يريد الإحساس بأنه في بيت..» سكت يفكر، ثم نظر إلى (لبيبة) وقال: «الكلمة الأخيرة تعني دافئ، صح يا زوجة أخي؟» وضحك بصخب.

نطر (جاد الله) خرطوم الشيشة وبصوت كظيم قال: «عنك ما أخذتها، فأنت عبيط كما يقولون». ثم تحامل علي ووقف، مشى حتى التصق بـ(عبد القادر)، وبوجه متنمر نطق: «لكن قل لي يا ابن سمنة، أتراني ظالمًا؟» أحسست بأصابعه تعتصر رأسي، لم أشعر بدواخله وما يجري فيها، لكنني أظن بأن هناك بركانًا سينفجر، وبدت نظرات (عبد القادر) بريئة، هادئة، واسترسل فيما يقول على سليقته، فنظر إلى (لبيبة) التي تلفظت بصوت مبحوح: «يقول إنه يحبك، واعذره عن الحديث بسوء». صاح (خطاب): «يا بنت الكاذبة». حاولت أن تستعطفه بنظراتها، فرفع (خطاب) عقيرته: «يقول لك يا حاج إنك تفتري على الناس في الغيط، وتفتري علينا في البيت، وإنه يريد أن يعيش في سماحة وحب».

رفعني عاليًا، ونزل بي على يد (عبد القادر)، الذي كتم أنينًا في نفسه، فاحتضنته (لبيبة)، وظهر على أولاده الغيظ والكره، وهبت كلمات (جاد) كريح صرصر: «خلفتك كلها تشرف يا سمنة، لا يحترمني أحد، فليعني الله على ما ابتليت، أخرس يريد تأديب أبيه، وخبيث يريد كل شيء وحده، وزوج راقصة، لم تنجبي عيلًا عدلًا يسندني، يرث مني رجولتي، ويكون رجل بيت بصحيح من بعدي».

ساعدت (لبيبة) (عبد القادر) على النهوض، تبعهما أبناؤهم يرمقون جدهم بنظرات الوعيد، وسلكوا طريقهم صوب غرفتهم والمسكين يضغط على يده متألمًا.

ظل (خطاب) ملتصقًا بالأريكة، نظر إليه (جاد) بغلظة، فقابله الأول بابتسامة واسعة، وأمسك قلةً لم يتركها حتى قرعت، ثم قال: «أنت ظالمني والله يا حاج، أنا الوحيد الذي يسعى لمصلحتك، لا تشغل عقلك بالنسوان الآخرين، والله إن همي الوحيد عائلة أبو حماقة».. لوى (جاد) بوزه مستهزءًا: «آه يا ابن إبليس، ثلاثة وأربعون عامًا ولم تفهم أباك، النسوان هن من يعدن ويزدن ويتملقن لينلن يا ابن سمنة».

أخذ يسير صوب باب الخروج، فانتصب (خطاب) وركض مقبلًا يده، فامتعض (جاد) ونطر وجهه عنه وهو يتلظى: «يا عديم الدم، أنا أشتمك، وأنت تقبل يدي». رد (خطاب) بخبث: «والله إني أحبك يا حاج أكثر من نفسي، الله يبارك لنا فيك ويزيد في عمرك ويحفظك من كل شر».

زفر (جاد) من برودة إحساس (خطاب)، وأكمل سيره للباب وهو يرثي لحال نفسه بكلمات مكلومة لا تسمع، ربتت (سمنة) على كتفه وقالت بصوت حنون: «هون عليك يا حاج».

تملص من يديها، نفذ من الباب، ركب الحنطور في أبهة، فتبعه (خطاب) راكضًا حتى وصل إليه، صعد فجلس بجانبه وقال بحبور: «سنمر على التجار، أم نطلع على الأرض نشوف الفلاحين؟»

فنفر بالضيق وأشار إلى الحوذي بالتحرك متجاهلًا حديث (خطاب) الذي أشعل رأسه غيظًا.

***

نار أطرافها طويلة، ثعابين، تلدغ برأسها الأشياء فتتفحم، دخان كثيف، الساعة قادمة، خفت أن تطولني أي شرارة تحرقني، وجلس (جاد الله) ببرودة أعصاب على الحنطور خاصته، يخنقني بكفيه، يراقب بعينين

صقريتين نافذتين تخترقان كل حركة حوله، يهرع الفلاحون ممسكين بالدلاء والطسوت، يصبون على النار، فلا تهدأ، جحيم، والنساء يصرخن، و(خطاب) يهلع بجنون، يضرب الفلاحين ويردد: «يا أولاد الكلب خربتم بيتنا». ولا يساعد، يقسو، شيطان غليظ، وهدوء (جاد الله أبو حماقة) مخيف بحق، رغم أنني عهدته بثبات لا يملكه أظلم الرجال، يبصر مخزنه يحترق ولا يرمش بأسى، رجل عجيب، لا يمت للبشر، أخاف أن يكون سرمديًا، منظر كإبليس.

ست ساعات مرت، ماتت النار، وفاحت بعدها رائحة خنقت البشر، ودخان كثيف غطى السماء، وظل (جاد) على حاله، حتى أتى الفلاحون، يقبض (خطاب) على أحدهم، ينكل بجسده، يصرخ الرجل، يبكي، يستنجد ويرد: «لم أكن أقصد». ومثلا أمام الحاج (جاد)، فساد صمت لا يقطعه إلا نواح الرجل، وصراخ سيدة من الخلف يبدو أنها زوجه.

سأل (جاد الله): «احك ما حدث». مسح الرجل مخاطه، ثم تنهد وقال: «أحمد بيه عندما كان واقفًا معك، كان يشرب سيجارة، ورماها قبل أن تنتهي، أخذتها واحتفظت بها، كنت أريد أن أجربها، بعد رحيله أشعلتها، ووقفت أشربها بالقرب من جرن القمح، لم تعجبني، وسعلت، رميتها، نسيت أن جرن القمح خلفي، والله يا حاج لم أره، وتابعت عملي، وفجأة مسكت النار في المخزن، والمصحف على عيني لم أره».

(أحمد) بيه هذا صديق الحاج من مصر. ركض الرجل يقبل قدم الحاج، فسحبه (خطاب) لاعنًا له ضاربًا: «يا ابن الكلب كلفتنا أكثر من خمسمائة جنيه اليوم». ثم نظر إلى (جاد) وأردف: «حكمك يا حاج».

تهيأت لأضرب، ذلك قضاؤه، أن تكسر ذراعاه ورجلاه، التقط (جاد) نفسًا عميقًا، ثم قال بهدوء مهيب ناظرًا إلى (خطاب): «اطردهم، من الغد لا أريد أن أرى أي فلاح منهم في أرضي، وأحضر لي فلاحين جددًا».

لم يسمع بعد كلامه إلا بكاء وصراخ ولطم على الأوجه وكلمات بخراب البيوت، ونساء يكبشن من الأرض ويغرقن رؤوسهن، هجم الفلاحون على الحنطور يتذللون، لكنه أشار إلى السائق بالانطلاق، فضرب الجواد وحلق.

ركض الجميع خلفه يحاولون اللحاق به، وجوههم تنضح بقسمات الهلع والخوف، والفقر يكلبش على أنفاسهم، ومن الخلف يدفعهم (خطاب) فيسقطون أرضًا معذبين غير معترضين، ليمرق بينهم، يسب كل من تطوله عيناه.

يطرد الجميع، لأن أحدهم أخطأ دون قصد، وما ذنب الآخرين، وأفواه أطفالهم الجياع، وزوجاتهم المسكينات!

ينادون، ولا يستجيب لهم، يصرخون، فتتوسع المسافة بينه وبينهم، يندبون، فيسبهم (خطاب)، لعنة على مساكين تلك البلدة الضعفاء.

***

كلٌ في بيت آل أبو حماقة يحمل في نفسه ضغينة وكرهًا ونفاقًا، ولا خير فيها، الحقد يترسخ، والقلوب يجري فيها العتم، والبعض يموج بين الحب والبغض، والتفكك يهتك بحال العائلة، ولا حال تدوم، إلا الخصام.

في صحبة الغداء، والكل يجلس إلى طبلية في بطن الصالة، نمت على فخذ (جاد)، الجمع حاضر، فيما عدا (عبد القادر) و(لبيبة)، انفرج باب غرفتهما، وخرجا، تعلمت لغة الإشارة منذ سنين، حتى أفهم ما يقوله (عبد القادر)، فرأيتها تشير إليه بكلام، ولا يكشفهما أحد غيري، تخبره بأن يصلح ما بينه وأبيه، وأن يرضى بالعمودية، وأن يكون بارًا به، وهو يشير بأنه يحبه، وأنه لا يعارض قراراته، لكنه يطمح للسلام، إشارات وهمهمات ومعانٍ كثيرة للحب تقال، رآهما (جاد) فسجع قائلًا: «الأكل سيبرد».

ركضت (لبيبة) تسحب (عبد القادر) خلفها، ويتشبث هو في يدها، معينته على الحياة، حتى وصلت إلى

الطبلية معتذرة بابتسامة ساحرة، ليقابلها (خطاب) و(باتعة) و(نوفل) و(هند) بامتعاض، يعاقبونها على ترقيها لزوجة العمدة إن وافق العبيط، إلا أن هناك بعض الراحة في قلوبهم بعد ما حدث، فالماء بين (عبد القادر) و(جاد الله) الآن أسن.

وليمة الغداء حمام محشو بالفريك، وبط محمر، وبامية مغطس بها لحم، وأرز وملوخية وسلطة، نظرات التوتر تبدو واضحة، لا راحة تسكن دواخلهم، صمت وهدوء، رغم حضور الجميع، فإن (صابر) بن (عبد القادر) لا يجلس إلى الطبلية، ينزوي في ركن وحده، يهز جسده يمنةً ويسرة، كأنه غائب في حضرة الله، مغمض العينين، شيخ مراهق، لا يترك فرصًا، يتحدث قليلًا، ويسخط على الجميع، ألحقه أبوه بالكتاب منذ كانت سنه خمسًا، حينها كنت جديدة العهد، ختم كتاب الله حفظًا وهو في سن التاسعة، ذكي، فطن، هادئ، ومريب، لا تعرف له شخصية لقلة تفاعله مع أي حديثٍ جارٍ. تناول (جاد) بعض الفريك بملعقته وزجه في فمه يلوكه ببطء، ثم زعق قائلًا: «تعال كل يا ولد يا صابر».

لم يستجب، كأنه أصم، فلام (لبيبة) بنظراته: «ماله هذا الولد، كأنه ملبوس، سأطلب من الشيخ عبد الجيد زيارتنا ليرقيه ويقرأ عليه قرآنًا لنعرف ما يحصل له». أومأت برأسها في صمت، واسترقت بعض النظرات إلى (صابر) الذي لم يفتح عينيه، مخبول كالذي أنجبه.

لا جريء يخوض حديثًا، ولا صوت يخرج إلا أصوات الطعام المحتشد في الأفواه، يكشف (جاد الله) بعينيه الموجودين، حتى ثبتهما على (هند) بضع ثوانٍ بحنق، فهي ترتدي عباءة تكشف أكثر مما تستر، صدرها واضح نصفه يتطلع إلى الجالسين، غانية، ومتبرجة.

ظل يتفقدها بتأفف بين الحين والآخر وهو ممسك بحمامة يفسخ بعضها عن بعض ويلتهمها ببطء، حتى قطع الصمت (نوفل) مشيرًا إلى أمه قائلًا: «أعطيني صدر البطة التي أمامك يا سمنة». مدت (سمنة) يدها فنحاها (جاد الله) بأصابعه المتسخة وهو يقول: «لا تشغل بالك بصدر البطة يا نوفل وركز في صدر زوجتك».

ضعق (نوفل) فانعقد لسانه، وانفلتت ضحكة من فم (باتعة)، تلقت على إثرها نظرة تلظٍّ من (خطاب) فقطعتها، ألقى (نوفل) بالملعقة من يده، وتبادل نظراته مع (هند) التي وسعت عيناها شررًا كأنها تطلب منه إحداث أمر ما، فمال (نوفل) بنظره إلى (جاد) الذي ظل منغمسًا في طعامه، التقط نفسًا يهدئ سخطه، ثم قال: «مالها ملابس هند يا أبي، كلنا هنا عائلة».

ضحك (جاد) ودون النظر إليه قال ولحم الحمامة يتمزق بين أسنانه: «سامعة يا سمنة، ابنك رجل ما شاء الله تحسدين على تربيته». لامته (سمنة) بنظرة عتاب، فهي لم تربّه وحدها، فاستطرد (جاد) ناظرًا إليه بامتعاض: «يا عديم المروءة، صدر زوجتك طالع من عباءتها وإخوتك الرجال قاعدين، ما الذي يجري في عروقك؟».

عوجت (هند) فمها وسندت يدها إلى جانبها وتقصعت كراقصة عتيدة وهي تتكلم: «والله أنا قاعدة في بيتي، والذي تزوجني قال إن هذا بيتي، ولم يأت في ذهني أن هناك من سينظر إلي نظرات لها معانٍ أخرى».

ورقصت حاجبيها المزججين في وجه (جاد الله) ففهم الجميع أنها تقصده، فانفلت صياح كاذب من فم (خطاب)، وكاد يندفع نحوها لولا أن (جاد) زجره فأخرسه، ثم مد يده وسحب صدر البطة، فسخه، والتقط منه قطعة حدفها في فمه، ثم تطلع إلى (هند) بنظرة باردة، وانتقل بعينيه إلى (نوفل) وبهدوء مغيظ قال: «طلقها».

سكون، وجوم على أوجه الجميع، لاذ (نوفل) بالصمت ما يقرب الدقيقة، ثم قال بكياسة: «استهد بالله يا حاج». التقط (جاد) نفسًا عميقًا أحدث ضجيجًا في صدره، وقال: «يعني كما أنت، خائب».

تحامل (جاد) علي بيده الزفرة، أحسست بدهون البط والحمام على رأسي، وقد كان يلمع والقرف باديًا عليه، رسخ في مكانه، يتفقد نظرات الجميع، فوضع الكل عينيه أرضًا إلا (هند) التي حدقت إليه بتحدٍ، تحرك بدماغه صوب (نوفل) فلف الأخير وجهه، تلك علامة رضا بالتطاول على أبيه، فتبسم (جاد) وقال موجهًا

حديثه إلى (هند): «عندما بكى المحروس زوجك لأزوجك به، أخبرته بأنك لست شريفة، وأن رجال الإنجليز كانوا يزورون خيمتك يؤدون واجباتهم، وهناك بعض من رجال المدينة علمت أصابعهم على جسمك، لكن ابن الكلب هذا أخبرني أشعارًا عبيطة كان يسمعها في الراديو لمعاتيه مثله، وأنه لن يقدر على نسيانك والعيش دونك، كان الاتفاق بيننا أنني سأوافق على شرط أن تتحشمي، لكن من تربت في أحضان المومسات ستظل مومسًا».

تضخمت عروق عنق (نوفل)، ينظر إلى الطعام بعينين جاحظتين، وعقله في وادٍ بعيد، وأفكاره تغلي، وأصابعه تهتز وتنتفض، وأذناه في فم (جاد)، و(هند) تحملق في الحاج حتى وجهها كاد يتفل عينيها، والأخير يكمل متحركًا حثيثًا صوبها كلما خرجت كلمة من فمه، وما زالت أصابعه المتسخة تضايقني: «تحداني هذا الخسيس على أنك ستتغيرين، تصلين، وتصومين، كل يوم كنت أراقب بعيني فجرك، وكنت أقبله على مضض، ذلك لأنني لا أريد كسر قلب ابني، رغم أن رجال الصعيد كلهم ينكسرون أمام نظرة مني، إلا أنني لم أقدر على تحطيم من خرج من صلبي، لكنه اليوم يقبل بإهانتي».

وصل إليها والتصق بها، جالسة تحدق إلى فوق تتابع حديثه اللاذع، كلماته التي قطعت قلب (نوفل) ومزقته، ويبدو عليه أنه سيرتكب رعونة، وعلى حين غرة، رفع (جاد) يده الزفرة أخيرًا من فوق رأسي، ومال نحو وجه (هند) وأردف: «كنت أعلم أنك لن تتغيري، لأن الوسخ سيظل وسخًا». ثم فرد أصابعه ولطخ وجهها بالزفارة، علامة على اتساخ جسدها وروحها ونفسها، ووقف مكانه صالبًا طوله كجبل لا محرك له، فمسحت (هند) خلقتها بقرف وقالت لـ(نوفل): «أتعجبك تلك الإهانة التي أتعرض لها؟».

تحصن بالصمت وتحاشى نظراتها، فأردفت: «قلت لك إنني لن أتحمل وسأرحل».

وعلى حين غرة.

بنفس الهدوء المرعب، نطق (جاد): «ارحلي». ورفعني في الهواء، ونزل بي بأشد بأسه على قدمها اليسرى وكانت معقوفة خلفها، فصرخت، سمعت العظام وهي تتكسر، اكفهر (نوفل) زاعقًا بصوت مهيب، رافعًا سكينًا كان يقطع بها اللحم، ووقف في وجه (جاد)، وألقى بالسكين يمينًا بكامل قوته فاصطدمت بالجدار واستقرت في زاوية، وانتصب أمام أبيه ناظرًا بغلٍ واحتجاج، عيناه تلفان كبومة، ورذاذه يتطاير من فمه، فقال (جاد) بهدوء: «أكنت تنوي ضربي بها؟».

صراخ (هند) يصم الآذان، ممتزجًا بشهقات (باتعة) و(لبيبة)ويتخللها نحيب (سمنة) ولطمها لخديها.

النظرات تختلف، نظرة غضب من (نوفل)، تقابلها أخرى باردة من (جاد)، و(خطاب) يشتاق ويدعو بأن تشتعل الدنيا أكثر فكل شيء يدور لصالحه، فالنار إن التهبت سيكون المستفيد الأول، فكت في حركته متظاهرًا بالحماية، وأبناء (عبد القادر) لم يبالوا بالأمر فقد اعتادوا تلك الأحداث الحامية.

حمي الوطيس، فتح (نوفل) شدقه وقال: «لا تصح أفاعيلك». فرد (جاد) بانفعال قهار فخرج صوته خشنًا مفزغًا: «أنت في بيتي، أتخبرني بما يصح وما لا يصح، وشايف أن كلام زوجتك يصح وكلام أبوك لا يصح؟» انفعل (جاد) وخرج عن السيطرة، دمدم عليه، فرفع يديه وضم قبضتيه ودفع (نوفل) في صدره، فنشف الأخير أعصابه وتسمر مكانه، جلجل (جاد) بصوته: «أتنشف جسدك علي؟» خرج الكلام من فم (نوفل) محملًا بالبغض والرذاذ: «لم أعد عيلًا صغيرًا لتضربني».

وكأن (جاد) يقيم الموقف، ثوانٍ مرت ثقيلة، الشيطان يتربع فوق الرؤوس، والكل خاف التدخل، حتى ركض (عبد القادر) الأخرس وانسلخ من يد (لبيبة)، اقتحم شموخهما، وحاول صنع حاجز بينهما، يشير بيديه كطفل صغير لا يعرف كيفية التصرف، رفعني (جاد) باشتداد، ونفسه تتوق لقتل ابنه، من ذا الذي يعارضه، أيفضل راقصةً عاهرةً عليه، ويقف أمامه، لأول مرةٍ في حياته، بل إنها المرة الأولى التي يتصداه أحد، أحكم قبضته على رأسي، ودفعني إلى الأمام بغلظة ليصطدم سن قدمي بفك (نوفل) فجرحت شفتاه، وكسرت سنة

فسقطت، ودون وعي، وكأن (نوفل) يبصر شيطانًا أمامه، رفع يديه وبعقل محكم الإغلاق، دون أن يحدد طريقًا لها، و(عبد القادر) يتلفت يمينًا ويسارًا محاولًا تهدأة الموقف، وبعزم ما في نفس (نوفل) من قوة، فرد يديه وهو يصرخ، وضرب أمامه بجنون قاصدًا أباه، ففرز إصبعًا من أصابعه التخينة في عين (عبد القادر) فانفقأت.

صمت.

هلع.

نافورة دماء تنطر كتلًا من وجه (عبد القادر).

وصراخ مهول منه، يمتزج مع عويل النساء، وكأن القيامة قد قامت.

هرج ومرج.

لطمات متفرقة.

رفعني (جاد) وأنزلني على رأس (نوفل) بغيظ فسقط أرضًا.

الكل مذهول.

مكلوم.

النواح يتصاعد.

فقد الأخرس عينًا، وتكوم أرضًا بجانب أخيه مربعًا، يمسك بوجهه، ويبكي صارخًا، ويتشنج بقدميه ويديه، وركضت (لبيبة) ونحيبها يصل إلى السماء، تتفحص وجه زوجها المتخضب بالدماء، فاكتشفت أن العين سملت.

انتحبت بحرقة وهي تقول: «عين الرجل راحت». لتسانداها (باتعة) و(سمنة) التي ركضت نحوه تندب.

وبغتة، زعيق حاد من (جاد): «لا أريد سماع صوت واحد».

سكتت الدنيا، رمق (خطاب) فقال: «أحضر الطبيب». فركض الأخير خارجًا.

ثم عاد بناظريه صوب (نوفل) يتفقده، ساقط في الأرض ورأسه يحاوط بدمه المسفوح، (هند) قد تعكزت على قدم واحدة منذ ثوانٍ بعد أن كسرت الثانية، أحضرت بنًا وكتمت به جرح رأسه، أوقفت النزيف.

انتصب (جاد) وسط المجزرة يلف رأسه كساقية.

عين (عبد القادر) انقلعت.

جرح فم (نوفل) وفقد سنًا وانفرج رأسه متفجرًا بدماء كبركان.

وكسرت قدم (هند).

المصيبة الأكبر كانت من نصيب (عبد القادر) الذي ظل يئن متألمًا.

تحرك (جاد الله أبو حماقة) ببطء مستندًا إلي، والكل يتابع سيره، يخافون من طيش مفاجئ، صعد الدرج، وولج إلى غرفة (نوفل)، فتح الدولاب على مصراعيه، ونتش بعض الملابس، ودفسها في سفط، ثم سحبها وخرج، وألقى بها من على درابزين السلاملك ونذر الوعيد تتطاير من وجهه.

سقطت في المنتصف، وبصوت شيطان دميم: «خذ مومس الموالد وارحل، لا عيش لك في بيتي».

وسلك الممر بهدوء كاسر، ثم ولج غرفته.

سمعت أصوات البكاء تستنجد بالخالق، أقسم أن الجدران كادت تبكي، لكن ما أفزعني بحق، شعور عجيب

تلمسني، في حالة نادرة، يد (جاد) تهتز، وهو يستند إلي، فدعوت لأجله حتى لا يسقط، فتكون مصيبة.

***

وحدنا نقعد، لا نحاور أحدًا، ولا ننخرط مع ظلامهم، جحودهم، وفسادهم، وما تحمله نفوسهم من جهامة، نبحث عن النقاء والهدوء والسكينة، والراحة، لا شيء يشغل بالنا في الدنيا إلا الفناء لأجل الله، ونبغب لو ندخل الجنة، أنا و(صابر) يساعد بعضنا بعضًا، نحن أتقياء، نخاف الله في تصرفاتنا، ونخشى نهاية تعيسة، وعيشة ناكرة، وحياة بائسة، نعشق الصمت، والتسبيح، والصلاة.

وماذا عني؟

أنا روح (صابر) بن (عبد القادر أبو حماقة) الأخرس، لا أجد تعريفًا آخر يليق بي. عندما سئل النبي -صلوات ربي عليه- عن الروح، قال إن الروح من أمر ربي، فلو سألتني عن نفسي، سأخبرك أنني لا أعرفني، فقط هناك بعض الأشياء تعظم قوتي، والبعض الآخر يضعفني.

أتكلم فيتكلم، يخبو بريقي فيرتخي، أبتهج فتتملكه دعة، العمر يمر بالنسبة إلى جسده، والحياة بالنسبة إلي ثوانٍ، يجوع فيأكل طعامًا، أجوع فأشبع بقرآنٍ وذكر وتسبيح، فيتوهج نوري، يخرج فضلات ويتعرق ويكبر جسده، وأموج أنا وأسبح في أعماقه، يحس باللمسات، وأتأثر بالطاقة حوله، اسمنا (صابر)، ولنا نصيب من الاسم، نصبر لو نهرنا، ولا نؤذي أحدًا، نناجي الله في كل لحظة تمر في حياتنا، ولا يفرق معنا الناس، فالدنيا فانية، نبغي رضاه فيها.

اللحظة الأولى كانت في قعر الظلام، حين سمعنا تخبيطًا وهمسات، وصراخًا، وجسد (صابر) يدفع، هناك قوة تحاول إخراجنا للدنيا، الظلام بعد برهة تحول إلى نور، ورؤية، لم يختلف الأمر بالنسبة إلي، لكنه تبدل بالنسبة إلى جسد (صابر)، فقد أصبح يتعرض لأشياء خارجة عما تكون في رحم أمه، عوامل طبيعية، أمراض، ملهيات، ومهلكات، ومشاعر داخلية وخارجية.

في باكورة حياته، التحقنا بالكتاب، فشعرت بالجوع لأول مرة، القرآن، والذكر، والتسبيح طعام لنا، وتعلقنا بالله، رغم صغر سنه، فكنا نراقب بهدوء، وذهننا صافٍ، بسطاء في حياتنا، وصلنا إلى سن المراهقة ولم ننظر مرةً إلى فتاة، أو يفكر (صابر) في شهواته، نرتدي العمة والجلباب والقفطان، نصلي في المسجد صلاة جماعة، حديثنا قليل، وإن خرج يكون متزنًا رصينًا. نصمت جل الأوقات، نعلم كثيرًا ولا نتكلم، نحفظ أشياء أبصرناها ولا نحكي عنها، مقربان من الله، فينا شيء لله، ونقترب لكوننا درويشًا صغيرًا نسبح في ملكوت ملكنا لا يعرف عنه سوى ربنا.

الأجواء متوترة في بيت جدنا (جاد الله أبو حماقة) بعد ما حدث لأبينا (عبد القادر) وطرد عمنا (نوفل) وزوجه (هند)، الكلام قليل، والدنيا كئيبة، معتمة.

حضر (سعد) طبيب القرية وربط على عين أبينا وبلغهم أنه سيجيء كل يوم ليجدد غلاف الجرح، وأن يصلوا صلاة جنازة على العين التي فقدت، فأبونا الآن أضحى بعين واحدة، ولا مجال لرجوع القديمة بعد أن صفيت كلها، فالجرح غائر، شقت من المنتصف بسبب ظفر عمنا الأصغر، وتهتكت القرنية، ولم تعد صالحة للرؤية، حتى إن لونها تغير للأحمر القاتم، دماء متجلطة، وبكاء ليلًا لا يهدأ من العين الثانية، فهو لا حول له ولا قوة، لا يتحمل الألم، يبكي، ويصرخ، ويمضغ الأحزان، ويستنجد بأصوات غير مفهومة، ولا معين سوى الله.

مرت أيام ثقال، حتى اعتقدنا أن جدنا قد نسينا، لكنه لا يغفل رغم الأعباء، عقله مطحنة لا تتوقف، وكان يسوف الأمر، فحضر ومعه الشيخ (عبد الجيد)، رجل ستيني، يذاع عنه في القرية أنه رجل بركة، يخرج العفاريت ويوقف الأعمال والأسحار وطيبٌ بش، يخبرهم بأنه يفعلها لله، وفي الخفاء يتقاضى أتعاب أعماله، رغم أنه لا يطلب، إلا أن من لا يدفع، يوضع في قائمة المحظورين، حين يحتاج إلى المبروك لا يحضر، ويتحجج بأمور لا قيمة لها، نعلم عنه، سمعنا عنه، وشعرت أنا بروحه من الوهلة الأولى، مظلمة كصاحبها.

دلف من الباب، ووقف خلف جدنا مثبتًا رأسه لأسفل، وجأر بقوله: «يا رب يا ستار».

أمنا (لبيبة) تنفيذًا لتعليمات جدنا أحضرتنا لاستقبال الشيخ على الباب، اقترب الأخير، ومد يده ومسح على جبيننا، ثم سحبنا من يدنا، وأخذنا جدنا وتوجهنا جميعًا صوب غرفته، جلسنا نحن و(عبد الجيد) أرضًا، وجدنا سحب شيشته وعمرها بالمعسل القص والفحم وقعد يتأملنا فوق سريره. وأنا أحوم في جسد (صابر)، فأحسست بما تخفيه نفس (عبد الجيد)، إن الرجل كذاب، بادٍ عليه الاحتيال، ما إن لمس يدنا حتى تحسست روحه، بعيدة عن الله، نجسة، راكدة في جوف سحيق مظلم، كأنها في قمقم معتم، طاقتها منطفئة، علامة على عدم الصلاح، أقسم إن ذلك المبروك لا يسجد لله إلا رياء.

نظر في أعيننا وسمى الله، رفع مسبحته، وأغمض عينيه، وشرع في الحديث: «اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله أجمعين، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين». انتهى من قراءة سورة الفاتحة، ثم انتقل إلى سورة البقرة وقرأ أول خمس آيات، ومن ثم الآيات من مئة وثلاثة وستين إلى مئة وخمسة وستين، وبعدها آية الكرسي الآية رقم مئتين وخمسة وخمسين، ثم الآيتين مئتين وستة وخمسين ومئتين وسبعة وخمسين ثم مئتين وأربعة وثمانين حتى مئتين وستة وثمانين، بعدها قرأ آيات من سورة آل عمران، ثم الأعراف، ويونس، والنحل، والإسراء، والمؤمنون، والشعراء، والصافات، وفصلت، ثم الرحمن، وأول ثلاث آيات من سورة الجن، ثم انتقل إلى الحشر، ثم الملك، والقلم، والنساء، ثم إبراهيم، وختم بالإخلاص والفلق والناس.

أخذ ما يزيد على ساعة كاملة يقرأ في الآيات، متشبثًا بناظريه بنا، ثم بدأ في ترديد الرقية الشرعية من السنة النبوية: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك». اندمج في ملكوت مركزه نحن، ولم نفتح أعيننا برهة، ظللنا نهتز، نسبح، ونقرأ بعض الآيات، ثم التقطنا نفسًا عميقًا مفاجئًا، وانفتحت أعيننا فجأة، ونطقنا قائلين: «أأنت على طهارة؟».

أحسست بروح (عبد الجيد) تنتفض من مخدعها، وقد كانت في سبات، وجودها في نفسه لتعطيه فقط الحياة، حتى إن قلبه اهتز، وبهت وجهه وامتقع، كاد ينطق فأردفنا: «لم لم تتطهر قبل مجيئك، رائحة امراة تخرج من جسدك». انهار الرجل حتى إنه كاد يغشى عليه، فتح فمه ليتحدث لولا أن سعال جدنا خرم آذاننا، ثم تبعه بقوله: «ما الذي تقوله يا عديم التربية، إن القرية كلها تشهد بطهارة الرجل». ثم نظر إلى (عبد الجيد) وأشار إليه معتذرًا: «اعذره يا شيخ، فهو لا يقصد».

فأشار مبتسمًا بيديه المحملتين بحبات السبحة وقال: «لا عليك».ثم تحامل على قدميه ووقف مرتعشًا، ساقاه ترتجفان، هاب نظراتنا، فقال متصنعًا الصلادة: «الولد جيد يا حاج، لا تقلق عليه». ثم توجه صوب الباب راحلًا، ونحن لم نتحرك من مكاننا، أغمضنا أعيننا، وتمتمنا بصوت خفيض: «سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله».

***

شهر بعد الحادثة لم أعهد (جاد الله) على تلك الحالة، ران على صدره الحزن، وقلبه انسحق من الغم، ونظراته باتت ميتة، ناقوس الموت يخبط على جدار روحه، وكان كلما قبض علي بأصابعه كنت أشعر بأن كفه ترتجف وأصابعه تنحل، وصحته لم تعد كما كانت، كأنه هرم أكثر وزاد على عمره ضعف، حتى إن قدميه تتأرجحان في سيرهما، لكنني معينه على السير، فكان يتشبث بي كطفل لم يعتد بعد السير، وخشبي قوي يتحمل ولا يئن.

مرة، كان يمر في حقله، وفلاح دون قصد صدمه، كاد يسقط، لكنه تماسك، وصفعه على وجهه، اعتذر الرجل ورحل مسرعًا قبل أن يقطع عيشه، لكنني لاحظت ضعف (جاد) يتسلل إلى نفوس الموجودين، فعوده الصلب أصبح رابضًا، أناخ، وما عاد يقوى على نكبات الزمن.

بعد رحيل (نوفل) الذي لم نسمع له حسًا بعد فعلته، مرض (عبد القادر) وأصيب بحمى، حتى من يمسه كان يشعر بحمم الجحيم تحرقه، لازم الفراش حتى تعافى، وبعد أن اعتاد فقده لعينه، اغتم وابتأس، لم يعد يأكل مع عائلته، ولا يكلم أحدًا، حتى إن (لبيبة) كانت تحدثه ولم يكن يرد، انتظر كلمة شكر من أبيه، لكن الأخير أبت كرامته، بل إنه رمى عليه اللوم، فتدخله لا يضيف أي معنى إلى الحكاية، ففي النهاية كان (جاد) سينهر (نوفل)، وقرار طرده محسوم، حشر (عبد القادر) نفسه بينهما هو ما أدى إلى تلك المصيبة.

أرى في عيني (خطاب) أشياء عجيبة، جسده يتعملق ويتحكم في الموجودات كأنه سيد البيت، يصحو صباحًا ويزعق في الخدم يحضرون له فطوره، يأكل وحده، ثم يترفل حتى يصل إلى صدر الصالة ويقعد نصف اليوم معاقرًا لنارجيلته، يشاكل كل من يمر أمام عينيه، رجل مرذول، يمارس عنجهية الأكابر كأنه يسحب البساط من أسفل أرجل (جاد)، والأخير يعلم بأفاعيل المكر خاصته، لكنه يتركه يتنفس، فهو لم يعد قادرًا على خنق كل من يسكن أسفل جناحه، ولم يعد يطيق كونه مجحفًا.

تلك ليلة من ليالي (جاد) السنوية، رغم سلطته الواسعة، فإنه يكتفي بواحدة في السنة، مقابلاته في الآونة الأخيرة كلها كانت مع إنجليزي يبدو عليه الثراء الفاحش، وجنون تملّك النوادر.

فوق كلسونه، ارتدى جلبابًا رماديًا داكنًا مخططًا، ولف على رأسه لاسة بيضاء، ولبس فوق الجلباب قفطانًا رماديًا مخططًا، ثم رمى عليهما جبة سوداء، وطوق عنقه بشال أسود ودفس قدميه في حذاء أسود لامع، ثم رش عطرًا إنجليزيًا فاخرًا، وقبض على حقيبة سوداء، ثم أحكم أصابعه علي، وخرج في صمت.

على الباب، في دجنة الليل، انتظره خمسة رجال عمالقة، واثنان من الحناطير، الساعة تدق الرابعة فجرًا وصياح الديكة يجلجل، ركب حنطورًا ومعه اثنين، والثلاثة الآخرون ركبوا الثاني، وانطلقوا.

وصلوا إلى مجرى طريق زراعي، حطوا عليه، ووقف الجوادان يتمخطان ليطردا التراب الذي ملأ خيشومهما، حتى وصلت سيارة فارهة إصدار السنة، يوجد قليل منها في مصر، نزل منها الإنجليزي الأشقر ذو الشارب الأصفر الملفوف على فمه، حمرة وجهه تتعاظم مع برودة الهواء الضارب، يلازمه اثنان معلقة حقيبة في يد أحدهما، الثلاثة يحشرون مسدسات في بناطيلهم، تقدم (جاد الله) ممسكًا بحقيبته نحوهم فجذب الرجل الأخرى من مساعده وتحرك ليلتحما في المنتصف، فرد الرجل ذراعيه بوجه بش فاحتضنه (جاد) ضاحكًا ليقول الرجل: «جاد حبيبي، هذه مرة سافرت مخصوص صعيد لأجلك، أعلم أنك سافرت كثير قاهرة لي».

ضحك (جاد الله) وقال في كياسة: «يا خواجة أنا أسافر لك في أي مكان، لكنك تعلم، لن يسافر المسخوط معي، أنت تقدر أن تأخذه وتسير به في أي مكان». فمد الإنجليزي الحقيبة وبادلها مع (جاد) وشرعا يتفقدان محتويات الحقيبتين، والأشقر يقول: «ليس الأمر كما تظن جاد، لكن لا عليك، المهم أن تكون سعيدًا».

صافحه (جاد) بحرارة بعد أن تأكد من عد الأموال قائلًا: «سعيد جدًا يا خواجة، والأهم أنني سعيد لأنك سعيد». ضحك الإنجليزي ضحكة مصطنعة ولكزه في جانبه وقال: «رجل ألعبان».بادله (جاد) بنفس الضحكة واحتضن بعضهما بعضًا مرة أخرى، ثم سلك كلٌ طريقه.

كما قبض (جاد) على رأسي، ضغط على الحقيبة، وصل إلى البيت، طلع صوب غرفته، تفقد (سمنة) فوجدها تغط في نوم وتصدر خنفرة خفيفة، يا للقرف. ثم صعد إلى الغرفة العلوية التي لا يملك أحد مفتاحًا لها غيره، وولج. ترك الباب مفتوحًا، لا أعلم إن كان إهمالًا، أم لأن الكل أموات في موتتهم الصغرى، فتح الحقيبة، وشرع في تقليب محتواها، ثلاثين ألف جنيه، مبلغ مهول، وكما يفعل دائمًا، سيأخذ الحقيبة، ويدفنها في مقابر العائلة، مع أخواتها، في القبر الذي لا يعرفه أحد، ولا يملك مفتاحًا له إلا (جاد)، ولا يعلم آل أبو حماقة سر تلك المقبرة غيره، التي يدفن فيها أموال المساخيط، آثار مصر الفرعونية، ويخرج منها التماثيل، المقبرة لها تاريخ فرعوني، وتاريخ يخص (جاد).

منذ ثمانية أعوام اشترى (جاد) قطعة أرض ليبني عليها مدافن للعائلة، وفي أثناء البناء كان يحفر لعمق كبير، ويبني عيونًا في جوف الأرض، ليدفن على الطريقة الشرعية، وفي تلك المقبرة، كان يحفر بها اثنان من العمال الغلابة، حين ضربت فأساهما سطح مقبرة فرعونية، ركضا كالمهابيل وأخبرا (جاد الله) ليكتسبا مكانة عظيمة بجانبه، وبدوره تفقدها، أصيب بصاعقةٍ مدوية حين علم أنه رغم غناه الفاحش، سيكون أغنى شخص في صعيد مصر، بل في مصر كلها، وكان يبيت في المقبرة بجوار ذهبه، ويحفر الاثنان، بعد أن وعدهما بنصيب من الكنز، واحترام كبير في الصعيد، حتى انتهيا، وأمسك التماثيل بيده، فقتلهما بفأس، ودفنهما في المقبرة، وردمت القصة معهما، وفي قلب (جاد)، الذي راح بعد ثلاث سنوات يروج لبضاعته مع الإنجليز، وعلم طريق زبائنه، فخبأ ما يقارب مائة وعشرين ألف جنيه أسفل التراب، في مقبرةٍ بنيت من آلاف السنين، تحاوط بالذهب.

أغلق الحقيبة، فتضاءلت ظلال أمام باب الغرفة ترسم سيدة من نساء البيت، (لبيبة) زوجة (عبد القادر). ولم يلاحظها (جاد)، دفس الحقيبة أسفل السرير دون إحداث أي جلبة، ثم خرج عائدًا إلى غرفته، ونام بجانب (سمنة)، ففاب عن الدنيا.

***

رغم أننا نملك غرفة، لكن منذ رحيل الشيخ الكاذب، وأمنا تصر على نومنا في غرفتها، ونحن الآن نضطجع على جانبنا أرضًا، نلصق عمودنا الفقري بالجدار في ظلام مخنوق، نذكر ربنا، وأتغذى على همسه، ننظر إلى أبينا الذائب في نومه، وحين فتح الباب، وولجت أمنا، سكتنا، وأغمضنا أعيننا، وأخذنا نردد اسم الله في سرنا ولا نعلنها.

أحوم في جسده، وأتنفس راحته، وأشعر بتؤدة عقله، ودعة قلبه، أما عن روح أمنا، فتتلوى في لظى جحيم نفسها، فرجنا جفنانا ببطء، مللنا غلقهما. زغدت أمنا يد أبينا، ففزع وقام قاعدًا، فأشار لها ببلاهة مستفهمًا، فسكتت سكوتًا مزعجًا، كأنها تقلب الحديث في نفسها، فزفر أبونا بالغضب ورفع الغطاء على نفسه ورمى جسده، فكشفت رأسه، ونظرت إليه، فأشار متسائلًا بحنق، فاحتضنته، دون أن تنبس شفتاها، تعجب أبونا، وطبطب على ظهرها، فأمسكت بيده، ورمت جسدها بجانبه، وسلطت عينيها إلى سقف الغرفة، كأنها تغرق في أحلام اليقظة، ثم همست: «بإمكاننا الرحيل، والعيش في مصر مثل البهوات».

همس يصل إلى الآذان، ويبعث بالتساؤل، لكن أبانا فضل الصمت، فهي تهذي، ومصيبة عينيه قلبه لم يبرد عليها، فيحمل في نفسه أطنانًا من العذاب، ويكتمه، حتى التفتت إليه قائلة: «أتحب العيشة هنا يا عبده؟».

وجوم، وعلامات استفهام، وضجر، وعدم رد، فراحت تتفقد سقف الغرفة وأردفت: «اثنان وعشرون عامًا ولم أظهر لك تعبي، لكنني لأول مرة سأقولها يا عبده، تعبت، لم أعد قادرة على التحمل».

عدل من وضعية جسده، وقعد على وسادته، فصلبت عظامها وتربعت، وتفقد بعضهما بعضًا بصمت، فقالت: «ما لك تتعجب، ألم تلاحظ كل تلك السنوات، من حقي أن أعيش حياةً جيدة، أنت نفسك طلبت حياة هادئة، أترى ما أطلبه كثير؟» انتظرت ردًا، دقيقة كاملة وأعينهما تتلاقى، فاضطر إلى الحديث بإشارات: «أنا راضٍ بما قسمه الله لي، وكما ترين، ليس بيدي شيء».

أشاحت بوجهها عنه، وشخصت ببصرها، ثم قالت: «ابن عبد السميع جارنا سافر مصر، وفتح محل بقالة وحياته تغيرت، البارحة زوجته مرت علي وأعطتني هذا الإيشارب هدية، يباع في الدكاكين هناك». ألقت بالإيشارب في وجهه، واستطردت: «وأخبرتني أنها سترحل من المركز وتهرب من الذباب والناموس ورائحة الجلة، وتعيش مثل الخواجات في مصر».

تنهد لتمتلئ رئتاه بالهواء، ثم أشار قائلًا: «نامي يا لبيبة، الله يهديك»..حدقت إليه وقالت: «ابن جاد الله أبو حماقة ولا تملك جنيهًا واحدًا». صدم من حديثها، لأول مرة تجرحه، تبسم بوجه مكسور وقال: «الحياة ليست

مالًا، الحياة...» قاطعته: «راحة بال، وطمأنينة، وأنا لا أملك مالًا، وكما ترى، حياتي حزينة».

أزاح الغطاء عنه وبان عليه الغضب: «ما الذي ينقصك؟». فردت: «ما الذي أملكه؟». الرياح تضرب النوافذ فترتعش، وقلوبهما تئن معها، ونحن ارتعدنا من نبرتيهما، وظللنا نردد اسم الله ونبطنه.

الحرب بينهما حرب نظرات أكثر منها كلام، فعينا أمنا تشرحان كثيرًا من المعاناة والذل، وعينا أبينا تشرحان قلة الحيلة والضعف، والشفقة تجاه زوجه، طبطب عليها، فأزاحت يده، بكت، تنشج، وتنتحب، كأن قلبها قد فصم، فحاول تهدأتها وشرع في إشاراته: «ارضي يا لبيبة حتى يهون الله الأيام». تقطع صوتها وقالت في نكد: «أنا حزينة يا عبده، تعيسة، العمر يجري، وحياتي مملة وكئيبة، وعائلتك لا يحبونني».فضحك وأشار: «هم لا يحبون أحدًا».

مسحت دمعها، وأنفها الذي تمخط، ثم قالت: «عبده، أريد أن أمشي من هنا». قابلها بالصمت ونظرات حائرة، فتحركت صوب الباب، فتحته، تفقدت الممر، ثم ألقت نظرة علينا، فأغمضنا أعيننا، فلم نرد أن يشعرا بالضيق لوجودنا، حتى لا تبتر لحظتهما.

قربت منه، وقالت: «نزلت من على السطح، كنت أتفقد الحمام لأنني اكتشفت البارحة أن هناك عرسة تأكل الزغاليل، وعند رجوعي، باب الغرفة العلوية كان مفتوحًا، رأيت أباك يعد أموالًا كثيرة، أقسم إنني لم أر هذا الكم من المال في حياتي». وسكتت، فتلفظ: «بكرة يأكلها الدود».

ضاق صدرها ونفسها، فنطقت: «فرصة، لن تأتي مرة أخرى». فزع بصوت مسموع عبارة عن حرف واحد «آآآآآ». كاد يقف فوق السرير، وجهه احتدم غيظًا وإشاراته تقول: «ما الذي تقصدينه».أجلسته وهي تكتم فمه، فأبعدها عنه وهو يشير: «لم تجريني لمعصية الله». لكزته في صدره: «ذلك حقك الذي لن تطوله، سيأكلون مال أبيك بعد موته، أتظن بأنهم سيعطون العبيط حقه». نظر إليها بعتاب، فاقتربت منه: «لا أقصد إهانتك، لكن هذا ما يقولونه، أنا وأنت نعرف أنك أعقل منهم، لكن أرجوك، استخدم عقلك مرة واحدة بطريقة صحيحة».

أشار لها: «انسي». ثم طرح جسده على الفراش، وحرك إشاراته دون النظر إليها: «ولو فتح هذا الحديث مرة أخرى، سأطلقك». كادت تسقط من وقع كلماته، اهتزت، مالت، ثم اعتدلت، وسقط دمعها، فتركت الفراش، وتوسدت الأرض بجانبنا، تقلبنا ولففنا جسدنا الناحية الأخرى، فاحتضنتنا من ظهرنا تستمد منا السكينة، وشرعت تنتحب طوال الليل، حتى عندما هدأ جسدها، بكت روحها.

***

في اليوم الثاني، تجلى على جدنا الكلل، يكت في سيره، لم يخرج من غرفته إلا لزيارة الكنيف، وبدا على وجهه أن الموت ينطحه ككبش أعمى. وظهر اهتمام عجيب من أمنا، كأنها تراقب تصرفاته وتحركاته على غير العادة، بل تتقرب منه، وتتمسح فيه، كضريح تبغي رضا سيده، فهي من أعدت له فطوره، وتتردد على الغرفة تطمئن عليه كل برهة، يبدو أنها قررت تسويف السرقة، والتصرف بخداع. لم يوله أحد اهتمامًا إلا أمنا وستنا (سمنة) التي بركت بجانب فراشه تمسح على رأسه بقماشة مغطسة بماء بارد، تحاول اتباع إرشادات الطبيب الذي زاره ولمس جسده فطلب كمادات لتنزيل الحرارة التي كادت تحرقه هو ومن حوله، وأخبرهم بأنه مصاب بإنفلونزا بسبب برودة الهواء.

واليوم كالخوالي، كئيب وبغيض يمر على بيت آل أبو حماقة، لكننا لاحظنا تغيرات في الوجوه، كأن جدنا على وشك الرحيل، الكل ينتظر الإعلان والنهاية، ستنا تنتحب باستمرار، وابتسامات ممزوجة بحزن مصطنع تحتل بعض الأوجه، وكرب حقيقي يظهر على وجه أبينا.

لم يزر جدنا الغرفة العلوية، التي تبتلع في جوفها حقيبة بها وافر من الأموال، لذلك قررنا مراقبة أمنا، حتى لا ترتكب طامة.

في صدر الصالة يعاقر عمنا (خطاب) النارجيلة مزدهيًا، غارقًا في سخام روحه، وقف أخوانا (خباس) و(يونس) قريبين منه، لا نطيق أفاعيلهما، فـ(خباس) مخاتل، كذوب، غشاش، نصاب، يعشق الرهان والقمار أكثر من عشقه لنفسه وذاته، ومن بعده النساء، يحبهن كعينيه. أما (يونس) فداهية، كليم، يمتهن أفانين الحديث، ولم يكن خطلًا يومًا.

وضع (خباس) دومينو أمام (يونس)، وابتسم، فقال الأخير: «يا خباس، أعطني القرشين ولا تتدحلب بحركاتك». تلاعب بقطع الدومينو ليفرق بعضها عن بعض قائلًا: «والله يا يونس لم أغشك، أنت خسرت، وشرع الله يقول إن القرشين حقي».

ينطق بشرع الله اللعين. نحن نجلس كعادتنا في ركن، نستمع، ونسلط أعيننا على غرفة جدنا، نراقب تحركات أمنا، وكلمات (يونس) تتردد: «شرع الله يا ضلالي، أنا لا أحتاج إلى القرشين، لكن يعز علي أن أتعرض للنصب من أخي». ضحك (خباس) وقال في أثناء توزيعه للدومينو: «توهم نفسك، اعترف بأنك فاشل وأنك خسرت». لم يجب، فأردف مشيرًا إلى الدومينو: «لتستعيد القرشين، العب، وشرفي لن أغش».

افتر (يونس) قائلًا: «شوف من يحلف بالشرف». كلأ عن نفسه ورد: «عيب عليك، أنت تعلم أن كلمتي سيف». فباغته (يونس) وقال: «ومنذ متى كانت لك كلمة». حاول (خباس) دحض (يونس) وقال بنبرة ملحة حتى ينهي حديثه: «العب يا يونس».

فرد الآخر مستغربًا: «ألعب لأسترجع حقي؟» فبادله (خباس) بنظرة نعرة وأنزل أول دومينو من يده، أذعن الأخير ورفع الدومينو خاصته بغلظة ورمى أول واحدة ليبش (خباس).

تلعب (شربات) و(ضاحي) أخوانا الصغيران معًا، ركضت البنت تلف حولنا تحاول لفت انتباهنا، لكن بالنا في مكان آخر. أرادت فك حصرها، فركضت مسرعة صوب باب الحمام، في نفس اللحظة ترك عمنا (خطاب) النارجيلة من يده ووثب فاردًا منكبيه، ثم تحرك نحو بيت الراحة هو الآخر، و(شربات) تضغط بيدها على رتاج الباب، وما إن فتح حتى وصل إليها عمنا (خطاب)، ولجت بنصف جسدها، فقبض على يدها وألقى بها خارجًا، دون إعطائها التفاتة عابرة، ودخل الحمام وأقفل الباب خلفه، فبكت من السقطة، ترك (يونس) و(خباس) الدومينو يتابعان ما حدث، ونحن معهما.

صراخ أختنا علا، ومعه تسرب بولها إلى الأرض، وبلل ملابسها، نزلت أمنا تركض على السلم تنهرها لتسكت فجدنا سقيم، وما إن وصلت إليها، وأبصرت ملابسها وقد أغرقها البول، حتى شدتها من يدها وضربتها، كيف تبول على نفسها، وهي ذات السنوات التسع، فتهدجت البنت في الحديث قائلة: «عمي خطاب منعني من دخول الحمام». تلفتت حولها، وسلطت ناظريها على باب دورة المياه، فخرج عمنا يعدل كلسونه، فتساءلت بجهامة: «كيف تمنع البنت من دخول الحمام وهي صغيرة لا تتحمل الانتظار!».

لم يرد عليها، رمقها بنظرة تأفف، وتحرك صوب الشيشة باختيال، وأمسكها، فقالت بغيظ: «كبير وشائخ وتصغر عقلك بعقل طفلة».رمى خرطوم الشيشة من يده، وقام من مكانه، وتقدم إلى أمنا حتى التصق بها، طولها يصل إلى صدره، رفع يده وصفعها.

انتفض (يونس) و(خباس)، وركضا نحو أمنا التي كادت تسقط، ثم صر عمنا على أسنانه ونطق: «يا لبيبة، هذا البيت بيتي، وأنتم مجرد ضيوف، كلها أيام وتلقون في الشارع، فحين تتحدثين مع سيد البيت، عليك أن تكوني حذرة».

تلقى نظرات تقزز من (يونس) و(خباس)، فالتفت إليهما بخيلاء وقال: «عيشوا أيامكم الأخيرة معززين مكرمين، فأنا لا أريد أن يقال عني انتظر مرض الأب ورمى أخاه وأولاده في الشارع، هذا ليس معناه أنكم لن ترحلوا، بل سترحلون، لكن كل شيء بميعاد».

اعتدلت أمنا التي كانت تستوعب ما يدور، وفي لمح البصر لطمته على خده فانكمشت رجولته وضؤلت

حتى اختفت، فكاد يتقوض، لولا أنه هجم عليها كأسد جائع صائحًا: «يا بنت الكلب، والله لأقتلك».

مديد القامة، سابغ، فارع، هائل، فتتها بين يديه، خنقها، فانقض عليه أخوانا (يونس) و(خباس) وحاولا تطويقه، لكنه أطاح بهما، صفعهما بكفيه على وجهيهما ودفعهما فتكوما، انقلب البيت رأسًا على عقب، كالثور الهائج لا يقدر على تلجيمه أحد، ينكل بالثلاثة ضربًا، خرجت ستنا تصرخ على باب غرفة جدنا، وتستغيث به، لكنه يغرق في علته، دفع باب غرفة أخينا (حكّوم)، وما إن أبصر المنظر المهيب، حتى ولج مرةً أخرى، وأمسك بشومة، ونزل على الدرج حتى إنه أكله أسفل قدميه، وما إن وصل إلى عمنا (خطاب) حتى ناوله بالشومة على قدميه فأسقطه، ومال عليه من الخلف، وطوق عنقه بها، فرزح تحت وطأة الألم، وضغط (حكّوم) عليه بقوة، وصاح في أذنه: «أمي يا ابن الكلب، والله لأؤدبك».

صراخ (باتعة) زوجة عمنا وصل إلى بلاد الغرب، وأختنا (شربات) تبكي وتنتحب، ومعها أخونا (ضاحي) الذي فزع مما يدور حوله. خرج أبونا بهلع، أبصر أخانا (حكّوم) يخنق عمنا بشومته، ويساعده أخوانا (يونس) و(خباس) فيضربانه، فبدا قاب قوسين أو أدنى من الموت، زعق أبونا بأصوات غير مفهومة، وأكل الدرج، ثم أبعد (حكّوم) بكل قوته، وصفع (يونس) و(خباس) على وجهيهما، وصاح فيهم مشيرًا بيديه بأن يبتعدوا، فركض (حكّوم) صوب أمنا، واحتضنها وضمها إلى صدره، وعيناه تخرجان نارًا صوب عمنا، الذي حاوطه أبونا ليحميه، التقط أنفاسه وهدأ، ثم دفع أبانا باستشاطة، وهو يصيح: «والله العظيم لن أسكت، سترى يا عبد القادر، والله لأكون سببًا في سواد عيشتكم».

فأشار أبونا له يستسمحه، ويحاول تهدأته، فضربه في صدره وتندر عليه: «أتظن بأنك تملك العقل لتحل مشكلة، أنت عبيط. وأولادك هؤلاء والله لأجعلهم يبكون دمًا». بش أبونا وأشار بدماثة: «الله يسامحك، وحقك علي سأعلمهم الأدب».

اقترب عمنا منه، ووجهه المفرطح تسربل بالدم، ولم يضمر ما في نيته، وزعق بوجه صليد: «بكرة أبوك يموت، وستعلمهم الأدب فعلًا، لكن في الشارع، جنب الكلاب، ومعهم تلك الفاجرة». صعق أبونا وآلمه قلبه فأشار: «احفظ لسانك يا خطاب، إنها زوجة أخيك».

طوّق عمنا ياقة جلباب أبينا، فبدا أمامه مهيض الجناح، وشرع في الحديث بكّره العالم أجمع: «لم تشرف العائلة يومًا، أبوك كان يمشي في الغيط وأسمع الناس يقولون عنه أبو العبيط، رغم هيبته التي كانت ترهب الناس، وتعلم، لم أرد غيبتك، لم أضربهم كما أفعل، كانت تصلني الكلمات وأسكت، يضحكون عليك عندما تزورنا، وأبوك كان يداري وجهه بعيدًا، يشعر بالعار لأنك ابنه، تمنى لو لم ينجبك، يتبرأ منك أمام البشاوات، يخبرهم بأنه أنجب اثنين، وينكر وجودك. في يوم زاره باشا من مصر ورآك فسأله، فرد أبوك بأنك غلبان يعطف عليه، اعلم قدرك، واعرف من أنت في هذا البيت، لم تعمل يومًا لتحصل على قوت يومك، تأكل وتشرب أنت وزوجتك وأبناؤك دون أن توسخ يديك، وأنا من يحمل الطين على رأسه، جهز نفسك أنت وهؤلاء الأوساخ للرحيل من بيتي، ولا تحسب نفسك ستقف في جنازة أبيك، والله لن يحصل».

نضح فمه بالسم، ثم ترك جلبابه، ومشى، قعد مكانه، وأخرج غضبه على نارجيلته فدفعها أرضًا فتهشمت، وشخص ببصره صوب الجدار، في حين أن أبانا سقطت دمعةٌ من عينه، ورحل متوجهًا صوب غرفته، فتحها وأحكم إغلاقها خلفه.

تفرق الجمع، وتحركت أمنا إلى أبينا، فتبعناها بهدوء غير ملحوظ، شقت الغرفة بدفعها بابها، وولجت، أغلقت الباب خلفها، اقتربنا من الباب وجلسنا أرضًا نسند رأسنا إلى الجدار، نتفقد أعلانا، نسمع بكاء أبينا ويقطّعنا، كما لو أنه فقد عزيزًا، نحيب متواصل.

ماذا يحدث خلف الجدار؟ أستقنعه الآن بمصيبتها، توسوس له؟ ضعفه سيكون مدخل أمنا. في تلك اللحظة علمنا أنه سيتبعها في أي فعل وقرار تأخذه، ويا للحسرة والمأساة.

***

في هزيع الليل، ليلة غابرة، كئيبة، قاتمة، فُتح باب غرفة أبينا، خرج منها ومعه أمنا، ذبنا في الظلام نتابع تحركاتهما، استقلا الدرج، انتهيا إلى الغرفة العلوية، أخرجت أمنا حديدة مدببة، ضغطت على رتاج الباب تصلي للهدوء أن يحضر، ضربة خفيفة، ثم ضغطة، ومعها محاولة ساذجة من أبينا، فانفتح الباب، دخلا، ثم أغلقاه خلفهما فلم يقفل، فقط ضم ليحجب الخارج.

دارت رأسنا، أردنا التدخل، إنهاء تلك الأفعال المحرمة، لكننا لم نقدر، متاريس عقلنا توقفت بغتة، حين أبصرنا جدنا يخرج من غرفته، متكئا على عصاه، يكحت قعرها أرضًا، ويشد قدميه خلفه، فبدا الوهن يكسره بين فكيه.

صاعقة سقطت على رأسنا، ذلك لأن جدنا لم يتجه إلى المرحاض، بل صعد، وجهته الغرفة، فاق من غيبوبة مرضه، ليطمئن على أمواله، في اللحظة التي قرر فيها أبونا وأمنا سرقته، يا لتدابير القدر.

لم نملك أي حيلة، إلا الركض صوب أخواتنا، لإخبارهم بالمصيبة التي وقع فيها أبوانا، إذ إن الليلة تبدو كأنها مجمرة، ستحترق وتلتهم كل من في البيت، في جزء من الثانية، الكل سيتآكل، ولن تكون العاقبة خيرًا، بل رائحة الخراب تحوم في المكان.

***

حافري ترك بصمةً على الأرض، أيام وأنا على تلك الحالة، مركونة، بعد سقم (جاد الله)، أضناه المرض، ولا علم لي، أتلك هي نهاية عهدي معه، أسيموت؟ وإن مات، فيمَ سيستخدمني أبناؤه بعد رحيله؟ قدم كرسي أو طاولة؟ أم سألقى مع كراكيب لا قيمة لها!

الليلة الرابعة، يومَ ليس كغيره، هناك اختلاف، فـ(جاد) يبدو عليه الرواء، بشرته نضرة، وصحته تعود رغم جسده الأعجف اللدن، وها هو يتحامل على نفسه، لم يطلب مساعدة (سمنة)، يقوم، يقف، يقترب، يمد يده، يقبضني.

سلك طريقه صوب باب الغرفة، خرج، وتسلق الدرج، يبدو أن الزيارة الأولى ستكون لغرفته العلوية، حتى إن حاوطه الموت، سيفكر في دنياه، تلك حال (جاد الله أبو حماقة)، يشتري الدنيا ويبيع الآخرة، أم إنه يشعر في نفسه بأن موته بعيد.

رغم اهتزازة بنيانه، ونحول منكبيه، ووهن مشيته، فإنه وصل إلى الغرفة، وما إن مسها بيديه، حتى فتح الباب، أبصر أجسادًا غائمة فاهتز، شعرت بفجعته، أخرج أعواد ثقاب من جيبه سريعًا، وأشعل لمبة الجاز، حصحصا أمام ناظريه، ارتجافة أجسادهم أفزعتني، وجل (عبد القادر) واقفًا ساندًا ظهره إلى جدار الغرفة التي تسكنها العناكب وقد هدم منازلها الهشة، و(لبيبة) تحتضن حقيبة المال، ثوانٍ مرت، الأعين تتبارز في صمت، نظرة استنكار من (لبيبة)، خوف من (عبد القادر)، وغضب من (جاد الله)، يا للمصيبة، سيقتل الرجل ابنه وزوجته، لا خيار آخر، تلك أحكامه، الخيانة ثمنها الموت، حتى لو من أقرب الناس إليه، ولو ابنه، ومنذ متى اعترف به كابن، فرصته الوحيدة كانت في تسليمه العمودية وإثبات نفسه، ولغبائه رفض، وها هو يسرق أباه ويخون ثقته.

وحدث ما لا يتوقعه بشر.

انقضت (لبيبة) على جسد (جاد الله) ودفعته بكل قوتها فتهاوى أرضًا، من أين أتت بتلك الجرأة؟

الذهول يلتهم وجه (عبد القادر)، وسقطت أنا لأول مرة من يد (جاد)، مع انهيار جسده، ارتطامٌ مدوٍّ، لا أعلم إن ساعد في إفاقة البقية من نومهم، أم إنهم غائبون. المرض ما زال ينهش جسد (جاد)، واستغلت (لبيبة) ضعف حالته، وانقضت عليه كلبؤة تلتهم فريستها، تأوه (جاد) بوهن، لكنه لم يصب بخمش، تكوم أرضًا، تلوى

وأصدر أنات. ألقت (لبيبة) الحقيبة أرضًا، تتحرك بسرعة البرق، شدت حبلًا سميكًا، وصاحت في وجه (عبد القادر) -الذي نشع عرقه من الخوف- بصوتها الخفيض: «ساعدني على تقييده».

سحباه من قدميه صوب كرسي مركون عفا عليه الزمن، ثم أمسك كل منهما كتفًا من كتفيه، ورفعاه بكلفة وكد ومشقة رغم نحوله بعد مرضه، وأجلساه على الكرسي، وبدا عليه أن الدنيا تلف برأسه، وتركاني أولاد القحبة ملقاة على الأرض، أمسكت (لبيبة) بالحبل، ولفته على جسده، طوقته، ثم ربطت فمه بإيشارب كانت تلفه على رأسها، في حين أن (عبد القادر) ابتعد والتصق بالحائط مرةً أخرى، وكادت روحه تخرج من الرعب.

دقائق مرت، استعاد فيها (جاد الله) قوته، وأخذ يتمرغ في أحضان الأفعى التي تلف جسده، على أمل تحريره وتأديب الخارجين عن طوعه، لكنه فشل، فحدق إليهم، نظراته بها موت وثبور، ينز العرق من جبهته سبب سقمه، فتضيف القطرات مهابةً على قسماته.

الموت جليسهما، لا منقذ لهما، تحديا من لا يرحم، تعديا على جسده، وأمواله، والعاقبة محسومة، يدفنان في التراب. تطلعات (جاد الله) تحمل قليلًا من عدم التصديق، العبيط يشترك في جريمة سرقة، ما الذي سيصنعه بالمال!

دفع الباب ببطء، كادت روحهما تخرج، فدلف الأبناء جميعًا، (يونس) و(خباس) و(حكّوم) و(صابر) و(ضاحي) و(شربات). اكتملت أركان الجريمة، التي تشير كل الأدلة إلى أن أسرة (عبد القادر) مذنبة، وعقابهم جميعًا الذبح أو الشنق.

ركضت (لبيبة) صوب طفليها (ضاحي) و(شربات) اللذين نظرا إلى جدهما بفزع، فاحتضنتهما وأبعدت ناظريهما، فأغلق (حكّوم) الباب، ونطق هامسًا: «أتحسبون أن أمرًا كهذا سيمر؟ ماذا شربتم في الليل؟»..أطبقت كفها على فمه: «اسكت». خبا صوته، وأبعد يدها ناظرًا إلى جده، فنذر الوعيد تتطاير من وجهه، فعاد قائلًا: «الرجل ينوي على شر». فقطع (يونس) هدوءه: «ما يحصل الآن جنون». وقعت عيناه على الحقيبة وكشف محتواها، فعلم الدافع، حاول اصطناع الهدوء متلفظًا: «علينا أن نفكر في مخرج». فأجابه (خباس): «لا مخرج، ولن يسامحنا، عينه تنطق بالموت». تلقف (صابر) نفسًا هادئًا، ثم اقترب من جده، لمس يده، لم تتغير نظرته، ظل الموت يحلق حولها، فقال (صابر): «سيدنا نوح سامح ابنه، وظل ينادي عليه وقت غرق الكافرين في طوفان صنعه رب العالمين، ألا تملك في نفسك قلبًا يسامح؟»

أغمض (صابر) عينيه، ثم ارتعش، ورجع إلى الخلف، كأنه شعر بشيءٍ أرهبه، وعيناه تحملقان فزعًا.

كاد يتكلم (حكّوم) فقالت (لبيبة) بصوت يسعى للحرية والوصول إلى العالم لكنه مسجون: «اصمتوا، كفى كلامًا». تنفست بهدوء، ثم نظرت إلى (عبد القادر) نظرات تساؤل، ثوانٍ مرت تحثه على النطق، حتى أشار الأخرس قائلًا: «نهرب؟». ردت عليه: «لن يتركنا ولو سافرنا آخر البلاد، رجاله في كل مكان».

رمى جسده ليجلس أرضًا، جأر بالبكاء، واحتضن نفسه، ثوانٍ، وشرع في إخراج ما في نفسه: «أنا خائف من النظر إليه». قام واقترب، يحاول تحاشي عينَي أبيه اللتين كادتا تقفزان من محجريهما، ومد يده ليسحب الإيشارب، جذبته (لبيبة) فتنشج وتطلع إليها بتبكيت، ثم أشار بيده قائلًا: «دعينا نتكلم». ظن بأن في الحديث نجواه. دفعته صوب الحائط، وبوجهٍ غاضب: «هو لا يفهمك، أنت العبيط الذي أنجبه ويريد التخلص منه، أنسيت كلام أخيك خطاب، إنه لا يعترف بوجودك في الدنيا، أتظن بأنه سيسامحك؟» تملص منها وهو يشير: «دعيني أحاول» كاد يزيل الوشاح، فأمسكه (حكّوم) وأحكم قبضته عليه ناطقًا: «لو نادى على عمي خطاب، ستكون ليلة سوداء».رمقه (عبد القادر) بعتاب، ذلك لأنه تألم من قبضتيه، لكن الأخير لم يرخِهما، وترك عينيه تنهرانه في صمت، فقال (يونس): «من رأيي أن نأخذ الأموال ونهرب، وبها نستطيع أن نحمي أنفسنا». بصوتٍ بالٍ تحدثت (لبيبة): «جدك يملك جيشًا». وحين سمع الجميع كلمة أموال، تسابقت الأعين صوب الحقيبة، فعلموا ما يدور.

انزوى (صابر) في ركنٍ وجلس، أغمض عينيه، وبهدوء شرع في الترديد بنغمة ثابتة: «الله». لم يلتفت إليه أحد، فأوصلت (لبيبة) (ضاحي) و(شربات) إلى أحضانه، فتعلقت البنت بعنقه وجلس الولد بجانبه، لكنه لم يتزحزح، وتحرك (خباس) وسحب أباه من يد (حكّوم) وركنه أرضًا ثم تفقد الحقيبة، وخطا نحوها، وبخفة يد شد منها بضعة أموال وضعها في جيبه، فالغبن صفته، ثم أخرج سيجارة وأشعلها، وقال: «من رأيي أنه ضعيف، ومريض». ثم قربهم من بعض وهمس: «نقنعه بأن ما يحدث الآن هلاوس». ونظر إلى جده الذي كان يحملق فيه.

بكى (عبد القادر)، انتحب بعمق يسحق قلبه، بدا عليه أنه فقد نفسه، وقسمات (حكّوم) كشيطان مريد، و(صابر) كما هو صابر، أما (خباس) و(يونس) فبدت عليهما اللا مبالاة، لكن الأمر في (لبيبة)، تبكي مثل (عبد القادر)، يظهر عليها الرعب، الخوف، الموت، وتتحاشى نظرات (جاد). ركضت فجأة صوب (عبد القادر)، وسقطت في حضنه، وشرعا في البكاء كالأطفال، ومن ثم ابتعدت، تصرفاتها غير مفهومة، وقفت، نفسها تلومها، أم إنها تعذب، دفعت (حكّوم) عن ناظريها، ودققت في عيني (جاد)، تبادلا النظرات الجامدة، ثم همست: «لم تترك لي بديلًا». اقتربت منه، بصمت مريب، الدموع تغزو عينيها، حتى وصلت إليه، ومدت يديها، لمست خديه، ثم علقت ناظريها إلى (عبد القادر)، وبكت بصمت، وطوقت عنق (جاد الله)، قبضت عليه تخنقه، وقالت: «لا حلّ آخر». تبكي، كأن الشيطان يقنعها بفكرتها، أن لا هروب إلا بموت (جاد).

أجبر (عبد القادر) عينه الباقية على القفل، يحاول تلاشي فكرة أن تقتل زوجه أباه، يا لحسرة قلبه، مكلوم، وظل (صابر) غارقًا في ملكوته و(شربات) تذوب في حضنه، وبجانبه (ضاحي) عيناه مفزوعتان، وسلط (يونس) و(خباس) ناظريهما صوب الحقيبة، و(حكّوم) وقف بعدم اكتراث، ولم تخطف (لبيبة) نظرة واحدة لوجه (جاد الله) الذي يزداد احمرارًا، وشرع يتلوى يحاول الفرار، قصبته الهوائية خجب عنها الأكسجين، وظهر الموت في عينيه، يبتسم، يلتهمه، بعدما كان هو صانعه، يتحرك جسده بعنفوان مريب، حاول إزاحتها، وكلما جاهد، ضغطها يزداد، فأصيب باسترخاء. قسوة في أصابعها وعينيها، بكاؤها كالتماسيح، عيناها تعرقان كخبيث، وموتٌ حاضرٌ يخطف روحًا لطالما قست على بني جنسها، شخص بصره، وخمد جسده، وفطس، انتهت أسطورته، وما إن علمت (لبيبة) بأنه مات، حتى ابتعدت، وانزوت في ركنٍ وحدها، تلطم خديها، وتبكي. كانت تنوي سرقته، وأسفر عن ذلك أن ارتكبت جريمة، تحولت إلى قاتلة، حققت المروم لكن الثمن غالٍ.

(عبد القادر) لف جسده، ونام على جانبه، وأخذ وضعية الجنين، ينتحب بصوتٍ خفيض، ولم تصدر منه نأمة، والكل في حضرة الموت ساكت.

وبعد استيعاب ما حدث، وكأن الوقت وقف، دقائق مرت، حتى قطع البكاء صوت (حكّوم) قائلًا: «كلنا لها، إنا لله وإنا إليه راجعون، الله يرحمك يا جدي». وتقدم صوب (جاد الله)، حل وثاقه، فوقعت عيناه على خاتمٍ في إصبعه، ولأنه يملك نفس حجم الأصابع، خلعه منه، ولبسه، فضي ذو فصٍ أخضر لامع حجر كريم، ضخم، يبدو عليه الغلاء والقدم. حل وثاقه، ونظر إلى إخوته: «علينا أن نرجعه إلى سريره، حتى يعتقدوا أنه مات ميتة ربنا». مسحت (لبيبة) وجهها من الدمع وقالت: «وسمنة!» فكر (خباس) في أناة، ثم قال: «الفجر على وشك أن يؤذن، ستخرج لتتوضأ، وستظنه في الجامع». ثم لف إلى (حكّوم) و(يونس) وأردف: «نضعه في السرير وننام، دقائق وسنسمع صريخها، ندفنه، وتنتهي القصة».

حرك (يونس) جسده، مد يده وحمل حقيبة الأموال، أغلقها فتلقى نظرة إعجاب من (خباس)، فقال: «سأخبئها أسفل السرير في غرفة أبي، وسأعود». اندفع نحوه (خباس) وسحبها من يده وقال: «اتركها، نشوف المصيبة التي نحن فيها أولًا». نتشها (حكّوم) من أيديهما، ثم ألقى بها في حضن أمه، وقال: «ما نحن فيه يحتاج إلى رجال، وأنتم عيال، ولا وقت للطمع الآن». ثم فتح الباب بهدوء، تفقد البيت، الكل نائم، فسحب أباه وأمه و(صابر) و(ضاحي) و(شربات)، استقلوا الدرج، دقيقة، وعاد (حكّوم) وحده، نتش سيجارة (خباس)، تجرع منها حسوة، بدا كرجلٍ عظيم البنيان رغم قصر قامته، وملامحه المسبسبة، وسيم، ذو شعر مجزور،

٢٧٠٥٢٩٩٢٢٠

ضئيل الحجم، غليظ الأيدي، نظراته ترتجف لها الجدران. حدق إلى جثة (جاد الله) وقال بتأفف: «كان ابن كلب، يستحق». ثم عاد بناظريه إلى أخويه: «من منكم يملك دمًا! أبوكم وأمكم في ورطة، ولا تفكرون في سوى المال، ندفن ذلك الكلب، وبعدها لكم حساب».

رمقاه بنظرة غضبٍ وتعجب، هما الأكبر، من يحاسب من، فنطق (يونس): «من الكبير هنا يا حكّوم؟» ألقى بالسيجارة وقال: «الكبير بتصرفاته يا ابن أبو حماقة». مد (يونس) يده وأمسكني، وتقدم صوب (حكّوم)، رقيع بأفعاله، فتلقى نظرة تلظُّ من الأخير، الذي تحرك مبتعدًا، وجلس على الفراش: «أنت تثبت ما أقول، لو كنت كبيرًا لفكرت في تخليصنا من تلك الوكسة، لكنك تُحدث جلبة كالأطفال الصغار، وستوقظ خطاب، أتفتش عن موته هو الآخر؟» تحدث (خباس): «أبوس أيديكما اسكتا، حاسبا بعضكما في وقتٍ آخر».

ساد الصمت، نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض بأعين غير مرحبة، قلقة، وحيرة، وخوف، حتى رفع شيخ المسجد عقيرته، ليعلن صلاة الفجر، فتح (حكّوم) الباب بهدوء، وانتظر حتى خرجت (سمنة) من غرفتها، و(خطاب) لا يصلي. عاد سريعًا إلى الداخل وشرعوا الثلاثة في حمل جثة (جاد الله)، و(يونس) كان يستخدم يدًا للمساعدة، واليد الأخرى يحملني بها، حتى وصلوا إلى غرفة المرحوم، رفعوه بهدوء، ووضعوا جسده على فراشه، ثم ركنني (يونس) بجانب المشجب، أراقب جثة سيدي، في هدوء مقيت، وأغلقوا الباب، ليسود الظلام.

***

عمري كبير، لم أعد أحسبه، كنت خاتم (أبو حماقة) قبل موته ألف إصبعه البنصر، وقد خلعه (جاد الله) من يده قبل دفنه، ولفه على بنصره، حتى قُتل (جاد)، وانتشله (حكّوم)، أنا زاهٍ، مصنوعٌ من حجرٍ كريم، يظنني الملبوس بأنني كريم كحجري، ملفوفٌ حولي الجن، كخاتم (سليمان)، كذبةٌ، لكنني صدقتها، فقيمتي لا تقدر بمال، كان لي معجبون في حياة (أبو حماقة)، كانوا يهيمون عند رؤيتهم لحجري، وحين أخذني (جاد)، الإنجليز كانوا يقدرونني ويحترمونني، فأنا بالنسبة إليهم رمز قوة للرجال العرب، أما للمصريين فينم عن الخشونة والاعتزاز بالنفس والتفاخر والقوة، ومع بعض العزائم أمنع الحسد وأفك العمل وأجلب الخير والحظ الوفير، لي مكانةٌ مقدسة في صدور الرجال، وأنا جزءٌ في الإصبع لا أترك صاحبي إلا عند موته، وها أنا أبدأ رحلةً جديدة، أظن بأنها مختلفة، شعور الغرور والنرجسية الذي ينبعج من (حكّوم)، أضعاف مضاعفة من غرور (أبو حماقة) ومن بعده (جاد)، فأنا لازمت إصبع الجبروت الأول قاهر العبيد، ومن بعده مستبد الفلاحين المجحف الجائر (جاد)، أما (حكّوم)، لا أعلم، لكن يبدو أنه اكتسب منهم صفات الشر، ولا خير في نفسه.

بعد أن أناموا الجثة، خرجوا ودخلوا غرفة (عبد القادر)، الفزع يلتهم محياه، و(لبيبة) الكدر يأكلها، أما (صابر) فكأنه غير موجود، والهدوء يظهر على الطفلين (ضاحي) و(شربات). دقائق وتصرخ (سمنة)، فيعلَن عن وفاة (جاد). جلس (يونس) و(خباس) بجانب أبيهما يطيبان خاطره ويشدان أزره، أما (حكّوم) فسار صوب زاوية الغرفة، أمسك شيشة أبيه، وأشعل الفحم، وصنع حجر معسل، وجلس يغذي عقله، والأجواء يغلب عليها التوتر، لكن الهدوء يتسيدها. مرت دقائق، الأنفاس حارقة، حتى دوى الجرس، صراخ (سمنة) رج البيت رجًا، ففزعت (لبيبة) وقامت، وصاحت سريعًا: «تعالوا».

التم الجميع حولها، صنعت دائرة، يغطي على صوتها بكاء الأخرس، والآخرون صامتون، فتكلمت: «الذي عليكم أن تفهموه الآن، هو أن كل ما يحدث بيننا لا يخرج، يظل سرًا، لم أعلمكم شيئًا في صغركم، تركتكم تكبرون في بيت جاد الله على أحكامه وأفاعيله، لكن عليكم أن تنصتوا لي من الآن وصاعدًا، وأول شيء ستحفظونه في نفوسكم، هو أن ما يدور بين أسرتنا، لا يخرج منها، مهما حدث، حتى لو ستموت في المقابل، لا يخرج، سر الأسرة والحفاظ عليها أهم من نفسك، وعليك أن تحمي أخاك مهما بذلت في المقابل».

قابلها الجميع بالسكوت، فصرخت في وجوههم: «أتسمعون ما أخبركم به؟ لا أحد سيحبكم، عليكم أن تكونوا يدًا واحدة، وإلا سيدهسكم الناس». الصمت، فقط الصمت، فخبطتهم في أكتافهم، فلمسها (حكّوم) وهمس: «لا تخافي». احتضنته، يبدو أن (حكّوم) أكثر من يحب أمه، ومن يسمع لحديثها.

ارتكبوا الجريمة، وقرروا المشي في الجنازة، خرجت (لبيبة) فزعة تتساءل، وما إن علمت حتى صرخت بأعلها صوتها: «أبوك مات يا عبده، سيأكلونك يا عبده». وبصوتٍ فزع صرخت وانتحبت فبدا صراخها أعلى وأعمق من الجميع.

***

هجروني بجانب المشجب، أعلم ما دار وما حدث، قتلهم لكبيرهم وسيدي، واعتقد الكل أنها ميتة ربنا، ندب النساء يهز الجدران، ونسوة المركز حضرن لتوديع كبير عائلة (أبو حماقة). وأنا مركونة قرب الجثة، فتح (عبد القادر) الباب ودخل، ركع بجانب السرير ممتقع الوجه، وبكى بحرقةٍ بعينٍ واحدة سليمة كأن قلبه سينفلق، ثم ارتمى في أحضان أبيه، وأشار بأن يسامحه، قاتلٌ متبجح، متدثر بطيبةٍ مصطنعة، وجلس أرضًا، وظل مكانه دون حراك، يبكي تارة، ويصمت تارة، حتى وصل المغسلون حاملين نعشًا، وطلبوا منه الخروج، غسلوا الجثة، ثم كفنوه، وأناموه في النعش، ثم أعلنوا أن الجثة جاهزة للدفن، دخل الرجال لحمله والتوجه إلى القرافة، وقعت عينا (خطاب) عليّ، فأمسك بالملاءة التي كان يغطي بها الجثة في نومها، ولفحني بها كأنه كفنني، وسطحني بداخل النعش، ومن ثم قال: «لم تفارقه السنين العشر الأخيرة من عمره، لا يستحق أحد بعده مسكها، سندفنها معه».

نهايتي في المقابر مع الأموات، نهاية مريحة وطيبة، مبتعدة عن جبروت البشر، حملوا النعش، الكل يساهم، (عبد القادر)، (خطاب)، (نوفل) بعد عودته عند علمه بموت أبيه، (يونس)، (خباس)، (حكوم)، (صابر)، وكانت نظرات (خطاب) للجميع مريبة، لا تُظهر أي خير. وما إن خرجوا من البيت بالنعش، حتى هجم رجال القرية كلهم يحملونه، ومشى في جنازته ساكنو المركز جميعًا. مسيرة مهيبة، كأن الميت أهم ملك في مصر، دبدبة الأرجل تشير إلى جيش يمشي في جنازته، والأصوات تردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون». «لا إله إلا الله». «ما دائم إلا وجه الله». «أنتم السابقون ونحن اللاحقون». ومن بين الحديث يتسلل بعضهم مهزوزًا: «الله يجحمه». «الله يحرقه». «في جهنم وبئس المصير». «كان شيطانًا». «عند الله تجتمع الخصوم».

الفلاحون لم ينسوا معاملته القاسية لهم. صلوا الظهر عليه، ولم يتلقَّ أي رثاء، أكملوا فقط المسيرة نحو القرافة، أنزلوه إلى قبره، أخرجوا الجثة، ونزل (عبد القادر) و(خطاب) و(نوفل) مع اللحاد، وضعوه في مثواه الأخير في الدنيا، وتركوني على بطني بجانبه، ثم خرج الأربعة، سجا اللحاد المقبرة، ولم أرَ إلا السواد، ظلام وهدوء، لا شيء آخر.

***

صعدت روح جدنا غدرًا، المغيبون يحسبونه مات، لكنه حي عند الله، لا أظن بأنه في مكانٍ حسن الآن، فقد ظلم كثيرًا من عباده، نهايته سوداء، وآخرته حمراء يأكل الزقوم في درك جهنم.

صمتنا كعادتنا، نتنقل في كل مكان، ولا نمتزع في حديث، نتطلع، نحفظ، نسكت، ونسجل في عقلنا الحياة الغاشمة التي نعيشها.

بعد دفن جدنا، عدنا جميعًا إلى ربوع العائلة، قعدت النسوان في الصالة يندبن، ستنا التي اغتصب الكدر محياها وحولها أمنا وزوجات أعمامنا (باتعة) و(هند) يتلقين عزاء نساء البلدة، ينحن على الميت، كلهن في صوتٍ واحد، تنحرق قلوب، وتمتهن أخرى التمثيل. تربع أبونا وإخوتنا على الحصائر خارج الدار يقابلون رجال القرية ومصر، وبدا على أبينا الوجوم وعيناه غسلتا من الدموع، وشرع عمنا (نوفل) في بناء السرادق لتلقي العزاء بشكلٍ يليق بجدنا وليجد كبراء البلدة وباشوات مصر وداغًا مهيبًا لمن كانت ترتعد الأشنبة في حضرته، أما عمنا (خطاب) فلم يظهر.

ما يقارب الساعة انقضى، وفد عمنا (خطاب) وسار بمباهاة ومعه الخفر، ولج وسط السرادق الذي يُنصب، وانتصب وسط الشارع، خلفه ثلاثين رجلًا يحملون الشوم، وخمسة منهم يشدون على بنادق، رمقهم بعلو

وقال: «احرسوا باب الدار، ولا أحد يدخل». انتبه أبونا وعمنا (نوفل) لما يرتكبه من حمق، فوقفوا، وسجع عمنا (نوفل): «ما خطبك يا خطاب؟».

رمقه باشمئزاز: «اسكت يا مرة، يا طبال الراقصة». ثم نظر إلى أبينا وقال: «قلت لك لن تقف في جنازته». فبدت على أبينا الكسرة، رجلٌ منكود، لا حظ له. ثم ولج عمنا (خطاب) إلى البيت ومعه الرجال الخمسة حاملين البنادق، فانقض عمنا (نوفل) على الباب محاولًا الولوج فزوجه (هند) بالداخل، طعنه أحد الخفر في بطنه بركبته، فتقهقر وأناخ، انقلب المأتم ذهولًا، وانتشر الناس كغبار الخماسين مشاهدين، والكفوف تضرب أخماسًا وأسداسًا.

مرقنا من بينهم فلففنا خلف الدار، وتسلقنا جدار السطوح حتى تفقدنا من كوة ما يدور بالداخل، ننظر ونرى، سحب عمنا (خطاب) كالثور الهائج أمنا وزوجة عمنا (هند) من أحضان ستنا (سمنة)، وكلبشت الأولى إخوتنا (ضاحي) و(شربات) في أحضانها، وشرع يضرب فيهما ويسبهما ويطردهما، جلجلت زوجة عمنا (هند) فقد اقترب من خلع فروة رأسها، فهاجت عليه كالدب بأظافرها ورسمت خطوطًا على وجهه، صرخ، ابتعد، فلطمته أمنا لتبعثر كرامته، تراجع وفتح عقيرته بأعلى ما يملك من غضب: «يا أولاد الزواني». ثم نتش بندقيةً من أحد الحراس وضرب طلقةً إلى فوق اخترقت السقف فكادت تقتلنا، وزعق: «اطلعوا من داري يا أولاد الكلب». ووجه سلاحه نحوهما، في حين علا صوت عمنا (نوفل) بسباب وزعيق محاولًا تجاوز الخفر، فحزقوا به، وضرباتهم دوى صوتها، الشوم نزل على جسده فتخضب بالرضوض.

قامت ستنا وصاحت: «ستجلب لنا العار، جثة أبوك لم تبرد»..أشاحها بيده وبصوتٍ أجش: «اسكتي يا أمي، لا تتدخلي».

فردت أمنا يدها تهدئه، وقالت بصوت مهزوز: «سنرحل، سأجمع فقط ملابسنا ونمشي». دفعها بالبندقية في جانبها ناطقًا: «لا تملكين قشة واحدة في بيت أبو حماقة». فترجته: «ارأف بحال أخيك، أنت تعلم أنه عبيط، اتركني على الأقل آخذ ملابسنا لتسترنا». شد أحد الخفر وقال: «اطلع معها، ملابسها فقط».

ركضت على الدرج، صعدت، دفعت الباب، ثوانٍ وخرجت حاملة بقجة(4)، كانت تجهزها للحظة الرحيل، نزلت، فشدها عمنا من كتفها، وفتح البقجة وألقى نظرة، ثم تحاشاها، وفزع في وجه (هند): «أما أنتِ يا راقصة الموالد، بدلات الرقص أخذتِها حين طردك جاد الله أبو حماقة، امشي يا نجسة». ثم زحزحهما حتى خرجتا من الباب وسط الخفر، وتعمد دفعهما أمام الباب ليسقطا على وجهيهما، أما إخوتنا (ضاحي) و(شربات) فركضا إلى أحضان أبينا.

تحركنا وترجلنا حتى وصلنا إلى العراك، وقف أبونا مكسورًا، ظهره محنيًا، وبجانبه إخوتنا (يونس) و(خباس) و(حكوم) يتفقدون عمنا (خطاب) ببغض، والناس أصواتهم تهمس بجنون الابن الأوسط بعد موت أبيه بلحظات، وظلمه وطرد إخوته من بيتهم وعدم إعطائهم أي إرث. تقدم عمنا (نوفل) متألمًا بعد أن قاسى ضربًا من الخفر، يزحف أرضًا، واحتضن زوجه (هند) محاولًا حجب شعرها، ونظر إلى أخيه وأخرج صوته مجلجلًا: «أريد حقي وإرثي». ركض صوبه عمنا (خطاب) وركله في وجهه في أثناء سقوطه ليصرخ ضاغطًا على أنفه التي نزفت، وقال الأخير: «امشِ قبل أن أقتلك وأدفنك معه، لم يطِقك أنت والمومس التي تزوجتها، وطردك من بيته قبل موته بأسابيع، وتطالب بالورث!» ثم نظر إلى أبينا معه ووجه كلامه إليهما: «اشكوني للحكومة».

شدت أمنا يد أبينا وسحبته خلفها، مشى بوجه شارد أسيف، فتبعناهما جميعًا، نمشي دون وجهة، مكسورين مقهورين ضعافًا مغلوبين على أمرنا، أما أمنا فبدا على وجهها الانتصار، تحتضن البقجة تضمها إلى صدرها، وتبتسم.

رحلنا، ونظرات أمنا تخبرنا بعدم العودة إلى منفلوط مرة أخرى، أن الرحيل لا رجوع بعده، فهي لا تسعى إلى

ميراث، ففي يدها الخير كله، غنيمة السرقة ومكافأة القتل. همساتها تنذر ببدء حياة جديدة، حياة خالية من أي تحكمات، نكون فيها أحرارًا، لنا وحدنا دون حاكم.

الأعين قلقة والحيرة تغلبها، وأنا و(صابر) غارقان في دنيا وحدنا، وأخونا (ضاحي) يتساءل عن وجهتهم، أما أختنا (شربات) فصغيرة لا تفهم، والثلاثة الكبار -(يونس) و(خباس) و(حكّوم)- أعينهم تلمع، أما أبونا فعينه السليمة لم تكف عن البكاء.

وصلنا إلى محطة القطار، ركبناه، ساعات طويلة، انتهت في مصر فجرًا، في غبشة الليل، البقجة لم تفارق أمنا، وكلنا نسير خلف خطواتها، قعدنا في المحطة، ارتكنا في جانب، ننظر بعضنا إلى بعض، الوقت يمر ببطء مقيت، شقت السماء نورها، فخرجنا في لجة الزحام بشارع «الملكة نازلي»، الهواء غير نقي، مختلف عما في منفلوط، فالزرع قليل، والمباني كثيرة، وعوادم السيارات مهلكة للأنفس، والأصوات عالية ومزعجة، والكل على عجلة من أمره، بائعون يجولون في كل شبر، والناس يتسابقون كلٌ خائفٌ من أن يفوته شيء، الأجواء مقبضة، ولم نتعودها. أوقفنا سيارتي أجرة، إذ إن واحدة لم تكفِ لأن عددنا ثمانية.

وقف السائقان وسأل الأول: «إلى أين إن شاء الله؟» صمت الكل، لم يرد أحد، خمس دقائق من الخرس، والأعين يفترس بعضها بعضًا، حتى إن السائقين شعرا بالضيق، وظنا أننا ركبنا لنجلس أو نستريح، فوجّه الآخر السؤال إلى أبينا، الذي لم يرد وظل ساهمًا وعيناه تنزفان دمعًا، ولو رد لن يفهم، ولا أظن بأنه يعرف وجهته، فحدّث الرجل أمنا قائلًا: «يا ست، تلك الوقفة بمال».. فنظرت إليه بقسمات جامدة: «إلى جامع السيدة زينب».. تتحكم في الكل وتصدر القرارات من عقلها.

داس السائقان على مضخة البنزين وانطلقا، مبانٍ قديمة، وحوانيت لا عدد لها، وزحام غير مبرر مقارنةً بمنفلوط، أناس ملابسهم مختلفة، إنجليز، أصوات مزعجة، مساجد عتيقة وألوان خضراء زاهية. وصلنا إلى حي السيدة زينب، حي مترامٍ، وقفت السيارتان، التقط السائقان من أمنا بعض القروش ورحلا.

تسمرنا أرضًا، خائفين، مرتعشين، خائبي الرجاء، خاويي الوفاض، أمام مسجد السيدة زينب، وشعرت لأول مرة في حياتي بأنني أخطف من جسد (صابر)، شيء يجذبني نحو ضريحها، تغمرني راحة وطمأنينة ساحرة، ركض (صابر)، وحمدت ربي أنه ركض، كطفلٍ يخاف العالم ويجري لأحضان أمه، خلع حذاءه وقفز في المسجد، البقية تعجبوا تصرفه، فتبعونا، ونسيناهم، دخلنا دنيا أخرى، غير التي ترعرعنا فيها، غذائي هنا، بجانب السيدة، لمس (صابر) جدار الضريح الأخضر بأنامله، ونظر إلى مجثمها، وكنت أنا أحوم حوله، روح تلمس بركة مقدسة، يا لذلك الشعور، غبت، ذبت، رحلت عن الدنيا، أغمضنا أعيننا، وحلقنا في حضرتها، وسمعنا صوت رجل عجوز مغتبط يترنم من بين الواقفين: «مدد يا سيدة». تبسمنا، وهمسنا: «مدد يا سيدة». ثم رفعنا رأسنا: «مدد يا رب». فعلا صوت الرجل: «مدد يا بنت علي مدد». فردد الناس خلفه، خطفنا الرجل بصوته العذب، وبان على الناس الراحة والهدوء، كأن الهموم تُمحى، يلقون بأجسادهم على جدار الضريح، فتفيض العين بالبكاء، وينتفض الجسد ثم يسكن. أعينهم تلمع ببريق من وجد خلاصه، وهمساتهم تخرج حزنًا، ومشكلات تغسل بطهارة فتنضب، عالمٌ كنا نتوق إليه، نسينا أنفسنا وكم مر من الوقت، ونحن نتفقد الوجوه تارة ونغرق فيها، ونغمض أعيننا تارةً أخرى فنغرق في ملكوت خاص فحواه ضريح السيدة، ونردد الأذكار واسم الله، ونطلب المدد كالموجودين، وتمنينا لو ألقينا بالنذور فتخرج في الخير على روح السيدة، ونشارك في عملٍ كهذا، لكننا لا نملك مالًا. صمتٌ جميل، وهدوء رغم أصوات الناس، غمرتنا سكينة ودعة، قطعتها يد أمنا وهي تسحبنا قائلة: «أنادي عليك حتى بح صوتي، ألا تسمع! لقد مر أكثر من ثلاث ساعات وأنت تجلس على تلك الحالة، ما بك يا ولدي؟ أخاف أن تكون ملبوشا». لم نجب، وددنا لو قضينا باقي عمرنا بجانب الضريح، لكننا في مصيبة، علينا أن ندبر حالنا، ووعدنا السيدة أن نزورها دائمًا.

لففنا في المنطقة، تتأبط أمنا ذراع (حكّوم) تمتص منه الأمان، تتفقد البيوت العتيقة، تسأل عن غرفة تلمنا، أو بيت، طلب منها (يونس) أن تفك البقجة ونشتري بيتًا عظيمًا ونعيش في بحبوحة، لكنها رفضت في البداية

وأخبرته بأن نستريح أولًا، ننام، نهدأ، نغيب شهرًا أو أكثر، ثم نفكر في ما سنصنع. ظللنا يومًا كاملًا، حتى إننا كنا نستريح في كل زقاق برهة، وبقرب الفجر الثاني لنا في مصر، وقعنا مع رجل يحفظ معالم الحي، أوصلنا إلى بدروم يُعرض للإيجار، فقير، قليل الأثاث، ذي مصباح واحد، في زقاق هادئ، فوافقت أمي ودفعت جنيهين إيجار شهر، مبلغًا وفيرًا، استغل الرجل كوننا من الصعيد ولا نجد مأوى، ولم يفرق الأمر مع أمنا، دخلنا القمقم الذي أجرناه، هناك ثلاث كوات في البدروم تكشف الشارع، وتنغلق بخشب ينزل إن أردنا، فتحناها للتهوية، الهواء معلب هنا، عطن، ونتن، لكننا قبلنا.

أشعلت أمنا المصباح الواني، وتوسدنا الأرض جميعًا، وتفقدنا أوجه بعضنا بعضًا، الملامح تعبة، رغم أن الهدوء تجلى سيدًا، إلا أن أبانا دمعه سافح، ظننا بأن بكاءه لن ينتهي، اقتربت منه أمنا وربتت عليه بحدب، وضمته إلى صدرها، ثم قالت: «لم يحبك، لا يستحق بكاءك».

ازداد نحيبه ونظر إليها في قنوط، مرت دقائق بعثت القلق والتوتر على المكان، ثم قال بإشاراته: «أشعر بالذنب».

انتفض جسدنا من وقع الكلمة، الذنب يقتل الروح، وغذاء الضمير، سيجلد ذاته ولن يشعر بالراحة، سيتمنى الموت بسبب تقريع نفسه، سيحاول بكل الطرق التكفير عن ذنبه، ولعل الله يقبل.

الأوجه هنا يبدو عليها أن لا شيء قد حدث، أن ما مررنا به هين، لا يشعرون بأي ذنب، القلوب تتحجر، فليسامحهم الله على ما يرتكبون، وليسامحنا على اتباعهم، لكنهم أهلنا يا الله، وأنت تعلم.

الصمت طال، رُفع أذان الفجر، مسجد السيدة زينب صوت مؤذنه يغطي الحي كله، تحركت أمنا وأغلقت الكوات، ثم أخرجت قطع ملابس قليلة انتشلتها من البيت، ورصتها أرضًا، ثم فرشت وشاحًا في المقدمة، ووقفت عليه، وبدا علينا جميعًا التعجب، ثم لفت ونظرت إلينا وقالت: «قال لي أبي مرة حين نرتكب ذنبًا، ونطلب من الله أن يسامحنا، علينا أن نصلي وندعو، فيغفر لنا، إن الله غفورٌ رحيم.» ثم شرعت في إقامة الصلاة.

تلك أول مرة نرى فيها سيدة ترفع الأذان، انتهت، ونطقت: «علينا أن نصلي». لا نعلم إن كانت تهدئ من روع أبينا، أم إن لوثة أصابتها، والذي كاد يفجر عقلنا أن (حكّوم) توجه ليتبعها، واصطف خلفها، كأنه خاضع لما تقوله أيًا كانت نتيجته، ومن ثم قيامة (خباس) الذي التصق بـ(حكّوم)، ومن بعده أبينا الذي خطا بوجهٍ مرتخٍ وسحب معه (ضاحي) و(شربات) ووقفوا مستعدين للصلاة، ثم لحق بهم (يونس) رياءً وتقربًا لأمنا حتى تعطيه نفحةً من المال، ومن ثم سلطت ناظريها علينا، فارتعدنا وخفنا، بدت كشيطان، انقبض قلبنا، فانسقنا مجبرين إلى الصلاة، أرخينا مشيتنا حتى وصلنا، واستوينا في الصف، فزعقت: «الله أكبر». واتخذت دور الإمام، وكانت المرة الأولى منذ خمسة عشر عامًا نرى سيدة تؤم الصلاة برجال، بل المرة الأولى منذ نزول الصلاة إلى الأرض.

أيام تنصرف، وتنخرط أمنا مع ستات الحي، ففرف اسمها، تقعد أمام البدروم تصبح على هذا وذاك، تخلق علاقات وتضافر، يضحكن ويتناقلن الأخبار، عرفت الكل بأسمائهم وبواطنهم، استراحت قلوبهم لها، ولو يعلمون لهربوا، خدعتهم بطيبة وجلاء مصطنعين فصدقوا، تغدق على كل محتاج، وإن سألوها أشياء لا ترفض، تكسبهم، تصنع حياةً جديدة، ابتاعت أثاثًا للبدروم، فأضحى زاهيًا، وإخوتنا تشعشعوا في الحي يكوّنون مخالات، ولا يخرج أبونا من البيت، ونتوه نحن بالأيام في حضون السيدة مغتبطين في دعة، نغرق في المسجد، نموج في حضرات شيوخ يذكرون فيها الله، نرتدي التنورة في الموالد ونلف، نرفض الأكل في البيت، لأن أموالهم حرام، فنكتفي بما يفيض من طعام يشتريه الشيخ (مسعود) مقرئ مسجد السيدة زينب بأموال النذور التي يتصدق بها الأتقياء حبًا في السيدة، وبركات وتضحيات الناس تفيض منا، فتغضب أمنا وتصفنا بالشحاذ، تنهرنا، وتحبسنا، نُعرض عن الأكل ونتركه ليطوله العفن، ونجلس بجانب الكوات نسمع أهازيج الصوفية، ونهيم حبًا فيها، تفرج عنا بعد أن تفقد أمل اعتدالنا وتناولنا طعامًا تشتريه بأموالها الحرام، فنغيب أيامًا في المسجد، نخدم هناك، نكنس ونمسح ونصلي، نغني بصوتٍ عذب حبًا في السيدة، يغضب أخونا (حكّوم) فيضربنا، ويحبسنا، نُضرب عن طعامهم، يظنون بأننا مجنون، يعاملوننا معاملة أبينا كأننا مأفون، توبخنا أمنا وتحاول كسبنا، لكننا لا نقدر على القرب منها وطعامها، فقلبها تعلمون ما فيه، وأموالها محرمة، ونفسها الأمارة تسوقها نحو المصائب، وتعاليمها التي نشرتها في ألواح العائلة لا نقدر على تقبلها، فطلبت منا أن ننسى تعاليم بيت آل أبو حماقة وجدنا (جاد الله)، كأننا كنا نتبعه، فنحن نرفض كل شيء منذ أيقنا ما ترعرعنا فيه. وبعد جريمتها، وختامها بالصلاة بطريقة لم يُنزل الله بها أمرًا في الأرض، عزمنا في أنفسنا على أننا لن نناديها أمنا بعد تلك الكارثة، سنناديها (لبيبة)، ولن نضع في حسباننا غضبها من ذلك الأمر، ولما كانت تسألنا، لا نرد، وكنا نتحاشى الحديث معها، حتى لا نتلفظ باسمها.

وشرعنا نراقبها في صمت آملة أن نقلدها، تخطئ فتصلي كأن التوبة فقط في الصلاة، ولا تتوب إلى الله توبةً نصوحًا، تعود وتذنب، الناس ينادونها بالحاجة رغم أنها لم ترَ الكعبة، وتسب الدين علنًا، يسألونها أمورًا في الدين فتجيب وجزء عظيم من إجابتها خطأ، تظهر برداء الدين أمامهم رياءً، وبداخلها إيمان مهترئ، تصلي، وتكذب، وتنافق، تدعو الله وقت صلاتها وتنساه في كل أوقاتها، تساعد الناس حتى لو في الحرام، فيقولون عنها امرأة خير، رغم أعمالها القبيحة، وإن بغضت أحدًا تُظهر له حبًا كاذبًا، وتتلفظ بالخير فيخلص لها الجل، رغم ذلك إن اعتزمت عقابًا لإحداهن تتلظى وتحرقها في سقر، وإن طلب محتاج مالًا تساعده، وحين يرده يكون بفائدة إن تأخر، الربا استأثر بنفسها، ضالة، تخشى على مال قارون من النفاد، ورغم أنها تنطق دائمًا بالخير، فإن لسانها يملك بذاءةً لا حد لها في الضحك ومعنا، وإن قلب وجهها يكون أسود.

تسرف في الطعام كأننا لم نأكل منذ قرون، فيفسد ويُرمى، وأحيانًا تشهد زورًا لتنصر صديقة لها، وتخوض في سيرة الناس مع أختنا (شربات) وتنم عليهم وتشتمهم رغم ظهورها أمامهم بوجه النقاء، وتفهم علاج السحر بالدين خاطئًا فتعبث بعروسة ورقية وتخزأها بالإبرة وتفقأ عينيها وهي تذكر الله، كأنها تبعد عن نفسها الحسد والأعمال، جهل جهور، ولمعرفتها بأن أموالها حرام، تبرعت للمساجد والجمعيات الخيرية وذبحت عجلًا ووزعته على الفقراء، فصيتها توسع وعلا، وبهذا تطلب من الله مسامحتها. ويشرب منها إخوتنا صنعها فيتشكلون كصلصال عبثت فيه ذراعاها.

واشترت أمنا راديو، وكانت أول مرة نملكه في حياتنا، فكان جدنا يملك واحدًا يضعه في غرفته، ولا نجرؤ على الاقتراب منه، نسمع من بعيد، ولا نملك حقًا فيه.

وضعته على طاولة بجانب كوة، وحاصرناه نتفقده، وشغلته، وأول ما أذيع كان خبرًا صاعقًا: «هنا القاهرة، خبرٌ عاجل، يومٌ حزين على أبناء مصر، ونقول كلماتنا بأسى وحزن، القوات البريطانية حاولت الاستيلاء على مبنى المحافظة بالإسماعيلية، ورفضت قواتنا المصرية تسليم أسلحتها والمبنى، وحدث اشتباك مسلح بين

قواتنا وقوات الاحتلال البريطاني، أسفر عن مقتل ستة وخمسين شرطيًا مصريًا وإصابة ثلاثة وسبعين، واستولت في النهاية قوات الاحتلال على مبنى المحافظة».

قلبت أمنا القناة فسمعنا وشًا وهي تقول: «ربنا يرحمنا جميعًا».ثم علا صوت (أم كلثوم) فابتسمت وتركتها: «برضاك يا خالقي لا رغبتي ورضاي، خلقت صوتي ويدك صورت أعضاي، أبلغ بصوتي يا ربي مقصدي ومناي، لما أناجيك، ولما تستمع شكواي».

تبسمت وقالت: «أم كلثوم، جدكم كان يسمعها في الراديو، قال يعني كان يحب مثلنا». ثم نظرت إلينا ونطقت: «اسمع يا ولد يا صابر، إنها تتحدث عن ربنا، أعرف أنك تهرب إلى الموالد لتسمع مدح سيدنا النبي وربنا».

جهل وحمق وعته، تشبه أغاني (أم كلثوم) بمدح الله ورسوله. نحينا عنا أفكارها المجنونة، لكن غباءها شغلنا، ستكون سببًا في ضلال إخوتنا، فدار عقلنا ما بين تخلف أمنا العقلي، والحرب الدائرة بين ضباط بلدنا وقوات الاحتلال، وشعرنا في دواخلنا بشيءٍ ما يجذبنا نحو السياسة، ومعرفة أحوال بلدنا، ومن ذا الذي يعرف أن أولاد بلده يقتلون من قوات الاحتلال الغاشم ويسكت، يقلب القناة، ويسمع أم كلثوم، ويخرف بحديث أخبل.

لكن الحقيقة المرسخة فينا أننا لم نبغِ أغاني أو أخبارًا، نريد قرآنًا يغذيني وروحهم، لكنها تتحكم فينا، وفي الراديو، وفي أبينا، وإخوتنا، فابتعدنا عنهم وانزوينا في ركن، وأغلق (صابر) مسامعه وغبنا نردد اسم الله.

في اليوم اللاحق صحونا من النوم على كلام يردد ويدور على ألسنة الرجال في الحي، بأن ما حدث في الإسماعيلية عارٌ كبير لا يقبله أبناء مصر، لكننا لم ننخرط معهم، نسمع ونصمت، وإخوتنا لم يفهموا، كل ما شغل بالهم أموال الحرام، فكانوا يصرفون ليظهروا برداء الأغنياء، وأمنا لم تمانع، فهي تملك جبلًا لا ينهار، ومرت الشهور مطردة ومملة، لم نشترِ بيتًا، ولم نصنع عملًا.

وتقلبت رتابة الأيام حين بدأت الحركة المباركة للضباط الأحرار التي قلبت مصر يوم الثالث والعشرين من يوليو، فكان الشيخ (مسعود) يتحدث أمامنا مع بعض الرجال الأشداء من الحي ويخبرهم كم أننا دخلنا في رخاء لن ينتهي، وأن الضباط الأحرار بقيادة (جمال عبد الناصر) استطاعوا الاستيلاء على جميع المباني الحكومية والمحطات الإذاعية، ومراكز الشرطة ومقر قيادة الجيش في القاهرة، وأننا على وشك إلغاء النظام الملكي، لكن خاب ظنه حين انقلب الضباط الأحرار على الملك (فاروق) وعزلوه، ولم يلغوا النظام الملكي، بل أجبروه على التنازل عن الحكم لابنه (أحمد فؤاد) الذي لم يتجاوز الأشهر الستة، ولم نفهم حينها أي شيء في السياسة، نسمع، ننجذب، ونرى تغيرات في الشارع المصري، لكننا عرفنا شيئًا هامًا، أن مصر التي نقول إنها مصر اسمها القاهرة، وأنها مدينة داخل مصر، وأن مصر أم الدنيا، وبها بلاد كثر، وتسع فيها كل الدنيا.

حزن الشيخ (مسعود) لأن النظام الملكي لم يلغَ، لكنه عاد وبَش يوم الثامن عشر من يونيو في العام التالي حين ألغي، وتقلد أول رئيس (محمد نجيب)، وأطلق على حركة الضباط الأحرار اسم «ثورة ثلاثة وعشرين يوليو».

احتفالات في الشوارع والناس فرحين يرقصون ويتغنون باسم (عبد الناصر) والضباط الأحرار، ورجال حي السيدة زينب يرفعون رؤوسهم بعظمة وانتصار، ألم يكن الأولى أن نطرد الإنجليز، أم إن الانتصار كان في عزل الملك (فاروق)! وكعادتنا فهمنا ضئيل، ولم نركز، وكان التركيز الأكبر مع التغيرات التي تحدث في عائلتنا، فأمنا بدأت في فك البقجة، والحياة تصبح جنة لهم بالحرام، أما أبونا فصامت طوال الوقت، ولا يدخل في تكليف جاد، يعامل بتهميش من إخوتنا، وأمنا مع الوقت تعامت عن وجوده، ذلك لأنه لا يضم أي معنى في حياتها، زوج، هذا ما يضيفه، والعشرة والعيش والملح يجبرونها على تقبله، وقد شعر هو بانهيار قيمته كأب لأبنائه، وانعزل مع نفسه، يأكل ويشرب، يصلي، ويبكي بفيض، وينام، وأحيانًا يخرج يسير في الحي فلا يفهمه أحد،

ولم يستطِع تكوين صداقات، فعاش وحده يقاسي.

بدأ التصويت في تغيير البدروم مسكنًا لهم، ونحن لم نهتم، نبيت أكثر أيامنا في مسجد السيدة، واستطاع (خباس) إقناع أمنا، التي اشترت بيتًا من دور واحد في مقابلة مسجد السيدة زينب، وأيدنا قرارها، لا يفرق معنا شيء إلا ملاصقة السيدة، فنكون بيننا وبينها خطوة، حتى لو أجبرونا على مفارقتها، فعشقنا لها لا ينتهي، وكنا نشراها من شرفة المنزل، فنكون في حضرتها بالبيت وخارجه، وفرشت أمنا المنزل كالملوك، وكانت فيه أربع غرف، فقُسمت، لأمنا وأبينا واحدة، ونحن و(ضاحي) و(شربات) واحدة لم نكن ننام فيها إلا إذا سجنونا، و(يونس) و(خباس) واحدة، و(حكّوم) واحدة وحده، وقد لاحظنا أن المياه غير نقية بينه وبين إخوته، يرونه مغرورًا فيتحاشونه، ويعاملهم هو على أنهم أغبياء، وقدر (يونس) على إقناع أمنا بمشروع يدر علينا دخلًا عظيمًا، طابونة خبز، فالناس لا يقدرون العيش دون خبز، وكانت فكرة عظيمة لاستثمار أموال الحرام، وفتح (يونس) أول طابونة، وصرف كثيرًا من أموال جدنا، وعمل فيها هو و(خباس)، يلقب هو بالمعلم، و(خباس) يصنع عجينة الخبز مع العمال، وأمنا تجلس أمام الطابونة تدخن المعسل القص، ويروح الناس ويجيئون يصبحون ويتمسون ويلقون السلام عليها مرددين: «صباح الفل يا معلمة لبيبة»..وعلم الناس أنها المعلمة، صاحبة الطابونة. وبجانبها (يونس) يرتدي جلبابًا لامعًا ولاسة نظيفة وقفطانًا زاهيًا، يظهر برداء الأغنياء، وحصل على احترام الكبير قبل الصغير في الحي كله.

وفي يوم، وقفت فتاة جميلة اسمها (نعيمة) تشتري خبزًا وكنا حاضرين، غضضنا بصرنا لكن (يونس) تخلى عن عنجهيته المصطنعة ونزل يتغزل بها، وأحضر لها الخبز دون الوقوف في الطابور، وسخط الناس عليه لكنه وعدهم بخبز أكثر فوق ما يشترونه، فصمتوا، وترددت البنت على الطابونة، ترتدي لباسًا يكشف أكثر مما يستر، طبقة الزينة على وجهها تحمره كجهنم، عيناها جريئتان تأكلان (يونس) كلما رمقتاه، فتربعت في قلبه وعقله، فطلب من أمه أن تزوجها له، وتقدمنا لخطبتها، ووافق أبوها المعلم (سفاجة) صاحب محل عطارة السيدة، معلم له كلمة تصمت الألسنة في حضرتها، ويهابه الفتوات، لكنه جائر، وجد في (يونس) الرجل المناسب لابنته، ومَن أفضل من (يونس) في الحي كله، فهو كالباشوات بأموال أمه الحرام.

وتزوجها (يونس)، وبعد شهرين من الزواج، طرح أفكارًا أخرى على أمنا، أن يفتح طابونتين أخريين، فزيادة الخير خير، وافقت، وانقض على الأموال يفترسها، فتحت الطابونتين، ومن ثم أقنعها بأن يعيش في بيت وحده، فهو المعلم (يونس)، ولا يصح أن يعيش في بيت أمه، واشترى بيتًا وانتقل فيه هو وزوجه، التي لم نسترح لها ولا لروحها المعتمة، غانية، تتبرج بالزينة، ولا تستحي، تذكرنا بـ(هند) زوجة عمنا (نوفل)، لكن لا أحد يعقب، من يبغي شيئًا يفعله، ولما رحلت عن منزلنا اغتبطنا، أما (حكّوم) فقد ابتعد عن إخوته وكان دائم التندر عليهم، ولم يعجبه حالهم الذي يتدهور يومًا بعد آخر، فالطوابين لا تنجب مالًا وافرًا، ويظهرون بعنجهية مكذوبة.

ولم نعرف عن عمل (حكّوم) شيئًا، يحضر أشياء إلى البيت، أجهزة كهربائية ثمينة، ويخرج بها ثاني يوم، ويسهر على سطح البيت مع مجموعة من الشباب الفاسد، يدخنون البانجو ويغنون للصبح، ثم ينزل لينام على سريره كالقتيل. ظل على تلك الحالة، يغيب بالأيام أحيانًا، ويعود، هيئته كالمجرمين، يرتدي مثلهم، ويتحدث مثلهم، قميصًا وبنطالًا مهلهلين معاقرًا للأفيون والبانجو، يهابه (يونس) و(خباس)، بعد أن تحول إلى بلطجي(5) يثير توترهم فور رؤيته.

وانطوى شهران آخران وعرفنا أن (نعيمة) حامل. بششنا جميعًا وذبح (يونس) عجلًا، وطرح على أمنا أن يفتح طابونة أخرى، لكنها أخبرته أن المال قليل ويتضاءل، لكن عسل حديثه قبض على أذنيها، وتشحطت في كلماته، كحت أموالها، وفتح الطابونة الرابعة، وبعد خمسة أشهر وبطن (نعيمة) قد داح، صعقنا جميعًا، إذ إن (يونس) تزوج (فوزية) ابنة المعلم (فرج) الجزار، رجل سمين لحيم جسمه مكتنز بالدهن، ينضح بالشر، مفتعل مشكلات، يملك أسطولًا من الرجال يعملون معه في المذبح، وهو كبيرهم، ولم يأخذ (يونس) الإذن من أمنا

تلك المرة، وقامت قيامته لفعلته ليومين كاملين، دخل على (فوزية) في نفس البيت الذي تعيش فيه (نعيمة) التي أوشكت على الولادة، وحلفت أمنا لتطردها، راجت للبيت وهجمت عليها، إلا أن البنت صراخها غطى الحي فافترشت الأرض بالناس، وشقهم حضور أبيها المعلم (فرج)، وبخ (يونس) وجعجع به: «والكعبة الشريفة لولا أنها أمك، لقطعتها وسلخت جلدها وعلقتها في واجهة المذبح». تنمرت أمنا وهاجت كلبؤة: «تصدق أنك رجل وسخ، تفرد شنبك على ست، والله أولادي يقطعوك». صعق (فرج) والناس يهزؤون به بنظراتهم، فكاد يفصمها نصفين هي وأخانا (يونس)، لولا أن الأخير رفع عقيرته في وجه أمنا وجلجل: «اسكتي وامشي من هنا». أهانها أمام سكان الحي، انهارت، ابنها يعيبها لأجل عربيد، كادت تسلط عليه لسانها، لولا (حكّوم) الذي تدخل ولطم أخانا (يونس) على وجهه أمام سكان الحي فاستحال كالقرقم، وقال: «لا تنس أنها من ألبستك ذلك الجلباب النظيف، وصنعت منك رجلًا. لو كنت رجلًا». واعتذر للمعلم (فرج) بكياسة إذ إن الأم لها احترامها، وطلب منه مسامحتهم، وتقبل الرجل على مضض، ذلك لأننا بتنا أهلًا، كريه لا يسامح ويرمي بالسموم، ثم أخذ (حكّوم) أمنا جانبًا، أخبرها بعض الكلمات التي لم نسمعها، وعادت وألقت بعض الجنيهات في وجه (يونس) نقطة فرحه إهانةً له، ونطقت: «مبارك يا عريس». وتركته ورحلت.

وأنجبت (نعيمة) بنتًا، سمتها (زينب) على اسم السيدة، أحببناها، قطعة حمراء ناضجة، عيناها عسليتان كجدنا، وتشبه أمها في الملامح الجميلة، نرجو ألا تكون مثلها في الأخلاق، فوالله لا تستحي ولا تخاف أحدًا، تخرج في مشربية المنزل ترتدي قميصًا شفيفًا، وتتغنج في السوق تشتري الخضراوات، وتهز عجيزتها وحاجبيها المزججين بانحلال، ولا يجرؤ أحد على مغازلتها خوفًا من أبيها، رجل لا يرحم، ويخاف (يونس) منه فلا يطلب منها الاحتشام، ورغم تزوجه عليها فإنه لا يقدر على مضايقتها خوفًا من المعلم (سفاجة)، وحين اعترضت (نعيمة) على الزواج ولجأت إلى أبيها أخبرها أنه حقه الشرعي.

وتزوج (يونس) الثالثة، (سيدة) ابنة المعلم (مقروض) جزار الدواجن، رجل لا يعاشر، ويكرهه الجميع بسبب سخطه المتكرر وتردده الدائم على الخمارات، شراب للخمر، وقد تلف رأسه، يرجع من سهراته الحمراء متطوحًا، وإن قابل أحدًا في الشارع ولم تعجبه نظراته يضربه ويهين كرامته في الحي، ولا يتورع لأحد، فيتجنبه الكل، ولا نعلم لماذا يختار (يونس) هؤلاء الناس ليتزوج منهم، و(سيدة) كانت فتاة متوسطة الجمال وطيبة الطباع رغم سلوك أبيها. لم نحضر العرس ولم تعلق أمنا، وأهمل الطوابين، يظهر فيها فيختلس أموالها ويرحل، ونحلت كعوب أمنا من اللف على الطوابين الأربع، ووظفت أناسًا ينهبون خيراتها، وكل فترة وجيزة تكشف سارقًا فتطرده، وتنكمش أموال الحرام فتطير مع مهب الريح، وتطوع (خباس) بأن أدار طابونة وحده، ويلتهم (يونس) الأموال في كرشه ولا يتوقف، يصرف ببذخ ويأكل كثورٍ لا يشبع، يذبح عجلًا دون سبب، يوزع اللحم على الناس، وأحيانًا يشتري سمكًا بمبلغٍ هائل، ويجمع الناس في الشارع والعمال لديه في الطوابين ويأكلون ويتسامرون فتنكمش ثروته، يطعم أفواههم فقط ليلقبوه بالمعلم، ولا نأكل منه لمعرفتنا مصدر المال، وحين يطلب منه شخص شيئًا ولأنه معلم ينفذ الطلب، حتى لو كان أموالًا، يرمي النقود هنا وهناك، كالمجنون يصرف ببذخ، والحرام لا يدوم، يعطي زوجاته الثلاث بالعشرات دون عد، ويظن نفسه ملكًا.

وأنجبت (نعيمة) بنتًا أخرى، و(فوزية) أنجبت ولدًا، و(سيدة) أنجبت آخر، وتسابقت الثلاث في نهب ما في جيوبه، يمطرهن بالأموال، فقد كن يعيشن أميرات في بيوت آبائهن، وعلى (يونس) أن يغدق عليهن حتى لا ينزلن درجات فيعايرنه ويشكين التقشف، والبلوى الأخرى كان (خباس) الذي ينهش ريع الطابونة التي يديرها ويصرفها على القمار، فيخسر، وفي اليوم الثاني يأخذ الريع الجديد فيصرفه على المواخير، يزور المومسات ويظهر برداء المعلم، وكل يوم في حضن واحدة، يخرج مفلسًا، واستطاع بدهاء التحكم في طابونة أخرى، ذلك لأن أمنا لا تقدر على إدارة الأربع، و(يونس) ينام في البيت حتى المغرب، زوجاته يأكلن دماغه، ينزل فيبتلع قليلًا من الغلة، ويدبر، طابونتان يغتصبهما (خباس)، والاثنتان الأخريان يهتك عرضهما (يونس)، وأمنا تولول ولا تقدر على السيطرة على أبنائها الفاسقين، المال الحرام يشوه نفوسهم، فيستحيلون مسوخًا، ولا نعرف شيئًا عن (حكّوم) الذي يغيب أسابيع عن البيت، ويعود أشد من ذي قبل، يفوق جدنا في جبروت نظراته وتصرفاته،

ويهابه شباب الحي، ويحترمه المعلمون، إذ إنه يتورط في بعض من عوائقهم ويحلها، فهو يعجبهم، وعند زيارته الحي يضرب ثلاثة أو أربعة في مثل سنه، عرض بهلوان في سيرك يستحوذ به على إعجاب الناس في كل زيارة للحي، ويغيب ويعود، فتوة يخافه البعض، وليكسبه شخص، كان يحضر له زجاجة نبيذ، وقد أبصرناه يتيم بها مرات عديدة، فكانت هدية المعلمين له، ويتقربون منه ويتسامرون ومن ثم يختفي كعادته.

يعيش أبونا على الهامش، لا أحد يلحظ وجوده، كأنه مات مذ كنا في منفلوط، وإن اضطروا إلى معاملته تكون كلماتهم جافة وقهارة، حتى أمنا يظهر عليها أنها لم تعد تحبه، لكنها تحترمه كونه رجلها، وبان عليه الكدر يعتصره، أما (ضاحي) و(شربات) ففارقان في الدنيا كأطفال صغار لا يفقهان شيئًا. هذا حال أسرتنا، نحاول الهرب دائمًا، ولا نقبل على أنفسنا قرشًا من مالهم، وتضيق بنا الحياة يومًا بعد آخر، وينغصون هم عيشتنا، فنغيب عن البيت، ونبيت لامسين جدار ضريح السيدة (زينب)، نخدمها ونجمع نذورها وننظف المسجد، ونأكل حلالًا، نفر عن غوغاء الدنيا، حتى تغضب أمنا وتوبخنا وتصفعنا فنرجع مجبورين، ولا نقرب أموالهم.

وحياتهم تزداد خرابًا، (خباس) لم يكتفِ بأن أخذ ريع الطابونتين، بل لم يعطِ الرجال أجرهم، فأضربوا عن العمل، وحاولت أمنا أن ترجعهم فلم يقبلوا، ولحقوا بأماكن أخرى، أيام قليلة وأغلقت الطابونتين، وبقيت اثنتان، يلف عليهما (يونس) يلتهم الغلة ليصرف على زوجاته الثلاث، اللاتي سريعًا ما صرن أربعًا، فتزوج (فتحية) ابنة المعلم (زعابيب) فتوة وبلطجي المنطقة، رغم أن عصر الفتونة ولى، فإنه يمتهنها فيمتص دماء الناس وخيراتهم، ويرشو الحكومة فلا يُسجن، يهابه أهل الحي، رجل رذل، عتل، ومزدهٍ، و(فتحية) ابنته لم تتجاوز الرابعة عشرة، جسدها أنثوي، لكنها تقرب في العمر أختنا، وكالعادة لم نرحب بالزيجة، لكننا لم نملك رفاهية الرفض، وأضحى بيته مرتعًا لزوجاته الأربع، وسرعان ما أغلقت الطابونة الثالثة لرحيل العمال بعد أن لعب بعقولهم أحد المغادرين القدامى، والأخيرة حاولت أمنا بكل جهدها لكنها لم تكن تكفي لمصاريفهم وإطعام الأفواه التي تتعلق في رقبة (يونس)، وصرفت أمنا كل أموال الحرام التي تخزنها، وفرحنا بالبشرى، سرعان ما طلبت من (يونس) بيع بيته والعيش معنا، لكنه رفض، ودون أن يرجع لها، باع طابونتين، وأعطاها جزءًا صغيرًا من المال، والتهم الباقي في كرشه، إذ إن عقود الطوابين مكتوبة باسمه وهو المتحكم الأول والأخير فيها، واحتال على أمنا، فمرضت، ولازمت الفراش، السكري أكل جسدها، وكلما تعرضت لضغط كانت تغيب، فارتعدنا لموتها، وحاولنا أن نعاملها معاملةً حسنة، وتركت كل شيء لـ(خباس) و(يونس)، وسرعان ما علمنا أن الأخير باع الطابونة الثالثة وكان يضمر نيته فهو أفاق، ولم يعطِ أمنا أي مال، بل لم يزُرها في مرضها، وازدادت حالتها سوءًا، ورغم سقمها الذي آلمنا، فإننا لم نسخط لتدابير القدر، فنحن لا نقبل السخت.

سبعة وخمسون يومًا وأغلقت الطابونة الأخيرة، واختفى (خباس) بضعة أيام لا يملك القوة لمواجهة أمنا، ثم عاد، وأخبرها، ونقلناها إلى المستشفى، أيام ووفدت إلى البيت، صامتة، لا تكلم أحدًا، لكنها لا تملك مالًا، فانقضى الترف، يتردد عليها (حكوم) من وقتٍ إلى آخر يترك لها بعض القروش ويغيب، واختفى (يونس) النكوص، شهرًا كاملًا لا نعرف عنه شيئًا، وزوجاته يأكل بعضهن بعضًا في بيته، حتى كانت الفاجعة، شخص ليس من سكان الحي حضر وفتح الطابونة الباقية والأخيرة، وحين منعه (خباس)، أخرج له ورقة تثبت حقه وشراءه الطابونة من (يونس أبو حماقة). كادت أمنا تموت وغابت عن الوعي يومًا كاملًا في المستشفى، حتى فاقت، ومر أسبوع، وعادت إلى البيت، وجلست لا تملك مالًا ليأكلوا، أربع سنين وقليل من الشهور فتهاوى جبل الحرام، وفكرنا أن نعمل نحن و(خباس)، وابتغينا إدخال مال حلال على أهلنا، لكن لا أحد قبل أن يعطي (خباس) عملًا وسمعته السيئة قد غزت الحي، وحاولنا أن نعمل نحن فقد تجاوزنا التاسعة عشرة وكبرنا، ونبتت لنا لحية خفيفة، لكننا لم نجد شيئًا يناسبنا، فنحن لا نملك أي صنعة، ولا نعرف شيئًا غير قراءة القرآن وترديد الأذكار، فامتهنا تعليم القرآن للأطفال، لكننا لم نقدر على طلب مقابل لهذا العمل الشريف، فالمقابل عند الله نفيس والأجر عظيم، وطلبت أمنا من زوجات (يونس) أن يبعن البيت، لكنهن رفضن بحجة أنه إرث الصغار، ولم تستطع التصرف فيه إذ إنه ملك لـ(يونس)، فكادت تبيع بيتها، الشيء الوحيد الذي تملكه، وتمنينا لو تخلصت منه لينصرف مال الحرام، لكن (حكوم) أنقذها، وحضر بغتة وأعطاها مالًا، وطلب منها أن تفتح دكانًا

في مدخل البيت، تبيع فيه البقالة بكل أنواعها، وتدر عليهم دخلًا، وباشر بنفسه فتح الدكان، ومن ثم اختفى مرةً أخرى، ولا نعلم أين يغيب ولا مصدر أمواله، ولم نقربها لأننا شككنا، وعادت الابتسامة ترتسم على وجوه أهلنا، ورغم أن الدكان هو الذي يصرف على البيت، فإن (خباس) ما زال ينتشل منه القليل ليقامر أو يذوب في أحضان عاهرة.

وبَش الشعب المصري بالأوضاع السياسية، وحاولنا أن نفهم ما يخبرنا به الشيخ (مسعود)، وأن (جمال عبد الناصر) صار حديثًا للكل، وأضحى رمزًا محبوبًا من الجميع، يتحدثون في سيرته بالطيبة والنقاء والحب، خصوصًا بعد أن ظهر على شاشة التلفاز وتحدث عن قضية فلسطين، واستقلال تونس والجزائر والمغرب عن الحكم الفرنسي، فأضحى رمزًا للعروبة، رغم أننا لا نملك واحدًا، لكننا كنا نسمع للشيخ (مسعود)، وأحيانًا يرن صوت (عبد الناصر) في الراديو.

وعدنا إلى الموالد نرتدي التنورة، ولم تركض أمنا خلفنا تبحث عنا، فقد انشغلت بعوائقها، فكنا نغيب بالأيام في مسجد السيدة ولا تسأل، وإن رجعنا إلى البيت نبيت فيه ليلة ضيوفًا، ونركض في صباح اليوم التالي إلى المسجد، نقرأ قرآنًا مع الشيخ (مسعود)، ونقرب من الرجل فروحه طاهرة ونفسه نقية، وذات يوم، كان يؤم الصلاة بنا، ونزلنا، سجدنا، وطالت السجدة، حتى إن رأسنا آلمنا، ولم نعد نتحمل انكفاء وجهنا، عشر دقائق مرت، فسمعنا صوتًا آخر يقول: «الله أكبر»..نبرة الشيخ (محمود) تلميذه، أكمل بنا الصلاة، وكنا نرى الشيخ (مسعود) بجانبه ساجدًا طوال صلاتنا، خاف (صابر) وارتعد، وعلمت أنا أن روحه صعدت، ومات الشيخ الطيب ساجدًا، وشيعت جنازته ومشى فيها أهل الحي كلهم، فالرجل كان مباركًا، وحزن حي السيدة ثلاثة أيام، وعادت الدنيا كما كانت، لكن الحزن استمر معنا شهورًا، نمسك بالمصحف ونقرأ على روح الشيخ (مسعود)، وندعو له في صلاتنا، ونحفظ الناس القرآن كما وصانا وكان يفعل، نغيب أسبوعًا، ونعود لنطمئن على البيت، لكننا اكتشفنا شيئًا نجسًا، (خباس) أحضر بيرة وخزنها في الدكان، وأمنا علمت بها ولم تعقب، ونشر الأمر أصدقاء السوء خاصته، وأخذوا يترددون على الدكان يشترون منه زجاجات البيرة، ومن ثم أصبحت أمنا تساعده على فجره، فكانت تدر دخلًا عظيمًا، وتحول الدكان إلى حانوت، غضبنا، ولم نستطع ردعهما، فزادت غيبتنا وتمددت، فأضحت أسابيع كثرًا، ونعود فنجد الحال كما هي، يزداد كربنا لكننا لا نقدر على صدهما، فكنا نصلي وندعو لهما بصلاح الحال، لكن حالهما يزداد سوءًا، حتى سمعنا الشيوخ في المسجد يتهامسون بأن أم (صابر) التقي الذي يصلي معهم ولا يترك فرضًا ويحفظ الناس القرآن تبيع البيرة للناس، وهذا منكر، وكانوا يدارون حديثهم عنا، لكننا استطعنا السمع وعلمنا أن سيئات أهلنا قد راجت، طوقتنا اختلاجة رهبة من العاقبة، وتناقلت الأخبار في كل ركنٍ بالمسجد، وخرجت إلى الشارع وكل زقاق، وكل بيت كانت سيرته أم (يونس) التي تبيع البيرة في دكانها.

في بادئ الأمر ازداد زبائنها، وعاشت في رخاء بضعة أيام، ومن ثم اجتمع بنا الشيخ (محمود) وحدثنا بمنطق وتقريع وطلب منا أن ننصحها ونحذرها عاقبة أفعالها، وذكّرنا بالنواميس، فسمعناه بتؤدة، ندرك ما يتلفظ به، لكن أمنا لا تسمع، وقررنا أن نتدخل فنبين لها الخطأ والصواب، ولم نرجئ الأمر، وحاولنا تلجيم أفعالها، وعدنا إلى البيت، جلسنا معها وحذرناها، لكنها لم تتقبل، وبختنا وضربتنا وطردتنا، خرجنا من البيت مكسورين، وقلبنا ينز دمًا مما ارتكبت في حقنا من إهانة، وظهر علينا شظف العيش، لازمنا المسجد، والأعين تراقبنا بتجهم، وفي معقلنا نعرف أننا مكروهان، أيام، ونسوا أننا كنا نخدم الجامع بكل ما نملك لأجل الله، وجاء الشيخ (محمود) وطلب منا ألا نزور المسجد مرة أخرى، وأن نبحث عن مسجد آخر نصلي فيه، فصعقنا، أيمنعنا من دخول بيت الله! وكيف يبعدنا عن السيدة! وسحبنا من يدنا ومشينا على مهل كأننا نتريض متجهين نحو باب الخروج، يشرح لنا مدى عاقبة أفعال أمنا، وأن البيت يقع في مقابلة المسجد، وهذا شيء مرفوض، وأنه لا يمنعنا من الصلاة في المسجد، ومحبو السيدة وعشاقها يأتون من كل صوب وحدب، ولا يرد أحدًا عنها، لكنه يحثنا على منع الضرر. لم نتفهم أفعاله، ووقفنا أمام باب الجامع، فتركنا وولج، لقد كنا يعامل بعضنا بعضًا كإخوة، مشينا في الشارع، فجاشت أنفسنا بالهم، وتذكرنا شيخنا الحاج (مسعود)، وأنه لو كان على قيد الحياة

لما سمح بإهانتنا وطردنا، فنحن أحباب السيدة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا اعتراض على حكمك يا الله.

رجعنا إلى بيتنا نعاني لفحات الجحيم، شعرنا كأننا نشيل على رأسنا الدنيا، نكابد القهر، لا نكلم أحدًا، ولا نختلط في خطاب، ولا نأكل، نصلي، نتعبد بورع، نسبح، ونجلس في غرفتنا، ولا نخرج، حتى عند عودة (حكّوم) لم نكلمه ونرحب به، نروح إلى المسجد، نلتقط بعض الطعام، ونعود، فينعتوننا بالمتسول، ولا نأبه.

ووقعت الصدمة الكبرى على أهلنا، حين حضر رجل ومعه الشرطة وطردوا زوجات (يونس) من البيت، وأخبرهم الرجل أنه قد اشترى البيت، رزيئة أخرى تحط علينا، وخرج المعلمون (سفاجة) و(فرج) و(مقروض) و(زعابيب) بأوجه مكفهرة، ووقفوا أمام الشرطة عصبة واحدة، فأخبرهم رجال الشرطة أن الأمر قانوني، وألا يعبثوا مع القانون حتى لا يُلقَون في الليمان، ولملمت النسوان الأربع ملابسهن وأطفالهن وخرجن يسحبن البجق خلفهن، ونحن حاضرون، أمنا وإخوتنا وأبونا، فنظر المعلمون لنا شزرًا، ونظراتهم كانت تتفصد بوائقة، خفنا وعدنا إلى البيت، لكننا كنا نعلم أن العواقب لن تكون حميدة.

وتفجرت القنبلة، يومًا كقيامة الدنيا، أفقنا من نومنا على صوت أشياء تكسر، وصراخ أمنا، وضربات مع تأوهات من أخينا (خباس)، وصياح غير مفهوم من أبينا، وكان صوت (حكّوم) في المنتصف يصدح بعنفوان وغضب ومن ثم يتأوه، خرجنا من غرفتنا لنبصر الهول، نشع العرق من جسدنا، الأربعة المعلمون ينكلون بأهلنا، فامتقع وجهنا، راعتنا نظراتهم، ومعهم أكثر من خمسين رجلًا يمسكون شومًا، يلوحون بها في كل مكان، ضربوا (خباس) ودكوا جسده، فكان يصرخ باستغاثة ولا نجدة، وحاول (حكّوم) التصدي لهم، لكنهم كسروا منكبيه وهدموا ثباته وأذلوه، وضربوا أبانا الضعيف المسكين وتفلوا عليه، وصفع المعلمون أمنا وما إن أبصرونا حتى ناولنا أحدهم بشومة على أرجلنا فسقطنا، وسحبونا إلى الشارع، حزقوا بنا وألقونا أرضًا كالغثاء، ورغم أن الحي مكتظ بالناس، فإنهم ظهروا غائمين سبب الغبرة، وجلس المعلمون الأربعة على كراسي خيزران يمسكون بالنارجيلة يمتصون دخانها، ويضحكون مشاهدين، ورجالهم يضربوننا أمام سكان الحي أجمعين، ونحن نذعن ضعفاء، بعثروا كرامتنا ودهسوها دون اعتبار، الشوم ينزل علينا كالمطر، كدنا نموت، والناس يتفرجون كأنها مسرحية وستار أسود على وشك الإسدال، وزاد الأمر رهبة، رهط منهم اقتحموا البيت وحطموا الدكان فتاتًا، ومن ثم الأثاث، ولم يمنعهم رجال سكان الحي الذين أشنبتهم كالأعمدة.

وزعق المعلم (سفاجة) في وجه أبينا وأمنا: «نحن معلمو حي السيدة، عيل يصنع منا بهلوانات ويضحك علينا الخلق، والله لتطردون من الحي كله كما طردت بناتنا من بيتهن». ونزلوا علينا بالشوم ينكلون بجسدنا، ولا معين، وانتحبنا ببغض، ليس تألمًا أو ضعفًا، بل لأنهم سيطردوننا من حي السيدة، ولن نستطيع زيارتها مرة أخرى. احتضنت أمنا (ضاحي) و(شربات) اللذين لم يكفا عن البكاء والفزع، فلما ضمتهما لم يقربها ثلاثة من الجبابرة رأفةً بالعيال، إلا أن المعلم (فرج) نتر ساقيه المتشابكتين ووثب، دنا منها وأمسك خديها وضغط عليهما بأصابع صلدة وزعق: «أتذكرين يا بنت الكلب يوم شتمتِني أمام الناس». لم ترد أمنا، فتفل في وجهها وصفعها لتحتضن التراب بذل، هاج (حكّوم) وحاول التملص من بين فكوك الرجال ولم يقدر، فخلع (فرج) غطاء خرطوم النارجيلة الحديدي وضربه على وجهه، ثم هجم عليه بجسده الفطحل وصدمه فجندله أرضًا، ثم اعتدل، التقط نفسًا وهدأ من روعه ونظر إليه شزرًا: «نحن هنا لطردكم، لا تجبرني على الدم، وكما تعرف أنا جزار».

خمس ساعات وكان البيت كله مكسرًا، وملابسنا ألقيت في الشارع على مرأى من الجميع، وكلنا كان لنا نصيب من تكسير العظام، صرخت أمنا وبكت تترجى الناس في الشارع أن يتدخلوا، ولم يحرك أحد ساكنًا، يقفون بعيدًا ويلتف رجال المعلمين حولنا يقيدوننا، أخبرتهم أمنا أن هذا ظلم وأنهم يطردوننا من بيتنا، وأننا لم نرتكب طامة، بكت بحرقة وهددت بأنها ستذهب إلى الشرطة، فضحك المعلمون وبصقوا عليها طالبين منها سرعة الاستجابة في تنفيذ تهديدها. كنا ملقين أرضًا والمعلمون يركبون ساقًا فوق أخرى والشيشة تقرقر في أيديهم وتجلجل ضحكاتهم، ننظر أمامنا فنبصر أسفل أقدامهم، ذل وإهانة وكسرة نفس لم نتعرض لها في

حياتنا، كنا في بيت جدنا ملوكًا حتى لو كانت الأمور مشتعلة، والآن نعذَّب كالعبيد والسوط يشقق أجسادنا جهرًا.

صرخت أمنا وبكت، أخبرتهم بأنها سترحل، لكن ليس عدلًا أن نترك بيتنا، فرد المعلم (زعابيب): «وكان العدل طرد بناتنا! المحروس ابنك دخل على ابنتي أسبوعًا، وأكل عقلي بالكلام المعسول». تحزب له المعلم (فرج): «وشرفك لو رأيت وجهه لأشويه». وتآزر لهما المعلم (مقروض): «نصاب ابن نصابين، ضحك على البنت وألبسني الخازوق». وأردف المعلم (سفاجة): «والله يا معلمين نحن نستحق ما حدث، وثقنا بكلاب لا نعرف من أي داهيةٍ أتوا، وأي مصيبةٍ ارتكبوها قبل أن يدخلوا علينا ويلعبوا بنا». فاخشوشنت نبرات المعلم (زعابيب): «والله ليطردون وأقفيتهم معلمًا عليها بأصابعنا». وصفع أبانا على قفاه، فصرخ متلفظًا بهمهمات بكماء، ورمقه بعينين كليلتين، لم يفهموا ما تفوه به، فضحك الجميع وتندروا عليه، وأضاف (زعابيب): «اخرس يا خرع». وضج ضاحكًا مضيفًا: «وكيف تخرس وأنت أخرس». ومات الجميع قهقهةً حتى شهقت أرواحهم، فظعن أبونا في سويداء قلبه.

وكأننا في السعير، صاحت أمنا: «يا ناس، حرامٌ عليكم، تنهبون بيتنا وترمونا في الشارع، أين سنبيت، معي بنت صغيرة». وكانت (شربات) قد تجاوزت الثالثة عشرة، لم يسمعوا لها، ورموا أشياءنا في الشارع يدهسها الرجال، ومن ثم وثبنا قائمين وظهورنا محنية لا نقدر على التصلب، لملمنا ملابسنا في بجق، ورفعناها فدفعونا يسبوننا وينعتوننا بأقذع الصفات، والدموع تنزل على وجوه أمنا وأبينا و(شربات) و(ضاحي) ونحن، أما (خباس) و(حكّوم) فكانا متماسكين، فتح الرجال فرجة من الدائرة، وأياديهم تنزل تباعًا على أقفيتنا، يزجر (حكّوم) لكنه لا يستطيع التصدي لهم، تملصنا من دائرة المعذبين، فواجهنا سكان الحي ينظرون إلينا بشفقة، ويرددون: «لا حول ولا قوة إلا بالله». كأنهم يرأفون بأحوالنا، حتى ظهر الشيخ (محمود) واقترب منا، لم ينظر إلى وجهنا ونحن تلميذا شيخه (مسعود) رحمة الله عليه، تجاهلنا، وتقدم نحو أمنا وأعطاها حقيبةً بها أموال، ومبصمة وعقدًا، وأخبرها أن الأموال ثمن البيت، وأقنعها بالبيع، رأفةً بحالها، أمسكت أمنا العقد وسلطت عليه عينيها الذابلتين، وغرقته بدموعها، مرت ثوانٍ والتردد يفتك بها، ثم بصمت ونفسها تنهار، تشعر بالقهر والظلم، تلقف منها العقد ورحل، احتضن بعضنا بعضًا، ومشينا في الشارع، العار يلحقنا، وخرجنا من حي السيدة زينب كما خروجنا من منفلوط، بنفس منكسرة، لكن أمنا تلك المرة لا تملك إلا قليلًا من المال، وكالعادة لم نعلم وجهتنا، كأن الأحداث البائدة تُكرر.

***

خرجنا صاغرين كالكلاب الضالة الغاضب عليها أهل المنطقة، نغطي أسفل ظهورنا بذيولنا مذلولين، نركض خائفين من حجرٍ يطول أدمغتنا، كمنّا أسفل خيباتنا، ولو قتلنا كان شرفًا وأعظم، مشينا على أرجلنا مندثرين كأننا نسقط في هوة، لم نستقل حنطوزًا، حتى وصلنا إلى ميدان رمسيس، بعد أن تم تغيير اسمه وذلك وفق أمر نقل واستقرار تمثال رمسيس به بقرار من الرئيس (جمال عبد الناصر)، تمثال فرعوني عريق، ضخم، تصلبنا أمامه نتفقده ببلاهة، ماذا سيفيد إن كان (جمال عبد الناصر) رئيسًا أو (محمد نجيب) أو حتى الملك (فاروق)، كلنا سواسية، تراب ودود ينهشنا، كرمسيس هذا.

التففنا لننظر في أوجه أمنا وأبينا بوجوم وحدب، الحزن يدغدغهما بين فكي أسنانه، وبدا أبونا أعجف خط الشيب فوديه يخور كجاموس فقد دمه، كأنه لم يتلقَّ حسوةً من سعادة في حياته، وإخوتنا، (ضاحي) و(شربات) يظهر عليهما الضعف والخوف والفزع، والجزع يغتصب (خباس) والدماء تخضبه، أما (حكّوم) فلم نفهم نظراته الباردة، يسير بإباء رغم الرضوض والخمش على وجهه.

وقفنا جميعًا في الميدان نتفرس أوجه بعضنا بعضًا، لا نعرف لأي وجهةٍ نسير، صمتٌ تام من أمنا، وأبونا مغلوبٌ على أمره، دقائق ثقيلة تكتم الأنفاس، وتشاور الجميع عن مقصدنا، لكن الإجابة استعصت علينا، حتى تكلم (حكّوم): «لي صاحب يسكن في الخصوص، يعرض بيته للبيع لأنه سيسافر خارج البلد، نمت في ذلك

البيت عدة مرات وأراه مناسبًا، بعيد، وفي مكان هادئ يشبه الصعيد»..لم يرد عليه أحد، وفي حديثه نجوانا، فشرع في التحرك، وانطلقنا خلفه، استقللنا قطارًا، وبعد ترجلنا عنه مشينا أكثر من نصف ساعة، حتى وصلنا إلى أراضٍ زراعية نائية، وبيوت تظهر شاذة في المنتصف، وترعة تشق الأرض كاملة، بانت على طول الأرض في سيرنا، حتى وصلنا إلى تجمع سكاني، به بعض البيوت، الأرض مقسومة نصفين بسبب الترعة التي تزحف كثعبان تشقها، نصف أراضٍ زراعية شاسعة، ونصف منازل قليلة يضمها خلاء خاوٍ، توجهنا إلى المنازل، الناس يرمقوننا بمقت، لا يرحبون، رجحنا ذلك لأننا أغراب، لكن الشر بادٍ في أعينهم، وكلنا لاحظناه، والنظرات كانت تحوم حول (حكّوم) كأن لا أحد يحبه.

وصلنا إلى عمق المكان، بيت مكون من دورين راسخ على بقيعة تحاوطها منازل أخرى، المنطقة يقبع فيها أكثر من مئة بيت. وقفنا أمام مبتغانا في أوج القيظ بقنوط ينز العرق من جباهنا، خبط (حكّوم) الباب، خرج شاب مربوع في مثل عمره، أسود البشرة، مجعد الشعر، يبدو عليه أنه بلطجي، الخطوط تزخرف وجهه إثر جراحٍ نظن بأن التي سببتها مطواة، وجفناه ثقيلان تظهر عليه آثار الأفيون والمخدرات، ونظراته مريبة وغير مريحة، شرح له (حكّوم) نيته في شراء البيت، وطلب منه المغادرة اليوم، لم يعترض، كأن المال رمق ينجده من جهنم، لملم أشياءه، وحملها على كارو، ثم أعطانا العقد، وأخذ تسعين بالمئة مما تملكه أمنا من مال، ثمن بيت حي السيدة زينب، وترك لنا قليلًا من الجنيهات، يعيش بها أهلنا قليلًا من الوقت.

خشخشنا في البيت، وأغلقنا الباب خلفنا، رائحته عطنة ومقرفة، والمنظر مقزز، دور أرضي فارغ مترع بالقمامة والهوام وزجاجات البيرة وأعقاب السجائر والسخام، أما الدور الثاني فلم نبصر فيه شيئًا سوى قطع من ملابس داخلية لسيدات ملقاة بإهمال، خمس غرف فارغة من أي أثاث، وصالة واسعة، وحمام ومطبخ كبيران. أخرجت أمنا خيشة من البقجة، وفرشناها أرضًا وتكومنا منطرحين.

اعتكفنا في البيت لا نحضر سوى الطعام لنأكل، حتى تلتئم جراحنا، اضطررنا إلى أكل القليل معهم وبكاؤنا يغرقنا يوميًا، نطلب من الله المغفرة، وكنا نصلي في البيت ولم نخرج بحثًا عن مسجد، فخبا نورنا مع أكل السحت وعدم زيارتنا لبيت الله، وزاد اشتياقنا له، وما إن ظهرت علينا العافية، استقصينا، فلم نجد مسجدًا أو زاويةً للصلاة، وعلمنا أن الناس منهم القليل من يصلي، ويقضي فروضه في بيته أو الغيط، ولم يصنعوا مسجدًا، فلزمنا مقطننا.

وفي يوم، نزلت أمنا باكرًا، وغابت، تساءلنا عن مكانها ولكننا لم نعلم، بحثنا عنها في كل رقعة، حتى حضرت في أوج الشمس، ومعها راديو، وأحضرت معها نجارًا، صنع أسرّةً لنا، وطاولة نضع عليها الراديو، وطبلية نأكل عليها، وثلاث أرائك في الصالة، ونظفت أمنا البيت هي و(شربات)، وأوشك المال على النفاد، ينهار الجبل ويتضعضع.

وبحث (خباس) عن عمل، حتى عثر على طابونة بطرف المباني، أبهر مالكها بمهاراته، فعمل بها وأخذ يدر دخلًا علينا، وظهر بوجهٍ ثغور، أما (حكّوم) فكان يغيب ويعود ببعض الأشياء، يركنها يومين ثم تختفي ويعود ببعض الأموال، يلقيها في أحضان أمنا ويغيب، ولا نعرف من أين يحضرها، وحاولنا أن نخلق صداقات، لكن الجميع أبى، يرفضون التحدث معنا، حتى إنهم هاجموا مالك الطابونة لأنه أعطى عملًا لـ(خباس) فطرده، وعندما سألناه عن السبب صاح بحرقة: «لأنني أخو حكّوم». ولم نفهم، الناس تتحاشى الحديث معنا، ونظرات العداوة ترمقنا أينما حللنا، وأمنا تسأل (حكّوم) لمَ يكرهه الناس، فيخبرها بأن تتجاهلهم فهم أوباش، ولم يقص سببًا واضحًا لعداوتهم.

وعلمنا أن معظم السكان نازحون من الأرياف وبلاد الزراعة، تركوا بيوتهم ونزلوا المدينة بحثًا عن لقمة العيش، وحطوا في الخصوص فأراضيها زراعية تشبه مقطنهم، أجروا الأراضي من مالكيها، ومنهم من امتلكها، وهناك بعض كانوا سكانًا من قديم الأزل، وامتلكوا الأراضي إرثًا عن أجدادهم، وعاشوا وتآلفوا حتى كونوا بقعة معزولة عن العالم بكل ما فيه من حياة.

واضطررنا إلى العيش من مال (حكّوم)، وشعرنا نحن بالضيق، لأننا شككنا في حرمانية أمواله، وكنا نصوم أيامًا، ونأكل بتقشف، وكثيرًا نربط على بطننا تقليدًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد كان يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، ونمشي في الشارع بحثًا عن أي عمل، لنتدبر طعامنا ولا نجد، تصرخ أمنا في وجهنا: «ستموت من الجوع». تمر الأيام ولا نأكل، وفي النهاية نقبل بثمرتين من التمر أو القليل من القوت، ونبكي ليلًا نرجو من الله مسامحتنا.

درقع الوقت، وكنا نسمع الراديو، فنسمع أخبارًا، ونعرف أشياء تدور في المنطقة العربية كلها، ونحن في بيتنا، حتى لو لم نتدخل بإصبع، المعرفة نوز للعقل، وفي يوم الثامن من يونيو عام 1956، عرفنا أن آخر بريطاني خرج من مصر، وعلمنا بهذا تنفيذًا لاتفاقية الجلاء البريطاني عن مصر التي وقّعها الرئيس (جمال عبد الناصر) يوم التاسع عشر من أكتوبر عام 1954، وخرجنا نسير في الشارع رافعين رؤوسنا، لكن أهلنا لم يفهموا، فشرحنا لهم أن مصر مستقلة الآن وحرة ولا يوجد بها أي مستعمر، لم يعيرونا أي انتباه، وسمعنا (أم كلثوم) في الراديو تغني: «اليوم قد تم الجلاء، ونلتِ غايات المنى. الأرض هذه أرضنا، طابت صلالًا وجنا، فكيف نرضى غيرنا يذود عن أوطاننا».

ويوم السادس والعشرين من يونيو عام 1956، سمعنا جملة في الراديو هزت كياننا: «قرارٌ من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية». وقفزنا قفزًا، وأخبرنا من في البيت كم أن القرار عظيم، لم يسمعونا.

مرت الأيام، كبرنا، سننا الآن عشرون، خمس سنوات على مغادرتنا منفلوط، مرت كريح صرصر أهلكت نفوس أهلنا، وقد كبر (ضاحي) ووصل إلى السادسة عشرة وتحول إلى مراهقٍ سادر لا يهدأ ويفتعل المشكلات أينما حل. لا أحد يحبنا في المنطقة، يوميًا يتوحل إخوتنا في المعارك بسبب معاملات الناس الجافة، (خباس) يضرب أحدهم، ومن ثم يضربونه، ويضربون (ضاحي)، فيضرب أبناءهم، ويحضر (حكّوم) ليمسك في عنق هذا وذاك، ولا يطيق الناس سيرتنا، ولا نعرف سببًا لهذا إلا أننا إخوة (حكّوم).

وكنا نسمع ما يدور على ألسنة الناس، ومع الوقت تبينا سبب كرههم، لأنهم يبغضون وجود (حكّوم) بينهم، إذ إنه يتاجر في المسروقات، هجام هو وصاحبه، وقد سرقا بيتًا في الخصوص ذات يوم، لرجلٍ مبتورة سيقانه، ومات إثر الصدمة، ولم يُرجعا لأبنائه المسروقات، ولم يهم الناس أنه حرامي، لكن سرقة المبتور!

واستنبطنا سبب أننا منبوذون، لكننا قررنا ألا نخبر أهلنا، إذ إن أمنا لو علمت لن تحرك إصبعًا، وسيغضب منا (حكّوم)، ونحن لا نريد أن نفتعل عائقة، لذلك سكتنا.

ولم يرحل (حكّوم) شهورًا، وقد قرر العيش معنا، وعرفنا من أنفسنا أنه تخلى عن السرقة لحمايتنا، إذ إن مخايل طردنا الثالث قد تجلت في الأفق، وناقوس الخطر يدق على أدمغتنا، وخير ما عمل (حكّوم) تركه للحرام، حتى لو متنا جوعًا، ومادت الدنيا، ومال حال مصر، إذ إنها توغلت في حرب، فقد اقتحمت إسرائيل سيناء وقتلوا ألفي جندي مصري وقبضوا على الآلاف، وفرنسا وبريطانيا طوقتا بور سعيد، وقصفت الطائرات البريطانية والفرنسية المطارات المصرية في القناة، وعندما عجز الجيش، ناشد (جمال عبد الناصر) المواطنين القتال في الحرب معه، والاشتباك مع الأعداء، وأعلن أنه سيوزع بنادق على المقاتلين ليحموا مصر، وعرفنا أن السياسة مهمة في حياة الإنسان، وعليه أن يكون على معرفة بها.

سمعت أمنا الخبر في الراديو، فجمعتنا، ووقفنا في صدر الصالة، ننظر إليها بتساؤل وحيرة، صمتٌ تام، قطعته: «لن أسمح بتشريد أبنائي مرةً أخرى، ستستقر حياتنا هنا». فأشار أبونا وخلق قرارًا بعد صمتٍ دام سنين: «نعود إلى الصعيد، سأتحدث مع أخي خطاب وسيلين قلبه إن شاء الله ويتركنا نعيش في بيت أبو حماقة».

تجاهلته أمنا باستهزاء، ثم جلست على أريكة، تقلب شيئًا في عقلها، وإبليس على وشك الإعلان عن نفسه،

ثم نظرت إلينا وقالت: «لا ينقصنا شيء سوى الحماية، سيقتلنا الناس إن أحسوا بأننا ضعفاء».ثم رمقت (حكّوم) ونطقت: «أنت حمايتي في الدنيا يا حكّوم، رحيلك يضعفني، لكنك سترحل للمرة الأخيرة، وتعود بالحماية».

لم نستطِع فك طلاسمها، لكنها استطردت: «عندما كان أبوك يا عبده يشعر بأن الناس ستغضب أو تثور ضده، يجمع الخفر ويخرج البلد بالبنادق ويسير في الشوارع يضرب في الهواء، فيخاف منه الكل ويغلقون أبوابهم وفي اليوم الثاني تطبق أفواههم». سكتت لثوانٍ ثم أردفت: «حتى عمكم خطاب عندما طردني أنا وهند من البيت دخل علينا بخفر يمسكون بنادق».

نظرت إلى السقف تعض شفتيها واستطردت: «وجمال عبد الناصر يعطي الناس بنادق». ثم صوبت نظرة ثاقبة نحو (حكّوم) وأردفت: «ستسافر بور سعيد يا حكّوم، وتعود ببندقية، ولن يقدر شخص على النظر إلينا بكره».

أي عبث هذا! الرجل يوزع على المواطنين الأسلحة للتصدي للأعداء، وأمنا تسعى لأن تمتلك واحدة لترتكب الجرائم، فتكلمنا: «البلد في حالة حرب، ألا ترين يا لبيبة أن الأفضل أن يساند بعضنا بعضًا ونكون يدًا واحدة، لا أن نتقاتل!» قامت من مكانها وصرخت في وجهنا: «اسكت يا مجنون، لا تتكلم مرةً أخرى، ولا تناديني لبيبة». فخفنا من لذع لسانها، واقتربت من (حكّوم) وضمته إلى صدرها: «ابني حبيبي، ربنا يحميك، ويخليك لأمك».

صعقنا، وكانت الكارثة الحقيقية أن عينَي (حكّوم) قد مالتا بضعف، فأيقنّا تلبيته لأمرها، وفي منتصف اليوم الثاني احتضن أمنا وقبلها ثم رحل، ألقت به في جهنم، وإن مات لن يكون شهيدًا، سيدخل جهنم بحق، وستفتته الحمم، ألقت بابنها في لظى تهلكه، وأطعمته الزقوم، وهيأنا أنفسنا لأننا على وشك خسارة أخ آخر بعد (يونس).

الرحلة عويصة، بكل أهوال ما عاشرته مع (حكّوم) في خمس سنين، حين انتزعني من إصبع (جاد الله أبو حماقة) علمت فيه الخسة والندالة، والقلب المتحجر، لكنني لم أتبين ما يحمله في نفسه، خرجنا من منفلوط مذحورين، وسلك (حكّوم) طريقًا للقاهرة مع أهله الظالمين، كما عهدت جده، ووصلنا إلى حي السيدة، ودار يعرف عن نفسه مع شباب الحي، حتى وقع ظله مع نازح من منطقة اسمها الخصوص، شاب يدعى (العربجي)، معاقر الحشيش والأفيون، ويطرق السرقة سبيلًا أينما ربض، وتخاللا مغا، وكان يتوافد عليه من وقتٍ لآخر ليتسامرا على سطح المنزل ويهاديه بزجاجة نبيذ فيسعد، ويدخنان الحشيش ويشربان الخمر ويغنيان للصبح، ويرحل (العربجي) تاركًا (حكّوم) غارقًا في خيال رسمه عقله الفاسد، ويفيق قابضًا على دماغه متألمًا، يدخن الشيشة ويمتص الأفيون.

و(العربجي) شرارة الخراب التي أحرقت (حكّوم)، فحضر ذات يوم ومعه بعض المسروقات، فتساءل الأخير عن طريق جمعه لتلك الغلة، وعلم أنه هجام، يتردد على شقق الناس فيمتص محتواها، وكان (حكّوم) يبصر ما في الأفق، وما ستؤول إليه أحوالهم، إذ إن (يونس) و(خباس) قد امتهنا مكر الثعالب على أمهما، ويمتصان ما في جيوبها من أموال، وسخط عليهما فرحل مع (العربجي)، يشقان الدنيا سارقين نعمها، فيحل (العربجي) رتاج الأبواب، ويلم (حكّوم) الثمين والنفيس، وإن تورط في معضلة، كأن يكشفهما صاحب المنزل، يسوق يديه الغليظتين اللتين تسببان أذى كالرصاص، ويضربه، ينكل به، حتى انتهى به الأمر بأن قتل رجلًا وزوجته، لأنهما فقط أبصرا وجهه، ولم يترك (حكّوم) بصمةً خلفهما، بل لفقا الأمر على أنه انتحار.

وعاش معه في بيته بالخصوص، ولم يحبهما الناس، خصوصًا بعد سرقة عم (سميع) المبتورة قدميه، ومات بعد علمه بأن ما يملك ليعينه على العيش هو وابنتيه وزوجته قد نهب.

وامتلك (العربجي) مسدسًا، سرقه من شخصٍ غني يسكن قصرًا ضخمًا، وفتن (حكّوم) به، وكان يأخذه ويخرج إلى الصحاري، يضرب على الزجاجات، يتعلم النشان حتى حذق الأمر، فباع (العربجي) المسدس، وذلك كان سببًا في ابتعاد (حكّوم) فترة زمنية عنه، فقد أصيب بخيبة أمل، ومن ثم عادا فتصالحا.

أقنعته (لبيبة) بأن نجاتهم في قعر الحرب ببور سعيد، بسرقة بندقية، فيحرسون أنفسهم من كلاب الشوارع، يلبي طلباتها ليس اقتناعًا، بل انصياعًا وحبًا لها، واختار الموت أيسر من جرحها بالرفض.

استقل سيارةً أنزلته بالقرب من الطريق الموصل إلى بور سعيد، وتجلى الطريق فارغًا، وقف متفقدًا فلم يبصر نملة تدخل، هناك حرب، ما الذي سيجبر شخصًا على السفر إلى هناك، فتقدم سيرًا، ومشى على الطريق شريدًا، والهواء البارد المحمل بالتراب يعبث بجسده، يرتدي بنطالًا وسترة جلدية وحذاءً أسود وأنا، سار ما يزيد على خمس وأربعين دقيقة، الطريق وعر عسر، حتى خبطت ظهره أنوار سيارة، فلف جسده ووقف مشيرًا ببلاهة، فلم تتوقف، تجاوزته بسرعةٍ مهولة، فسار نصف ساعة آخر وحده يقاسي وحشة الأجواء بشتاءٍ عاصف، حتى ظهر نور آخر، فرسخ أمامه يشير بجنون غير عابئ بموته، فالهواء يقتله ويهلكه، فدهس السائق المكابح باستعجال، ولهث الرجل من هول حادثةٍ كانت على وشك الوقوع، تقدم (حكّوم) فأبصر سائقًا خمسينيًا وبجانبه رجل يقربه في العمر وشابًا يجلس في الخلف، فتلفظ محاولًا الثبات في وحشة الجو: «بور سعيد الله يبارك لك». فرد الرجل بتلعثم: «أأنت مجنون؟ كدت أصدمك».

لم يتجاوب (حكّوم) وجاهد متحاشيًا الهواء المثلج، ففتح الرجل له الباب، ركب بإسراع، فهدأ صوت الرياح، وساد الصمت، تفقد (حكّوم) الأوجه وتصنع الابتسام، وطلع الرجل بالسيارة، رمقه في المرايا وقال: «من الذي يذهب برجليه إلى الحرب؟» فرد (حكّوم) مداعبًا: «أنت تذهب بالسيارة». فضحك الرجل وسعل، وقد تجاوز الخمسين، ثم قال: «ابني متزوج هناك، خفت عليه من الموت، فقررت إحضاره هو وزوجته، لم يمر على زواجهما شهرين». ساد السكوت ثوانٍ، ثم أردف الرجل مشيرًا بعينيه إلى الجالس بجانبه: «هذا أخي، والذي

بجانبك ابني». فابتسم (حكّوم) وتصافح معهما غير ناطق، وأخرج علبة سجائر، شد منها عدة وحدات ووزعها عليهم، فرد الرجل: «أشكرك، لا أدخن». فالتقط أخوه منه واحدة، وتجاهل الشاب متيقنًا أنه لا يدخن كأبيه، وإن كان، لا يصح أن يقلل من احترام الأب، أشعل (حكّوم) سيجارة الرجل ومن ثم سيجارته، وسحب نفسًا، فقال السائق: «لم تخبرني بالسبب». تنهد (حكّوم)، وصمت دقيقة، فاستطرد الرجل: «كما تشاء، ربنا معك، أنت مثل ابني، وأخاف عليك من الإنجليز والفرنسيين، كنت صغيرًا عندما قامت الحرب العالمية الأولى، وكان الإنجليز يجندون المصريين إجبارًا، ما يقارب مليونًا ونصف المليون، لم يرجع منهم إلا القليل الذي لا يذكر، كلهم ماتوا، فلا تتوقع خيرًا فيما أنت مقدم عليه، توكل على الله، إن كان لك أناس هناك خذهم وارجع، وإن كان هدفك محاربتهم، فليكن الله معك، وبأمر الله سننتصر وسيخرجون من مصر قريبًا». ظل (حكّوم) ساهمًا في اللا شيء، يفكر في خطرٍ محدق، وهدف عليه تجاوزه.

لف للشاب بجانبه، فبادله الابتسامة وتكلم: «تعجبني سترتك». فبش (حكّوم) وتفقد ملابس الشاب، بدلة رمادية وشعرًا طويلًا مسبسبًا، وملامح بريئة، وجسدًا أعجف، فقال: «سترتك أفضل، أفندي متعلم وسمح». فضحك الشاب وقال: «أنا حاصل على شهادة التوجيهية». فقاطعهما أبوه: «محمد ما شاء الله عليه مجتهد، سيكون وزيرًا في يومٍ من الأيام بإذن الله». فابتسم الكل براحةٍ ودعة، إلا أن (حكّوم) العبوس قبض على محياه.

وساد الوجوم طويلًا، ثم تبادلوا القليل من الحديث، وشعر (حكّوم) بدماثتهم وبدا مسروزًا لحسن ضيافتهم ومعرفتهم.

وانتهى الطريق، وصلوا إلى بور سعيد في غبشة الليل، طلب (حكّوم) النزول على باب البلدة، وحاول الرجل إقناعه بإيصاله إلى وجهته، لكنه رفض، ارتكنت السيارة، فترجل منها وأشار إليهم بابتسامة مصطنعة وشكرهم، ورحلوا بهدوء حتى أكلهم الظلام.

سار (حكّوم) في دجن الليل، يمتص لفافة تبغ متطلعًا إلى الفراغ، حتى تجلت بور سعيد، ويا ليتها ما ظهرت، أنقاض وخراب، الحرب قائمة منذ أسبوعين على أقل تقدير، جهنم تلوح في شموخ من كل صوب وحدب، ويا لها من مأساة يعيشها أهلها، الأرض خربة تنهشها القذائف وغضب الأعداء وفراغات الطلقات تفترشها، المنازل مهدمة وحجارتها ترسم طريقًا للهلاك، جحود ينهش مصر، وقهر يتملك أبناءها، أناس يتخفون في الشوارع خلف حوائط مائلة، أو بنايةٍ تبتلع ثلةً يخططون وقت الظهور، وأطفال مشردون يتكومون أرضًا بلا أهل، وهدوء كاسر على الموجودات، وأنوار منطفئة، فهبش الظلام البلدة وابتلعها، سار على الأنقاض يقفز متألمةً قدميه لا يرى ما أسفله، وبدا كأنه وحده في ساحة وغى أقفلت ودهست أعلامها، أعين تتفقده خلف المنازل وفي نوافذها بتحير، كأنهم يناشدون عقله على العمل بعد أن أكله الصدأ، فعلمت أن الويلات حولنا، ويبدو أن هناك حظر تجوال في البلدة، لكن مَن يرتديني على إصبعه صفته الشكيمة، ولا يخاف في الموت لومة لائم.

سار ولا يعرف وجهته، بعينين صقريتين نافذتين تكشفان كل شيء، علم ما خلف الأبواب، ومن يتخفون ويهرعون، ومن هم غاضبون، ومن يراقبون الشوارع فيتفقدونه متعجبين، فعرف أنه في خطر موارب، إذ إن وجوده في الطرقات وحده من الممكن أن يتسبب في قتله، فآثار الحرب تخربش معالم البلدة، ولا فرار منها، فتنبه بحذر، ولام نفسه على استهتاره، وبدأ في التخفي من منزلٍ لآخر، وشق الأزقة يستكشف ما فيها، وجهته بندقية، ويبدو أن الجيش قد انتهى من توزيع الأسلحة، واشتعل الاشتباك بين جهتين، الجيش والشرطة والمقاومة الشعبية، تقابلهما بريطانيا وفرنسا، وملك الموت يبيت في المدينة يتفقد الأرواح ويقبضها بلا هوادة، ولذلك تأهب لأي شر يطوله، يتحرك مدققًا في المنازل، يفكر المجنون، أينوي السرقة، أم إنه سيسلب أحدهم سلاحه ويهرب، وإن لم يقدر في ذلك الظلام المميت والهدوء القبيح، أسيعود خالي الوفاض؟

مشى حتى دهس أرضًا خربة، أنقاضًا باقية من بناية هدمتها القذائف، وعلا صوت خطواتٍ تدق حوله،

تخفّى خلف جدار قائم بذاته لا يدعمه شيء، وتلصص على شخص يقترب منه، يبدو أنه فرنسي، يحمل بندقية ويرتدي ملابس عسكرية تتوج برتبة ضابط، ويحوم مستكشفًا المكان، ينبش عن موته أو ملاقاة مصري لقتله، أو أنه ضل كتيبته، وقف خلف الجدار الناحية الأخرى يفك حصره وسند البندقية إليه، ذلك بعد أن تأكد من خلو المكان، فتسمر (حكّوم)، الجدار يفصلهما أحدهما عن الآخر، وصوت البول يستفز مشاعره، سند ظهره ينظر إلى السماء، تلك فرصته، إن كان سيحصل على البندقية بتلك الطريقة، أن يقتل ليمتلكها، ولا عتاب على قتل مغتصب أرضه، لحظات مرت أخرج فيها (حكّوم) لحسة أفيون ومصها، يخدر جسده، أقفل عينيه كأنه يغيب، فانتهى الفرنسي من تفريغ مثانته، ثم عدل من بنطاله، ورفع البندقية،، تنفس (حكّوم) ببطء، دق قلبه بسرعة الصاروخ، تصلني وتهزني، غادر الفرنسي، وشارف على الرحيل، فكشف (حكّوم) عن نفسه من خلف الجدار على حين غرة، وهجم كالذئب الثائر، سمع الفرنسي الخطوات خلفه، فلف جسده مهرولًا وضرب رصاصةٌ عشوائية استقرت في عضد (حكّوم) الأيسر، فصرخ بصوتٍ وصل إلى الخصوص، لكنه لم يتقهقر، وألقى بجسده كله على الفرنسي الذي سقط أرضًا من هول الهجمة وحلقت البندقية بعيدًا، اقتحم جسمه ونكل به، لكمه في وجهه عدة لكمات، تلقاها الضابط بتألمٍ وصراخ، فجن جنونه ودفع (حكّوم) بقوته كلها لينقشع عنه، فاستغل وقته في سحب سكين من حذائه، وغرزه في فخذ (حكّوم) الأيسر، الذي صاح بقوة عشرة رختر، وهز الموجودات حوله، لوح الفرنسي بالسكين بطيش ففرج جرحًا آخر في كتف (حكّوم) اليمنى، صخب متألمًا، وقبض على السكين بيده اليمنى، غزا الأفيون جسده يخدره، ورغم تألمه فإنه لم يأبه.

كشر (حكّوم) عن أنيابه وبرك فوق الفرنسي بوجهٍ كظيم، فلفحه الأخير بعدة لكمات في أسنانه لتتلون حمراء إثر الدماء، لم يأبه (حكّوم) لجراحه، صدمه بجبهته في أنفه خبطتين، حطمت وتفصدت بالدماء لتغطي وجهه، ففابت عيناه، سحب السكين منه، وقد نالت أصابعه جراحًا غائرة، ثم لف السكين، وطعنه في جانبه طعنةً نجلاء طالت الكلى، أصدر الفرنسي أنات، فتحامل (حكّوم) على ركبتيه وزحف لاهثًا، ينهج كجاموس مذبوح، حتى وصل إلى البندقية، صك على أسنانه، ورفعها، وتحامل عليها بكلفة حتى وثب على قدميه، ثم لف جسمه وصوب البندقية إلى رأس الفرنسي، وضغط الزناد، ليصرخ الفضاء بدوي الرصاصة، واستقرت في دماغ الفرنسي وهشمته.

وقف (حكّوم) ينهج ورئتاه تعنفانه، حدق إلى رأس الفرنسي وعقله يحاوط دماغه فتاتًا متناثرة، والدماء تنزف كمياه جارية. مال بجسده للسكين والتقطها وأضمرها في جانبه، ثم دس يديه في جيوب ملابس الجثة، أخرج شارة التعريف فألقاها، وسحب ورقة فوجدها صورة المقتول ومعه امرأة شقراء نحيلة حسناء تحمل طفلًا يشبهها ويضحكان بمرح أمام شاطئ بحري، فقطعها (حكّوم) ونثر ورقها. استطرد سرقته، فعثر على مسدس، لمعت عيناه ودسه في جيب بنطاله، وقبض على طلقات نارية للمسدس والبندقية، ابتسم بدهاء ودفسها في ملابسه. قلب في البقية فوجد بعض الأموال، سلبها، آلمه جسده فتأوه بصوتٍ خفيض واعتدل. سلط عينيه على البندقية في يده ومن ثم لمس المسدس، فأدرك أنه قد حصل على مبتغاه وعلاوةٍ في خطواته الأولى داخل المدينة. ابتسم رغم تدمير جسده، لكنه لم يسعد بإنجازه ثوانٍ؛ إذ إن ثلةً من الجنود المغتصبين جذبهم صوت الانفجار، وبغتةً، تطاير الرصاص نحو (حكّوم) قاصدًا قتله، فلم يجد مفرًا سوى الركض والهرب بدماءٍ تنقط، فانطلقوا خلفه كالأسود الذين عثروا على فريستهم.

***

اغترب (حكّوم)، وانتظرته أمنا متيقنةً إيابه، لكننا شككنا؛ إذ إن مفجعات الحرب وويلاتها لا يسلم منها عاتٍ، وقد رمته في عمق الخراب، ونيته معصية، ويا لعقابه.

ترغمنا أمنا على الأكل معهم، لكننا نحتج، ونغادر نسعى في طرقات الغيب، نمضغ الأحزان، لا يعطف علينا أحد، ولا يعاملوننا بتحنن، فنتحاشاهم، وقررنا العيش وحدنا، نصلي ونتعبد، نصوم كل يوم، ونفطر على ثمرةٍ عثرنا عليها ملقاة بالطرقات، أو نجبر على أخذ واحدة من البيت، بعد زعيق أمنا المتواصل، وتنزل في جوفنا

كنيران سقر، نربط على بطننا بحزام قماشي، ونبغى لو يتوبون، وقد فكرنا في الرحيل عنهم، لكن فاجعة (يونس) ما زالت حامية في القلوب، ولا نتوق إلى ضرب جرحٍ قديم بسكين، فنكون سببًا في موت والدينا حزنًا، فقررنا المكوث، ونحلق مع الرياح، فنروح ونجلس أمام الترعة، نذكر الله بصوتٍ جهوري. يرمقنا الناس بتأفف، ويظنون بأن عقلنا به لوثة، فنتبسم لهم، ويبادلانا حنقًا، فنغمض أعيننا ونسبح، ويطوح عيالهم علينا حجارة، ويضربوننا كلما مشينا في الطرقات، ويعدون خلفنا، يصيبوننا، فتنزف دماؤنا من جسدنا، ونخضب بجراحٍ وخمش، ونعود إلى البيت، فتصرخ أمنا، وتداوي جراحنا، وتسألنا عن الفاعل فلا نجيب، وتجبرنا على عدم الخروج من المنزل، فنهرب، ونتسطح في قلب الأراضي الزراعية ليلًا، نبصر النجوم والقمر، يضحك قلبنا ونبش، نتفقد الله بأعيننا الضئيلة، فلا نراه، لكنه يرانا، فنذكر اسمه بتبسم، ونقرأ قرآنًا بصوتٍ عذب وقوي يصل إلى مسامع الناس في بيوتهم، فيخرجون ويتوجهون إلى الغيط، يظنون بأننا جن، ويكشفوننا، فيضربوننا، ويركضون خلفنا يقذفون علينا الحجارة، فنصاب ونصرخ، ومن ثم نجفل، نجلس وحيدين، نبكي، نتذلل إلى الله، ونغطس وجوهنا بين ركبتينا، ويغلبنا النعاس، فننام. نصبح في يومٍ جديد، يضربنا صاحب الأرض بخيزران، فنفر ونمضي بخزي. نعود إلى البيت، فتصرخ أمنا في وجوهنا، وتأخذنا وتمشي في الشارع تشتم الناس وتسبهم، وتسأل عن الذي ضربنا، وتستعلم منا، فنصمت.. نرجع إلى منزلنا، تعنفنا وتنعتنا بالضعيف عديم القيمة، وأحيانًا تضربنا، نتكوم على الأرض، ونغيب فننام.

كانت هناك شجرة جميز باسقة على طرف الترعة المقابلة للمساكن، نهرع إليها، ونتسلقها.. ننام عليها، ونمدح سيدنا النبي -صلوات ربي عليه- بصوتٍ عاصف يصل إلى مسامع الكل، حتى أمنا: «يا سيدنا اشتقنا، لقاؤك غاب، وقلبي يذوب، في نورك ووجهك، جميلٌ أنت، وكلك نور، حنانك يفيض، ينبت زهورًا، يا غالي علينا وكلك طيبة، أشتاق إليك وكلي حيرة، أستكون شفيعًا، أم أكون عاصيًا لا غافر لي، وأنت حبيبي والله أحبك، فكن لي شفيعًا وكن لي محبوبًا، فيا من صلى عليه وسلم، خذ بيدي وأرشدني إلى السلم».

وفي مدحنا له، نهاجم بحجارةٍ فتصيب دماغنا، ينفتح جرحًا فننتحب تألمًا، يصوبون علينا ونشانهم لا يخيب، نتخفى بين الغصون، ونبكي وندعو الله أن يرحمنا من بطش الغائبين، دقائق ويرحلون، ننطرح على الشجرة، ويطلع الصبح، تشرق الشمس وتداعب أعيننا، فنفيق متبسمين رغم الدماء علينا، ونرفض العودة، فإن رأتنا أمنا ستقتلنا، وستزفنا في المنطقة كلها فيقتنع الناس بأننا معتوه، فقررنا الاستيطان مكاننا.

ولخوفنا من السرقة؛ تقصينا المنطقة نعرف صاحب شجرة الجميز، لكن لا أحد يجيبنا، ما إن نقترب حتى نحقر ونهان ونهاجم فنلوذ بالفرار، وعلمنا من عيلٍ أنها شجرة قديمة عريقة زُرعت منذ قرون، ولم يتبقَّ من صاحبها شيء في الدنيا، فاقتتنا من ثمارها واستمرأناها، وصنعنا من غصونها فراشًا لنا، فتكون مسكنًا ومأكلًا، فالحرام إن كان ليئًا يقطع جلدنا، والغصون حلال إن خشنت، تكون سكينة لظهرنا، ونشرب من مضخة ماءٍ بأي أرضٍ زراعية.

فات يومان على هجرة (حكّوم)، ولم يعد، ولم ننتظر، ولا نتوق لرؤيته، ولا نأبه، فكرنا في الرحيل إلى حي السيدة، لكننا خفنا العاقبة، ونحاول التأقلم مع سواد حياتنا، وننتظر رحيلنا إلى آخرةٍ نلقى فيها الله فنضحك بقلبٍ ناصع بالراحة والطمأنينة، ويا له من لقاء سيمحو كل ما قاسيناه.

الليل قد حط علينا، قعدنا على شجرة الجميز صامتين لا نصدر نأمة، نتمتع بنسيم الهواء رغم برودته، ونحك أيادينا بجسدنا نولد حرارةً تحمينا من الصقيع، فنفشل.. وشجرة الجميز لا تحمينا، لكننا نرضى بما قُسم لنا، فنحن في مكانٍ أفضل من بيت أمنا وأكل الحرام، والتقطنا أنفاسًا محملة بأكسجين نقيٍ تصدره زروع الأراضي حولنا، وأغمضنا أعيننا بأناة، وتوسطنا غصون الشجرة وضممنا جسدنا بوضع الجنين لننام مرتاحين، لكننا سمعنا صوت خطوات تدهس غثاءً، فقبض قلبنا؛ إذ إننا لا نتحمل هجماتهم المهلكة، ونحن لم نقرأ قرآنًا أو نمدح سيدنا النبي -صلوات ربي عليه-، لم نزعجهم بصوتنا، فلماذا يحضرون!

قعدنا فزعين، وبصصنا نحو الصوت، ويا ليتنا أصبنا بالعمى؛ فما نراه أمامنا شيءٌ مخزٍ، (خباس) يسحب

٢٧٠٥٢٩٩٢٢٠

امرأة منيفة في يده ويتجه إلى الشجرة، وظل يتقدم حتى وصل إلى أسفلنا، وأسندها إلى جزع الشجرة وقبلها، ثم انتزع ملابسها، ينجس المكان الذي نسبح ونحمد فيه الله فنقدسه، والست مغيبة تغمض عينيها ويعبث هو في جسدها، مستمتعة برزيلتها، وكاد يخلع ما ترتديه كله، فتظهر عارية، ففضضنا بصرنا، وأغمضنا أعيننا، وتحركنا حثيثًا إلى الخلف، فطرقع الغصن أسفلنا، فرقنا جفنينا، لنصعق من نظرات (خباس) الثاقبة، لم تتبدل قسمات وجهنا، وأبصرتنا المرأة معه، فصاحت بصوتٍ خفيض: «يا مصيبتي». لملمت ملابسها وارتدتها بعجلةٍ وهربت، في حين أن (خباس) ظل مثبتًا عينيه علينا، فتحاشيناه وأغمضنا ورددنا: «سبحان الله سبحان الله». ظللنا على الحالة بضع دقائق، ثم فتحنا أعيننا، فشاهدناه يمشي بعيدًا ويلتفت كل وهلة إلينا ثم يعود إلى طريقه، كأنه يوصل إلينا رسالةً مبطنة إن أخبرنا أحدًا، ونسي أن سمعته كانت مدنسةً في حي السيدة، وها هو يلوح بنفس الذيل المعوج.

***

الأرض تتلوى أسفلنا، ويعدو (حكّوم) لنجدة نفسه من الموت الغاضب خلفه. تنسل الدماء من جراح فخذه وذراعيه، ولم يعرج رغم إصابته، استلهم قوةً من السماء قادته إلى الهرب، والرصاصات تمر من جانبه وتستقر في جدران المنازل أو تختفي دون وجهة، الطريق مفتوح أمامه، ما صنع منه فريسةً سهلة، يهرولون خلفه ويضربون ببنادقهم دون توقف، ويتلفظون بكلمات أجنبية وفرنسية، ويتلفت هو باصرًا إياهم وقدماه تنطلقان كالرياح، ولج زقاقًا ضيقًا حتى يعوق نظرهم، لحقوه، فاقتحم بناية وأقفل بابها الحديدي خلفه، فطرقع الحديد برصاصةٍ خبطته، فتقهقهر مذعورًا وصعد الدرج، داهموا البناية ورصاصهم أنهار، فبادلهم النيران وتصدى لهم، أصوات الناس في المنازل تصرخ، والجنود يصوبون عليه تارة، ويضربون أبواب المنازل تارةً أخرى قاصدين قتل مَن يسكنونها، كاد يصيب أحدهم، فتعاملوا باحترافيةٍ أعلى، واصطفوا في نظام صاعدين السلم. وصل (حكّوم) إلى سطح البناية، دفع بابها وخش، دار مستكشفًا فلم يجد منفذًا، تفقد رصاص البندقية، بقي القليل، فعلقها بكتفه، وأخرج المسدس محشوًا على آخره، وضرب طلقتين جهة الباب لكسب بعض الوقت، وأسرع لحافة الأسوار. ملأ عينيه بالشارع، فقلب جسده وبص من سورٍ آخر، فرأى بنايةً أقصر طولًا، تسلق السور وقفز إليها، وقع أرضًا وآلمته فخذه، وارتعد من الدماء النازفة، وتفقد عضده الذي تلطخ بالأحمر، أخرج السكين وقطع طرف بنطاله وربط فخذه وعضده في ثوانٍ، فتجلى الجنود أمامه، وما إن كشفوه أطلقوا رصاصهم، فقفز إلى باب السلم وسلكه.

نزل عليه حذرًا، يطرق أبواب الشقق طالبًا العون من ساكنيها، لم يستجب أحدٌ، وسمع أصوات الجنود على السلم فوقه، فنزل مهرولًا حتى وصل إلى الشارع، تبعوه وخرجوا من البناية فرأوه، أطلقوا الرصاص نحوه، ركض بكل قوته، وكل برهةٍ يمد يده للخلف ويضرب طلقة من المسدس، ويبدو أنه ميت لا محالة، كادت رصاصة تطوله، الفارق بينه وبينهما لا يزيد على مائة وخمسين مترًا، الظلام سيد ما شق عليهم إصابته، يتلفت يمنةً ويسرة، يبحث عن منفذ، ولهاثه لا يتوقف. سلك طريقًا يمينًا، ثم شمالًا، ثم دخل بناية، فتبعوه وانتشروا في المكان حوله، تفقدوا كل شبر بأعينهم ككلاب الصيد، وقد أوشكوا القبض على الفريسة.

في أثناء التفتيش، لاحظه جندي فدلف خلفه البناية، أدرك (حكّوم) أنه على مشارف السقوط، فضرب باب شقةٍ في الدور الأول بقدمه الصحيحة، انفرج على آخره، نفذ، فصرخت سيدةٌ بالداخل، سلط المسدس عليها فسكتت، رد الباب ببطء فلم يقفل بسبب كسره، تلفت حوله فلم يجد مخرجًا، سمع صوت الجندي يطلع على السلم، وبندقيته تصدر صريرًا مزعجًا يبث الموت في أذنيه، يسحبها خلفه وتحك بالأرض، توقفت خطواته أمام باب الشقة، لحظات مرت، ثم رفع البندقية ودفع الباب فانفتح، وكان (حكّوم) يقف مستعدًا خلفه، وما إن أبصر الجندي حتى ضرب ثلاث طلقات، استقرت اثنتان في صدره وواحدة في وجهه، فصرخت السيدة بصوتٍ مهول آلم أذنيه، فقفز دون تفكير من نافذة الشقة، يعلم أنهم سيتبعون صوت الرصاص، فلا قيمة لعويلها. صعدوا السلم وهبط هو بجسده أرضًا في الشارع، تأوه ووثب قائمًا وفر. ولما سمعوا صوت الارتطام، تفرقوا، تبعه ثلاثة، صاحوا بصوتٍ عالٍ عند رؤيته تنبيهًا للبقية، فانضموا إليهم، وتبادلوا مع (حكّوم) الطلقات، الذي

تشتت دون وجهةٍ يسلكها، دهس الأنقاض والبنايات المهدمة، اقتحم عمارةً مهجورة، ومن ثم تركها، واقتحم أخرى، وفزع الناس في منازلهم، وظل أكثر من ربع ساعةٍ يتنقل في البلدة محدثًا دويًا وفوضى، حتى سلك زقاقًا حالكًا.. وقف عند جدار ومال بجسده يحاول التقاط أنفاسه وإعادة روحه إلى مخدعها، وتهدئة قلبه المرتعش، وما إن اعتدل، حتى شدت جسده أربع أيادٍ لشخصين، حملق فيهما مسلطًا سلاحه في وجهيهما، فتفوه أحدهما سريعًا: «شششش، نحاول مساعدتك»، فصمت، وجرّاه إلى الخلف، فأكلهم الظلام، وسلكوا درجًا أنزلهم إلى أسفل، بدروم مخفي عن الأعين. أغلق الباب خلفه، واعتادت عيناه السواد، فكشفت بعض الظلالات، فعلم أن الغرفة بها ثمانية أشخاص، أشعل أحدهم عود ثقاب ليحرق رأس سيجارته، فبانت في ثوانٍ ملابسهم، ثلاثةٌ يرتدون ملابس جيش، واثنان شرطة، والثلاثة الآخرون مدنيون، حدق إليه الكل بتوجس، وتفقدهم هو بريبة.

***

عشرة أيام كاملة ولم يظهر (حكّوم)، ولا نعرف إن كانت أمنا ما زالت تنتظر عودته أم تيقنت من موته، ولم نقابل (خباس) بعد تلك الواقعة الخسيسة. وإن نزلنا من على شجرة الجميز، يكون فقط لنشرب، وننام عليها نتتبع حركات النجوم، ونصلي على غصونها، ونترنم بصوتٍ خفيض، ونتحدث مع العصافير والغربان والحمام والبوم، وأبو قردان يتمسخر علينا وهو ينتشل الدود من الأراضي الزراعية، يراقبنا بعينيه ويتحرك ببطء بسيقانه الطويلة، وتحاوطنا الفراشات، والنحل يلف فيمتص رحيق الورد، وحمير المزارعين تنهق، ويمر الناس أسفلنا ينظرون إلينا بسخط، يسبوننا، فنرد: «الله يسامحكم».

تبحث عنا أمنا، فلا يخبرها أحدٌ عن مكاننا، يتحاشونها كأنها جرباء، ونسعد لصعوبة عثورها علينا، نصوم ونصلي ونأكل جميزًا، نفرح ونسعد ونرقص ونمدح سيدنا النبي -اللهم صل عليه-ونطلب العون والمدد من صاحب المدد خالقنا وخالق الكون، ولا نكره أحدًا، نعيش براحةٍ وسكون، ورغم أن العيال يزورونا كل برهةٍ يقذفوننا بالحجارة يتدربون على النشان، لكننا تعلمنا طريقةً للدفاع بغصون شجرة الجميز ونطلب منها السماح، فوالله ما نبغي أذيتها، وندعو الله أن يصلح حال أهلنا، وحال ساكني منطقة الخصوص؛ فالشيطان عشش في جحورهم، يكفي أنهم لم يبنوا بيتًا واحدًا لله، ومن يصلي فيهم يؤديها منفردًا، ولا يسعى لكسب الدرجات السبع والعشرين الخاصة بصلاة الجماعة، والله أول مرةٍ نزور مكانًا لا يسكنه جامع واحد.

وصادفنا أبانا يمر من الغيط، وتعلقت أعيننا به، فقدم نحونا، ومثل أسفل الشجرة، ينظر إلينا مبتسمًا، شعرنا بالراحة تغزو قسمات وجهه، وبدا كأنه يحسدنا على ابتعادنا، وسكينتنا وعيشتنا في رحاب الله.. نزلنا من على الشجرة، وقفنا أمامه، فارتمى في أحضاننا، وبكى، يحمل أعباءً على صدره وضعف، تنغصت عيشته، انتحب بحرقة، ثم باعد جسده عنا، وأشار بيديه: «لا أعلم كيف أنجبت هؤلاء، لكنني أستريح عندما أنظر إليك وأنت ابني، أنا أحبك». ثم ربت على كتفنا، فقشعر جسدنا وسقطت دمعة من أعيننا على ما يقاسيه، لم تكتمل لحظتنا؛ إذ إننا انتزعنا وسرق انتباهنا صوت هرجٍ ومرج غزا المنطقة السكنية، سلطنا ناظرينا على ما يدور، فأبصرنا الناس جميعًا يهرعون راكضين، فانطلقنا نحن وأبونا فزعين، وتساءلنا: أقامت الساعة؟ أم إن علامةً كبرى قد ظهرت؟ وصلنا لنكشف ما يحصل، الناس يلفون دائرةً حول شخص مقيد، نحيناهم لنرى، فصعقنا، (خباس) ملقى أرضًا، مربوط من قدميه ويديه، وخُلعت ملابسه كلها إلا الداخلية كي تستر عورته، والدماء تلون جسده، كأنه تعرض لبأس، وما إن شاهدنا الناس، حتى طقت أعينهم بالأذى.

***

خبطات أحذية الإنجليز والفرنسيين تصدع الممرات والشوارع بالخارج، وصمتٌ بغيض يقبض على نفس (حكّوم) بالداخل، في بدروم تكؤم فيه ثمانيةٌ لا يعلم عنهم أي شيء، لكنه استكان لمساعدتهم. انقضت دقائق، حتى رحلوا عن المنطقة، التقط الجميع أنفاسه، تقدم ضابط جيش برتابة، وأشعل مصباح جاز، فانجلت النظرات لـ(حكّوم) مريبة تقفقف الأبدان، مشى الضابط وسحب حقيبة إسعافٍ، وشد شخص مدني يد (حكّوم)

وأجلسه على صفيحةٍ صدئة دون تفوه. أمسك ضابط شرطة بالبندقية من على كتفه ينتزعها، فلمحه (حكّوم) بامتعاض، ربت عليه وطمأنه: «إن كنا نسعى لأذيتك، ما ساعدناك». فأرخى كتفه، انتزع الضابط البندقية والمسدس والسكين، وركنها بجانب أسلحةٍ أخرى يمتلكونها، ذخائر لا حصر لها، وبنادق ومتفجرات. لمعت عينا (حكّوم) وتاه.

أوضح الضابط جراح (حكّوم)، يبدو أنه طبيب في الجيش، سكب محلولًا على فخذه، انتزع الأخير من سرحانه، وكز ضروسه مصدرًا خنفرةً وصراخًا مكتومًا، ثم ضمد الضابط الجرح، وانتقل إلى جرح كتفه وأصابعه، وقام بالمثل، ثم كشف عن عضده، ونظر إليه باستياء، وناوله قطعة قماش قائلًا: «عضها بأسنانك، واحذر إصدار أي صوت».

دفسها (حكّوم) بين فكيه وهز رأسه بهدوء، أشعل الطبيب نارًا، وغرز فيها سكينًا؛ إذ إن المعدات لم تسعفه، و(حكّوم) يحدق إليها برهبة، زادت احمرارًا حتى توهجت. أشار الضابط إلى الماثلين، فانقضوا على (حكّوم) وطوقوه إلا واحد لم يتحرك، فرد شخص ذراعه، فلم يجاهد، وسكب الطبيب المحلول، ثم رفع السكين، وغرزها في لحمه، ليصرخ بصوتٍ داخلي مخبوء هز كيانه، ومضغ القماشة بأسنانه، حتى نطر الطبيب الرصاصة بعيدًا، وسكب محلولًا آخر على الجرح، وأحكم ربطه.

نضح العرق على جبهة (حكّوم) رغم برودة الجو، ويبدو أن الكل توقع إغماءه، لكنه ظل جاحظ العينين ينهج لاهثًا، يلتقط أنفاسًا سريعة، حتى هدأ واستكان. بصق القماشة، وزحزح الصفيحة للوراء، أراح جسده على جدار، وشخص ببصره، فأغمض عينيه دقائق، ثم فتحهما بإعياء، والكل يحملق فيه، وهدأت الأجواء المشدودة، فقال أحدهم، ويبدو أنه قائدهم -الذي لم يتحرك- «من أي بلد؟ لكنتك ليست كأهالي بور سعيد».

التقط (حكّوم) نفسًا سحيقًا ونظر بعينين كليلتين، ورد بعناء: «من الصعيد». أخرج الرجل سيجارة من جيبه، أشعلها وأعطاها لـ(حكّوم) فالتقطها بين أصابعه كأنها بناية، رفعها بمشقة، قبضت عليها شفتاه، وسحب نفسًا، فأشعل الرجل واحدةً أخرى متلفظًا: «وما الذي أتى بك إلى هنا؟» انطبق فم (حكّوم)، تظاهر بالتعب، لكنه كان يفكر في خلق أي كذبة، فأنا أحفظه، دقيقة مرت يرنو إليه الضابط بترقب، حتى نطق: «لأدافع عن وطني». الأكيد أنه سمع تلك الجملة في الراديو، ذلك الحرامي المعتوه الذي لا يفقه شيئًا إلا الإجرام، لن يُخرج لسانه كلمات كتلك. صمت الضابط وجاس كالبندول في البدروم الضيق، ثم قال: «من أين حصلت على البندقية؟» تأملها (حكّوم) بعينين مرتابتين، وكالعادة سكت، تنفس من السيجارة دخانًا زائدًا وقال: «قتلت ضابطًا أجنبيًا وأخذتها منه».

تقدم الضابط وعبث في البندقية، ثم المسدس والسكين، ونظر إليه متعجبًا: «الأسلحة كلها فرنسية». ثم سأل: «وقتلته بيديك العاريتين دون سلاح؟» ابتسم (حكّوم) وقد علم أنه أثار إعجابه، فقال: «ربنا المعين». وتفقد بعينيه نفسه الملطخة بالجروح باستهزاء، فترك الضابط الأسلحة مبتسمًا، واقترب من (حكّوم) وتفوه: «ما اسمك؟» تردد (حكّوم) وتلعثم، ظلت الأعين معلقةً به، فرد: «بيومي». ولا أعلم من (بيومي) هذا، وساد صمت كريه.

تحرك الضابط حثيثًا طرف كوة، فتحها ببطء، تنفس هواءً دخيلًا، ونحى المعلب عنه وبدا كأنه يفكر، ثم أغلق الكوة حتى لا ينكشف أمرهم، ولف ناظرًا إلى (حكّوم) قائلًا: «تنزل معنا؟» لم ينطق (حكّوم)، فاستطرد الضابط: «لدينا طلعةٌ أخرى». واقترب منه، نظر إليه بعينٍ ثاقبة: «طلعة صيد». فقال (حكّوم): «لا أفهم». فابتسم الضابط وهمس: «سنصطاد عيشًا فرنسيًا وإنجليزيًا». تنهد (حكّوم)، فأردف الضابط: «لن يحميك أحد، من الممكن أن تتعرض للإنقاذ إن كان هذا لن يعطلنا عن أهدافنا، أنت مسؤول عن نفسك، فقط ستكون حركاتك منظمةً أكثر من العشوائية المفرطة التي كنت فيها، وكل شيء يسير حسب خطة».

لم يرد عليه، فتفقده الضابط كأنه يقرأ تعابيره، لكن (حكّوم) حرك مقلتيه إلى كومة الأسلحة، كأنه يسترق النظر إليها، وظهرت ابتسامةٌ خبيثةٌ على شفتيه، ثم نظر إلى الضابط وقال: «معكم».

تقدم الضابط ورسخ بجانبه، كشف الواقفين في الغرفة متنقلًا بينهم بعينيه قائلًا: «إخوتك الذين أمامك هم محمود سميح، وخالد أبو سريع، وهنداوي خلف، وسعيد الشربجي، وسفاجة إبراهيم، وسمير أبو المجد، والسيد عسران، وأنا الملازم إبراهيم الطناحي».

سحب صندوقًا محملًا بالقنابل اليدوية، فتحه أمامه، ودقق في بؤرتي عينيه قائلًا: «الصيد القادم ثمين».

صعق (حكوم) من هول ما رآه، وعلم أن القادم هلاك، لكنه رغمًا عنه بشَّ والصندوق يلمع أمامه، فظهر وجهه غير مفهوم، مذعورًا ومسرورًا في آنٍ واحد.

***

أعينهم تنضح بالاشمئزاز، ما إن وصلنا إلى التجمهر وأبصرنا (خباس) وقد تشقق جسده من الضرب، زعق أحدهم مشيرًا إلى أبينا: «هذا أبوه». تكأكأ أبونا إلى الخلف غير مدرك، ولا نعرف ما وقع، فحزق الجميع به وكتفوه، فصرخ بكلماتٍ غير مفهومة. قدم شاب مفتول وصفعه على وجهه قائلًا: «اسكت». ثم لف عينيه وثبتهما على عجوزٍ طاعنٍ في السن يتكئ على منسأة، وقال: «حكمك يا حاج». صمت الكهل ولم يتكلم، فلف الشاب جسده لامرأةٍ تغرقها الدموع وتغتصب محياها ملامح الذل، حتى تثني وجهها، وما إن أبصرناها حتى تذكرناها، إنها امرأة الشجرة، التي كان يعبث بجسدها (خباس) وكشفناهما، فانبلج الأمر لنا، لكننا لم نفهمه كليًا. وقال الشاب: «حكمك يا ست». لم تتفوه السيدة، فرفع أحدهم عقيرته: «نلقيهم في الترعة».

أيريدون قتل أبينا وأخينا بجانب مقر راحتنا؟ والله إنكم لفاسقون.فنطق آخر: «وهي، ماذا ستعملون معها». ردت بصوتٍ مكلوم: «مظلومة، والله مظلومة». فافتتح العجوز شدقه وتكلم، ويبدو أنه أبوها: «هو من تهجم عليها، ودليل على هذا عندما رآني كاد يقفز من النافذة، إنهم حرامية أولاد حرامية، هجامو شقق وبيوت». رد أشيبٌ من الواقفين: «ليس دليلًا على أن ابنتك بريئة». فقال الرجل مشيرًا إلى نفسه: «أتظنون بي سوءًا وتصدقون هؤلاء؟» اعترض الأشيب: «نعرف أخلاقك، ونعرف أنهم أولاد كلب، وعلينا أن نربيهم، لكننا نتحرى الدقة». فقال العجوز متفحصًا أوجه الجميع: «والله يا ناس ابنتي مظلومة». وانحازت ابنته منتحبة: «كنت أعلق ملابسي بعد غسلها، فهجم عليّ من النافذة وحاول اغتصابي». خرج صوت (خباس) مبحوحًا مكسورًا محاولًا إغاثة نفسه: «والغيط؟ أكان اغتصابًا أيضًا؟» صرخت بصوتٍ منتحب: «منك لله، حسبي الله ونعم الوكيل». كاد يتكلم لولا أن أحدهم صفعه على فمه فخرس.

يبدو أنه اتفق معها على زيارتها في البيت، وأبوها رآه فجمع أهل المنطقة، الذين لم يسمعوا منه كلمة، وأهلكوا جسده، وها هي تبيعه في سوق الرقيق بأبخس الأثمان؛ ذلك لأنه آمن لمن تفرط في جسدها دون خشية.

قررنا الدفاع عن أخينا، حتى لو النتيجة وخيمة، فرغم أنه ساقط، شهواني، زانٍ، سفيه، فإنه أخونا، وهؤلاء القوم ظالمون. فتحدثنا: «أهناك أربعة شهود؟» نظر إلينا الجميع شزرًا، وصخب أحدهم: «من أذن لك بالكلام؟» فرددنا: «حتى لا تكونوا ظالمين، فلتسمعوا لصوتٍ يرشدكم». ضحك الكل وتندروا علينا: «وأنت يا عبيط من سترشدنا إلى القرار الصائب؟» تبسمنا وتحدثنا بكياسة: «يضع الله حكمته فيمن يشاء، والله ما أردت فيكم إلا خيرًا». صدمنا شاب متعصب في كتفنا وجلجل: «اسكت حتى لا نكتفك مثله». لم نلاحق على الحديث، فقد نطق الأشيب: «والله يا بني لا أرى فيكم أي خير، وإن كنتم أناسًا صادقين لما عهدنا فيكم السرقة وآخرًا الخسة والتهجم على بنات الناس». تقدمنا خطوات حتى توسطناهم، وتطلع إلينا الكل نلف في دوائر وقلنا: «ومن منكم فيه خيرٌ؟» تجهمت وجوههم، لكننا لم نأبه، وكانت نيتنا تمزيق ريائهم وظنونهم بأن فيهم نافعًا، لكننا قررنا اقتضاب حديثنا وتسويف أهدافنا ودافعنا عن (خباس)، فنظرنا إلى العجوز والد البنت ونطقنا: «قلت يا حاج إنك دخلت على خباس في غرفة ابنتك، وما إن رآك حتى كاد يقفز من النافذة؟» لم يرد الرجل، فاستطردنا ناظرين إلى ابنته: «لماذا لم تصرخي حين هجم عليكِ؟ أكنتِ تنتظرين قدوم أبيكِ؟ لمَ سكتِ؟».

خرج صوتها عاليًا متلعثمًا غاضبًا حتى تداخلت الحروف معًا بسخط ولم يفهم أحدٌ كلمة، فانتقلت إليها الرؤوس والأعين تثقبها باستخبار، فأردفنا: «صاحب الحق لا يغضب، كوني هادئة، وتحدثي بتريث، وإن كان لك حقٌّ ستأخذينه».

الكل مترقب صامت يتفحص الحقيقة في عينيها، فمالت برأسها أرضًا وقالت: «كان يهددني بسكين» انتقلت أبصار الجميع لنا، فقلنا: «أكانت هناك سكين في يده عندما قبضتم عليه؟» تصاعدت الهمسات بين الناس، ولم يرد علينا شخص، حتى شعرت البنت بأن أصابع الاتهام كلها تصب نحوها، فدافعت عن نفسها: «ألقاها من النافذة عندما رأى أبي».

ابتسمنا بفطنة، وتحركنا إلى النافذة مصدرين ظهرنا للكل قائلين: «تعالوا لنبحث عنها». تحرك التجمهر في خطوات عشوائية فصاح العجوز: «لا داعي لهذا». توقفنا بغتة، ودون أن نلتفت إليه قلنا: «إذًا، لا توجد سكين».

لففنا جسدنا وأحاطت بالمرأة أعيننا، فنظر الكل إليها، وبدأت الهمهمات في العلو، حتى تدافع أحدهم إلى العجوز وتلظى وجهه قائلًا: «أخبرنا الحقيقة». فاقتربنا منه وسحبناه بهدوء من يده، وابتسمنا ناظرين إلى الكل قائلين: «أنا متيقن من أنها أخطأت، والله حليمٌ ستار، لا تلتفوا حول سيدةٍ وتخوضون في عرضها، استروها، فكلنا فينا العيوب لولا ستر الله».

هدأت الحركات، وبشَّ وجه (خباس)، راقبناه بثبات، وقد تذكرنا منكراته، فقلنا بهدوء: «ولكن أخي أخطأ، ويستحق العقاب».

التفت الكل إليه بأوجه كالحة، فأكلته الصدمة.

***

عاش (حكّوم) في بدروم حالك الظلام، يبيت معه (سعيد الشربجي)، فرد من المقاومة الشعبية المصرية، أما الباقون فكانوا يتبخرون ويعودون يوميًا في الليل، يخططون لطرد الإنجليز والفرنسيين، وسمع منهم أناشيد الوطن وحبهم لمصر، وكان يمتعض كلما تكلموا، لكن المدفون في قلبه بان من نظراته، يتوق الحرامي لنشل أسلحتهم، طلبت منه أمه سرقة بندقية، وها هو يخطط لانتهاب مخزون سلاحٍ كامل لباسلين قرروا التضحية بحياتهم من أجل الوطن، ولم يأبه لشيء، فيموت (حكّوم) ومضحي الوطن، وليدمر الوطن، فهو ليس وطني، وسأكون جزءًا في إصبع آخر، وإن دُفنت في ترابٍ لا يفرق معي؛ فقد سئمت البشر ودواخلهم.

ينام وتلتئم جراحه، يحضر لهما (إبراهيم الطناحي) طعامًا ليأكلا، حاول (حكّوم) فتح حديث مع رفيقه السكني لمعرفة مخططهم، فكان كلام الرجل قليلًا، فظل جاهلًا بنواياهم، وبعد سبعة أيام وقد التأم بعضٌ من جراح (حكّوم)، ولج الفدائيون بهرولةٍ إلى البدروم، أغلقوا الباب، وسمعنا أصوات جلبة في الشارع، البريطانيون والفرنسيون يفتشون عنهم، فجلسوا هادئين، حتى تبخرت الأصوات، واقترب (إبراهيم الطناحي) وضم (السيد عسران) إلى صدره، ومن ثم خبط على كتفه وقال: «بطل ابن بطل». وكان (السيد عسران) يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، شابًا صغيرًا، يحمل قسمات صعيدية، ويبدو أنه قام بعمليةٍ كبيرة.

تغلغل الغضب في نفس (حكّوم)، وتحامل حتى وقف على قدميه، ثم اقترب من (إبراهيم) وقال: «معذرةً يا باشا، ولكنني أريد معرفة ما يجري، فأنا لا أعلم أيًا من خططكم، إن كنتم لا تثقون بي سأرحل». ضحك (إبراهيم) بصوتٍ عالٍ وقال: «خلال ساعات، لن يكون الأمر سرًا». ثم ربت على كتف (حكّوم) وأضاف: «استطاع زملاؤنا خطف مور هاوس قريب ملكة بريطانيا، عمليةٌ عظيمة ستصدع رؤوس الإنجليز وسيعيدون حساباتهم ومن الممكن أن تكون سببًا في تراجعهم».

الأوجه مبتسمةٌ وفرحة، لكن (حكّوم) رمق (السيد عسران) بتساؤل: «وهل خطفه سيد؟». تقدم الضابط جهة صندوق صدئ، قعد عليه وأشعل سيجارة، ثم أشار إلى (السيد عسران) وقال: «تعال يا سيد اجلس بجانبي». ثم نظر إلى (حكّوم) واستطرد: «سنعطيك الثقة يا بيومي، ولنرَ إن كنت تستحقها». تصطنع التماسك،

فأضاف الضابط: «سيد بطل، الأيام الفائتة نفذ عددًا من العمليات تباعًا، قبل أن تحضر كنا نحتفل بتفجيره سيارة بها ستة جنود من قوات الاحتلال، ومنذ يومين كان هناك جنودٌ إنجليز يهجرون الناس من الشوارع بسبب حظر التجوال.. كانت الساعة الخامسة مساءً، ومر سيد وكانت معه قنبلة في جيب سترته. وعندما طلب منه الإنجليز دخول بيته، تخفى في بيت بجانبهم. وفي الظلام، دحرج القنبلة على الأرض ثم ألقاها عليهم وقتل وأصاب عددًا كبيرًا منهم. وعندما نزلت دوريات إنجليزية للبحث عن الفاعل، نزل على المواسير من بيته وظل من الساعة السادسة والنصف مساءً إلى السادسة صباحًا متخفيًا في المنور(6)، حتى علمت بالأمر وانتشلته وجئنا إلى هنا».

صمت والابتسامات مفترشة على الأوجه، فقال (حكّوم): «لا تؤاخذني يا باشا، لكنك تخبرني أشياء حصلت، أين الخطط القادمة؟». التف الجميع حول (حكّوم) وجفونهم تتوسع، وقرب منه (إبراهيم)، ألقى بالسيجارة أرضًا وقال: «بص يا بيومي، الذين أمامك باعوا أرواحهم، ينتظرون الموت، إن علموا أن الحجارة تخون بلدهم سيأكلونها بأسنانهم، فلا يخدعك عقلك فتفكر في الخيانة». ضيق (حكّوم) عينيه وخرج صوته عاليًا فلم يكمل كلمة واحدة، وقاطعه الضابط قائلًا: «شششش». صمت، فأردف: «اسمع يا حكّوم». ارتعشت قدما (حكّوم)؛ إذ إن الضابط علم اسمه، كاد يسأل فضحك: «لا تسأل».

أشعل سيجارة أخرى، التهم دبرها وأخذ يتنفسها: «العملية القادمة قتل الضابط جون ويليامز، رئيس المخابرات البريطانية». صعق (حكّوم)، فتكلم (السيد عسران): «قتل ضابط كهذا سيهز كيانهم، لكن الأمر ليس في قتله، إن جون ويليامز له تاريخ أسود مع المصريين؛ فقد اعتقل كثيرًا من الفدائيين، وكان يحمي الخونة والجواسيس المصريين داخل المعسكرات البريطانية، ويترأس قوات الغزو البريطانية كلما هاجمت المواطنين، ولا يخاف العرب، يدخل بسيارته الحي العربي، ويتصرف بقرف مع المصريين. وآخرًا اعتقل ضباط الصاعقة العسكرية الذين كانوا يقاومون معنا العدوان».

سكت ثم نظر إلى (إبراهيم) وأردف: «محمد حمد الله صاحبي الفدائي الذي أخبرتك عنه، قال لي منذ ساعات قليلة إن جون ويليامز قبض على كل سائقي سيارات الأجرة في المدينة ليعترفوا على السائق الذي نفذ عملية خطف مور هاوس، وإنه سيستجوبهم في إدارة المرور بشارع أوجيني يوم أربعة عشر، يعني بعد يومين، تلك فرصتنا لقتله».

جلس (حكّوم) بوجوم، كأنه لم يفهم ما يقال، فاقترب (إبراهيم) منه، مال وتفرس عينيه: «أتمنى أن تكون الكذبة الوحيدة في اسمك».ثم صلب جسده وأضاف: «فأنا لا أحب المفاجآت».

واحتفل الكل في صمت بإنجازاتهم، ولم يتحركوا جميعًا من البدروم لمدة يومين، وخرج فقط (سعيد الشربجي) لإحضار الأكل، وظل (حكّوم) منطويًا مع ذاته ونفسه، وعيناه لا تغيبان عن القنابل والأسلحة، وقرر التصرف بحذر بعد معرفته قدرات الضابط (إبراهيم).

صباح يوم الرابع عشر من ديسمبر، أعطى الضابط (إبراهيم الطناحي) كل شخص منهم رداءً مختلفًا عن الآخر، فأحدهم ارتدى بدلة كلاسيكية، والآخر قميصًا وبنطالًا وسترة شتوية، وآخر جلبابًا، وتفاوت الأمر بينهم.

خرج الكل متفرقين، ومعهم الأسلحة، وعدد من القنابل، وارتدى (حكّوم) ملابسه السوداء التي وفد بها إلى بور سعيد، وكان نصيبه أنه لازم قائدهم (إبراهيم) في سيره، وإن كان قد تركه لعاد وسلب الأسلحة وولى، مشوا جميعًا حتى وصلوا إلى شارع أوجيني، فظهر العساكر الإنجليز يبعدون الناس عن الشارع ويغلقونه، وحتى تلك اللحظة لا يعرف (حكّوم) عن خطتهم، فوقف بغتة. نظر إليه (إبراهيم) بتساؤل، وعاد خطوتين هامسًا: «لماذا وقفت يا حمار؟ ستكشفنا». فدقق (حكّوم) في عينيه ونطق: «ما الخطة يا باشا؟».

زفر (إبراهيم)، توجه عسكري إنجليزي إليهما، فلف الأول جسده ولكم (حكّوم) في وجهه باستفحال، شعر الأخير بأن عمارةً سقطت عليه، وزعق (إبراهيم) قائلًا بعد أن كلبش في تلابيبه: «أموالي يا حرامي».

لم يستوعب (حكّوم) ما يدور حوله، وفجأة، انقلب الشارع رأسًا على عقب في ثوانٍ معدودات، الناس كلها اشتبكت في المنتصف، فانتزعوا انتباه العساكر والضباط الإنجليز الذين رفعوا أسلحتهم وعلى وشك التصويب على الكل، لكن الأسلحة النارية كشفت عن نفسها، وخرجت من سترة تسعين بالمائة من السائرين في الشارع ويسكنون المنازل حولهم، كأن البلدة كلها مجندة لدى (إبراهيم)، ووابل من الرصاص انطلق نحو الإنجليز، وانقلبت الساحة حربًا.

شد (حكّوم) نفسه من يد (إبراهيم) وانصرف مهاجرًا، الضحايا تتساقط من الجهتين، الجثث في كل ركن تتكوم، وقد أبصر (السيد عسران) وهو يقتحم الحرب الدائرة، وكان قد ظهر ضابط من الخلف تبدو عليه السيادة، يرفع سلاحه يضرب في المقاتلين، ويوجه العساكر والضباط الإنجليز حوله في التصرف، ويحثهم على الثبات، سقطت عليه من السماء قنبلة، ألقاها (السيد عسران) من الصفوف، فتفجر جسده وسقط صريعًا، وبعضٌ من الضباط حوله، وركض (السيد عسران) هاربًا، فعلم (حكّوم) أنه الضابط المنشود.

تبدلت الدنيا، وابتدأت الكفة تميل؛ إذ إن دعمًا من سيارات الإنجليز المصفحة وصل، وأمطرت السماء رصاصًا، وشرع المصريون في التساقط بجنون، والأعداد صعبة الحصر، حتى أبصر (حكّوم) بعضًا من أصدقائه الثمانية يقتل، ورأى (سعيد الشربجي) وهو مضرج بدمائه، زحف أرضًا ثم سكن مقتولًا برصاصة في دماغه، فأخرج (حكّوم) بندقيته، وطفق يضرب رصاصات عشوائية على الإنجليز، ومن ثم جرى بكل قوته محاولًا الابتعاد عن الحرب القائمة، لكنه ما إن خرج من الشارع، حتى دفس في حربٍ أخرى ممتدة لمسافةٍ طويلة، بين المقاومة الشعبية والقوات الأنجلو-فرنسية، الشوارع والأزقة ساحات قتال، حتى إن السيدات في النوافذ شاركن، وألقين على رؤوسهم زبالة وزجاجًا وماءً وسخًا، فشل عقله، إن عاد سيموت، وإن تقدم سيموت، خنقه القنوط، فتكهرب جسده من الخوف.

***

كأن جملتنا شرارة الانفجار الأكبر، ما إن أخبرناهم بأن أخانا يستحق العقاب، حتى هاج الناس وأقاموه هو وأبانا، وضمونا إليهم، ثم ساقونا لبيتنا، وتجمهر الكل أسفل المنزل، وصاحوا بعنفٍ رهيب، ثم حلوا وثاق أخينا وأبينا، وتقدمهم عجوز أشيب ناطقًا: «لموا أشياءكم واخرجوا».

أطلت أمنا وإخوتنا (ضاحي) و(شربات)، وخشيت ما جرى في السيدة زينب؛ إذ إن محياها التهم من الرعب، وعلمت من حال (خباس) أنه ارتكب بلية، فضمتنا وسحبتنا للبيت، ووقفنا مفزوعين في وجهة سكان الخصوص كلهم، وأشار أبونا إليها بعلامات ففهمت ما ارتكبه (خباس)، كشرت واستاءت، ثم شرعت في التقهقر والعودة إلى البيت، فتقدم الناس وأعينهم بها شر، فصاحت: «لن نغادر بيتنا، اتركونا».

احتد الناس وتنمروا، وقذف عيل حجرًا خبط كتف (ضاحي).. صرخ الأخير ودون تفكير بادله بحجرٍ، لكن نشانه خاب ولصق في رأس أشيب من الواقفين فانشق لتهيج الدماء وتفر منه، سقط الرجل يجاهد ليتنفس، فهاج الكل بجنون ورفعوا الحجارة وأمطرونا بها، دفعنا أنفسنا فدخلنا البيت، وأغلقنا الباب علينا، فنزلت الخبطات عليه كنطحات التيوس، ولما ينسوا تكسيره، أحضروا شومًا وسكاكين وفؤوسًا، وتصاعدت النواقيس، فحضن بعضنا بعضًا خائفين مرتاعين، وأصواتهم تجلجل: «والله لنقتلكم». ضربات متتالية وزعيق: «امشوا يا أولاد الكلب من هنا». ثم طرقات وحديث متداخل ميزنا بعضه.. زاد الهجوم، ثم علا صراخٌ حاد وانتحاب وهتاف: «الرجل مات».

فعلمنا أن العجوز قد وافته المنية بسبب الحجر الذي أطلقه (ضاحي).

وكأن القيامة قامت.

عجيج.

عويل.

ندب.

نواح.

ولولة.

أيادٍ تهز الباب كالعواصف.

وضربات كالبراكين.

زمجرة الرجال تتصاعد.

استبد بنا الخوف.

وعلمنا أن موتنا كُتب هنا.

فجلسنا بجانب جدار ورددنا اسم الله.

نطقنا الشهادة.

الفؤوس كسرت خشب الباب ونفذت منه.

ضربتين.

وضربة.

وسقط الباب.

وهجم الناس علينا كالذئاب وأعينهم تنذر بالموت.

فسلمنا أمرنا لله.

***

دائمًا هناك خطة، لكن (حكّوم) لم يكن جزءًا منها، أن يهيج المصريون في آنٍ واحد، أن تتراشق الطرق بالمجاهدين، أن ينبعث غضبهم لمواجهة الغزو. المقاومة الشعبية ورجال الجيش والشرطة خلقوا قتال شوارع، ويفر (حكّوم) باحثًا عن منفذ الرحيل من بور سعيد، والكل حوله مشهرًا سلاحه والرصاص كحبات المطر.

ولج شارعًا، يهرول في مركزه، وتبصر عيناه المقاتلين يستترون خلف المباني، وفوهات بنادقهم تمطر رصاصًا، ويقابلهم الإنجليز والفرنسيون بطلقات مثابرة، و(حكّوم) يضرب بعشوائية مفرطة تجنبًا لإصابته، يراوغ ويتوارى في لجة المعركة، وتصرخ النساء من النوافذ، يلقين زجاجًا وألمونيوم وصفيحًا وماءً وسخًا على رؤوس الأجانب، يقاتلن لآخر رمق فيهن، ببسالة وشجاعة كأعتى الرجال، وفي الشوارع الاشتباك يتضخم.

انغرز (حكّوم) في حربٍ لا تخصه، لم يحب بلده يومًا، لم يدافع عنه، يعيش كمقاتل فيه، يضرب في الدنيا وتدحرجه في هلاكها، ويثور كبركانٍ مدافعًا عن ذاته، حقه في العيش، وها هو يتشحط بالأشلاء للنجاة، ولا يملك طريقًا للعودة، امتلك كل ما هو دنيء، وأجبر على الحرب وتطهير ذاته ليخرج. ظن الأمر كابوسًا، وسيفيق في بيته، وكلما مر الوقت، ينخرط بقوةٍ ومتانة، لا للرجوع، والقتال مصيره.

يتلفت كالبومة، اشتبك مع إنجليزي وتبادلا الرصاص، فسلب (حكّوم) روحه برصاصة في بطنه، ثم أكمل مسيره وضربه رصاصةً أخرى في أثناء ركضه، الأرض صبغت بالدماء، والخراب صنع هالةً طوقت المكان، وزاد الويل بسيارات إنجليزية وفدت أنزلت كتيبة من العساكر، وتبعتها دبابة، ضربت قذيفة أسقطت ربع بيت قائم يحوي نساءً مقاتلات. العويل وصل إلى سحاب السماء، وتبعزق سكان المبنى على الدرج يلوذون، واصطف الإنجليز أمام البناية يهاجمون السيدات بفوهات بنادقهم، فأصابوا البعض، وكبس رجال الجيش المصري

عليهم في معركةٍ فتاكة، ولم يجد (حكّوم) طريقًا للخروج من ساحة الوغى، وقد فار دمه حتى ضرب مخه، فغلت عروقه، وتحزب للمقاومة، وقرر الاشتراك في المعمعة مدافعًا، وأخذ يتخفى ويضرب بالبندقية، فتمكن من إصابة اثنين، وانطلق بجنون، خرج من الشارع، ولج بيتًا جانبيًا يلهث، قلب في جيبه وقد سرق قنبلة من الصندوق، قبض عليها، واطمأن على المسدس والسكين، ثم صعد الدرج حتى وصل إلى سطح البيت. علق البندقية بكتفه، وغمد المسدس والسكين، دس القنبلة في جيب سترته، لم تكن البناية ذات أسوار، فتفقد قعرها، صراخ، دماء، جثث، رصاصات، وانفجارات تسببها الدبابة تبيد المصريين، ودور تنهار، أخرج القنبلة، وأطبق على أسنانه بغيظ، ثم دلدل يده ونشن عليها، وترك القنبلة، فاحتضنت الدبابة وانفجرت، وحلقت أشلاء ضابط يترأسها.

صرخ بسعادة، ثم نزل من البناية، تفقد الشارع، وخرج متحفزًا، خطا إلى الدبابة، زحف من قلبها ضابط إنجليزي النار تنهش رأسه، يئن ويصرخ، يتشبث بالحديد المشتعل، فرحمه (حكّوم) وفجر دماغه برصاصة، ثم توارى داخل بيت. تسلق الدرج، خبط على شقة، لم يفتح مَن يسكنها، فكسر الباب، أبصر رجلًا وزوجته وابنته يحتضنهما.. لم يتحاور معهم، هرول للنافذة، تخفى خلف جدارها، ثم أظهر نفسه وصوب على بنايةٍ في الجهة المقابلة، وضرب طلقتين أصابت قناصًا إنجليزيًا، ثم ترك النافذة راحلًا. الهلع مرتسمٌ على وجهه، ويتصرف ببطوليةٍ رغم أنه لا يأبه، حياته تتبدل جحيمًا، ويتغير هو لشخصٍ غيره، رغم فظاظته وظلمه الذي عهده، فإن الظلام بداخله يتعملق.

نزل من البناية، نظر إلى الشارع فوجد ثلاثة عساكر إنجليز يغرقون النساء برصاصاتهم، فكلأ عنهم وقنصهم فأصاب واحدًا، وأوشك الباقين على إصابته، فساق قدميه هاربًا، يتقلب وجهه لا يقصد مسلكًا، يتوق إلى العودة إلى بيته، قدم بور سعيد لسرقة بندقية، لحماية أهله، تنفيذًا لقرارات أمه، فتعرضت نفسه للتنكيل، وأصيب بجراح نفسية وجسدية.

كمن عند مدخل عمارة، يملأ رئتيه بالهواء، ينهج كعداء في جولته الأخيرة، فسمع أنينًا مكتومًا من داخلها، كأنه صوت شاب يستغيث، انتبه في أناة رافعًا سلاحه أمامه، دفع الباب بتريث وتقدم، كشف الأجواء حوله، الصوت آتٍ من شقةٍ أرضية، هجم على الباب كالثور، كسر وانفرج، فضربه أحدهم برصاصة كادت تستقر في فخذه إلا أنها قطعت لحمه وهربت، صرخ وألقى بجسمه جانبًا، زحف قاعدًا، سند ظهره إلى الجدار بجانب الشقة، وضع البندقية أرضًا، وسحب المسدس من غمده، الألم يقتله، تنفس الصعداء، تفقد أعلاه مريحًا رأسه، يفكر بهدوء، والصمت قائد، إلا من أصوات حركة أقدام هادئة تقترب من باب الشقة، أغمض عينيه، ثم فتحهما، وتحامل على الجدار خلفه ليعينه على الوقوف، جاهد وضغط على قدميه، ثم عدل نفسه، وركض من أمام باب الشقة متفقدًا داخلها ليصل إلى الجهة الأخرى، فاخترقت الهواء ثلاث رصاصات لم تصبه، كشف محتوى الغرفة، ضابط إنجليزي، وخمسة أجساد مكومة على الأرض.

نظم أنفاسه، وبعد أن أدرك مكان الإنجليزي، خطف نفسه ومط يده وضرب رصاصتين استقرت واحدة في قدمه والأخرى خرمت الجدار، سقط المحتل ونعر، فتقدم (حكّوم)، وتفقده بنظرة ميتة، ثم رفع المسدس، ضرب طلقتين، واحدة خرمت بطنه، والأخرى فجرت قلبه، ثم مال وقطع بنطاله وربط فخذه للمرة الثانية حتى لا يفقد مزيدًا من الدماء، وظل على حاله بضع ثوانٍ يهدئ من روعه ويتنفس، وبعدها اعتدل ليساعد الضحايا، أربعة رجال وسيدة، مربوطين، والدماء تلتحم لصنع بركةٍ أسفلهم، فك وثاقهم، فلم يتحرك منهم إلا شاب، حركة واهنة، يجاهد زاحفًا، لكنه لم يقدر على المثول، فعدل (حكّوم) من وضع جسده ونظر في وجهه فصعق، إنه (محمد) ابن الرجل الذي استقل سيارته عند دخوله بور سعيد، فقلب الأربعة الآخرين وأبان ملامحهم، السائق وأخوه، وشاب ثلاثيني وفتاة عشرينية يبدو أنهما ابنه وزوجه، قلب جسدهم، فلم يجد تنفسًا، لم يجد روحًا، علم أنهم جثث، ارتعش (حكّوم)، وصل إليه شعورٌ بالجزع، خوفٌ ورهبة، وغضب، وشد على نفسه وأعصابه، ظل مذهولًا دقيقة، حتى فاق من غيبوبته، مسح وجهه وتنفس مخاطه، أسند جسد (محمد)، حاول إفاقته، الولد يغيب عن الدنيا، كأن روحه تجاهد الخروج، فتلفت (حكّوم) حوله، وجد زجاجة ماء، أفرغ

محتواها كله على رأس الولد، فشهق بفزع، وجاهد (حكّوم) ليوقفه، وحثه على الحركة، وجذبه من يده ومشى نافذًا من الباب ببطء. استعاد (محمد) وعيه، فكلبش (حكّوم) يده وأسرع من تحركه هربًا، وكل برهة يفقد (محمد) توازنه فيسقط، ويعينه (حكّوم) على الوقوف.

شق الطريق وسط ويلات الحرب، وقبض على يد (محمد) ينتزعه من الثكل، سحبه خلفه فأذعن، وبعد ثوانٍ، عافر الشاب محاولًا سل يده منه، فلم يلتفت إليه (حكّوم)، حتى صاح (محمد) بصوتٍ مكلوم: «اتركني أعود إليهم». لم يلف (حكّوم) رأسه، ودام يدهس الهلاك بقدميه، فصرخ (محمد): «لن أتركهم وأرحل». فلف (حكّوم) وتلفظ بحنو: «اهدأ، سآخذك إلى مكانٍ آمن». فانسل الولد منه وتراجع إلى الخلف متلفظًا: «أبي وعمي وأخي وزوجة أخي بالخلف، عليّ أن أرجعهم». لم يتجاوب معه (حكّوم) وأمسكه من جسده ودفعه ليخرج، فضربه (محمد) وأبعده عنه وتقهقر، فافتتح (حكّوم) شدقه: «أتريد العودة إلى الحرب؟ ستموت». فزعق (محمد): «سأعود إلى أهلي». فرد بسرعة البرق (حكّوم): «ماتوا». تزعم صمتٌ مهيب، وعينا (محمد) انفجرتا كنافورة، انتحب مرتعشًا، فاسترسل (حكّوم): «قتلهم الأجنبي». كأن لسان (محمد) قطع، فأكمل (حكّوم): «امشِ معي، سأرجعك إلى بلدك». سقط (محمد) أرضًا، فشده (حكّوم) من يده وأوقفه وصرخ في وجهه: «أفق، ستموت هنا، لنخرج». جسد (محمد) رخو لا أعصاب فيه تسنده، فأردف (حكّوم) بصوتٍ غاضب: «علينا أن نسرع».

دون إذن منه، شده من يده وركض، لكنه سحب بقوةٍ مهولة وسقط أرضًا مرتطمًا بغتةً متوازيًا مع صوت رصاصة خرمت أذنَي (حكّوم) الذي اعتدل بفزع، فأبصر (محمد) وقد ثُقب رأسه وسقط هامدًا، فصرخ بصوتٍ مهول، وقفز واقفًا ضاربًا رصاصًا عشوائيًا في كل جهة، فتطاير رصاص نحوه ودنا من إصابته، لف رأسه بعجالة، كشف خمسة من جنود الاحتلال على وشك الفتك به، نظر إلى (محمد) للمرة الأخيرة فسقط دمعه مودعًا، وفر هاربًا ساخطًا مغتاظًا مكلومًا، يعدو بكل قوته، يفلت، يبتعد، يخرج من بور سعيد، وسلك طريقًا صحراويًا، ثم وقف، ونظر أعلاه، وصرخ بقوةٍ كادت تمزق حلقه، وظل يصرخ بصوتٍ مهيب، ثم جثا على ركبتيه، وسهم بعينيه والدموع تتساقط منهما.

ساعة ويزيد على وضعه ساهمًا، سيارات الجيش المصري تمر بجانبه بسرعة الصاروخ، تنقل معدات أو ضباطًا وعساكر، لم يلتفت إليه أحد، حتى أبصر سيارة مدنية تخرج من بور سعيد، مثل أمامها وأشار إليها، فتوقفت، ظل ماكثًا مكانه دقيقة كاملة، يبدو أنه تذكر أبا (محمد) ومن معه، ثم تنفس بهدوء، وتفقد الركاب، رجل أربعيني على المقود، وبجانبه امرأة وطفل رضيع، أبصر الرجل البندقية معلقةً على كتفه، وهيئته المزرية، فبانت في عينيه الريبة والخوف، فانبثق صوت (حكّوم) باهتًا مهزوزًا: «خذني معك إلى أي مكان، أريد العودة إلى مصر». عاينه الرجل بوجل وقال: «نحن في مصر». فنطق (حكّوم) بصوتٍ واهن: «القاهرة». وقعت عينا الرجل على قدمه المصابة، ثوان مرت مريبة، ثم قال: «اركب، نحن ذاهبون إليها».

قعد في الخلف، ناوله الرجل حقيبةً بها بعض الإسعافات: «ساعد نفسك حتى نقابل طبيبًا». تلقفها (حكّوم) بفتور، وفك رباط الجرح، ثم طهره، ولفه بشاش ثم ربط فخذه مرةً أخرى، وسند رأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، وغابت أفكاره، والدموع تتساقط على سترته في هدوءٍ مؤلم.

***

انقض الناس علينا بعتهٍ وجنون، قبضوا علينا باختبال، وصفعونا كالمطارق، صرخ أبونا وأمنا، ونال (خباس) تنكيلًا مضاعفًا فوق ما قاساه، ومن بعده (ضاحي) فلم يسلم من ضربٍ مبرح لون وجهه، و(شربات) ابتلعت الصفعات كبالغة وازرق جسدها وتورد، وضربنا نحن ببأس لكننا اعتدناه فلم نبكِ أو نصرخ كما فعل أهلنا، إلا (خباس) الذي تحمل، وسحبنا أرضًا من أقدامنا، بعضٌ منا كان على ظهره فكان رأسه يخبط فيتجلط، والبعض الآخر على بطنه فقبل الأرض مرات.

أخرجونا من البيت، فتكالب علينا سكان الخصوص كلهم، ركلات في الكلى والبطن، صفعات على الوجه،

لكمات في الجوانب، وشهقات تصدر منا، وانتظرنا الموت، فلم يأتِ، بطيئًا يتركنا نعذب، وسبنا الناس بكل أجدادنا، وامتزج صراخنا مع من يولولون على موت العجوز الذي قتله (ضاحي)، ولم يرحموا أحدًا فينا، وقرروا إلقاء أجسادنا في الترعة لنغرق، ولم يتناقشوا في الأمر، اجتمعوا جميعًا على قرارهم، وشدونا من أقدامنا، وكنا كورقةٍ تدهس وتلطخ بتراب الأرض، ولم يعِنا أحد، تمرغنا حتى تشققت أجسادنا، ووالدانا قد اقتربا من العجز، لن يتحملا الوصول إلى الترعة وسيموتان، ولم تكشف أعيننا الطريق، هاج الجميع لا يرون إلا تعذيبنا، لكن كل شيء انطفأ بغتة.

التراب صنع أعاصير وزعابيب كغبار الخماسين، وسعلنا كلنا دون توقف، وبصقنا نحاول تنظيف حلقومنا، لكن ما زاد العجب هو هجر الناس لنا، وتركنا كالقمامة وسط الطريق، وانشقوا مشدوهين، فحاولنا التحامل على ما تبقى لنا من قوة الجسد، وثنينا رأسنا لننظر، ذلك ما استطعناه، حتى شاهدنا ما جحظت بسببه أعيننا، وأصبنا بدهشةٍ أكلتنا، فما رأيناه حلم، (حكوم) يقف ملطخًا بالدماء، يبدو عليه الوهن والضعف والحزن ران عليه، كأنه حضر من درك جهنم، ودموعه تتساقط على جبينه بوفرةٍ غير معهودة، يحمل في يده بندقية، يتفقد الناس بشر من سيلتهم الكل، وببطءٍ وئيد.. رفع البندقية وصوبها أمامه، فصرخ الكل بهياج، لكنه استمر في تحريكها، حتى نظرت إلى السماء، وضغط على الزناد، لتحلق طلقة، فتبعثر الكل كالغربان، وانفرطوا بذعر وتبخروا، ولم يتبقَّ إلا (حكوم) واقفًا كالفزاعة التي هرعت منها الطيور، وأجسادنا مسطحة على الأرض في ارتخاء وذبول، والتراب يغطي الجو، وصمتٌ يحوم في المكان بعد صوت الرصاصة التي دوت.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية

4

ألا تتعظون، تنكفئ جباهكم على بلاطي ابتغاء الرأفة من الله، كنتم ترابًا، طينًا، أصوركم الخالق لتذنبوا؟! تجترمون الكبائر في حق مساجده؟! في أنفسكم تخريب، ولا تقدرون على شياطينكم. أنا التي انتصبت على أيديكم، أقربكم من الله، تقدمون طاعتكم له من خلالي، وأكون وجهةً للعته والتخلف؟ نجاستكم تخنقني، حتام يتلاعب بكم الخناس؟

أنا زاوية الصلاة التي تحمل على دماغها بيت «آل أبو حماقة»، مقصد غالبية الناس في منطقة الخصوص، والوحيدة القائمة فيها للصلاة، بناني (حكّوم أبو حماقة) اعتقادًا منه أنه بهذا يطهر أمواله بعد تلويثها من أفعاله المفسدة، وتقربًا لله. ورغم حقارته، لا يترك فرضًا؛ أملًا أن تكفر صلاته عن ذنوبه، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، لكنه يصلي ويخرج من بابي شيطانًا، فأي توبةٍ تلك؟ يقترف المآثم، يتذلل ساجدًا في كنفي، يبكي تضرعًا، ويحوم في المنطقة فاجرًا.

اليوم جمعة، يصنعون مني جامعًا، فأكون مقصدهم، تجمهر معظم ساكني الخصوص أمامي، مَن يصلون تقليدًا لسيدهم (حكّوم)، الذي زرع في عقولهم الإجرام والفواحش فتخضبت قلوبهم قبحًا، وتخلف مَن لا يقربون الصلاة، ونصارى الخصوص الذين بنى لهم (حكّوم) كنيسة على طرف المنطقة، فيضربون النواقيس يوم الأحد.

اكتظ الناس بين جدراني، صلوا ركعتين، وجلسوا منتظرين الخطبة، ودخل (خباس) بجلباب أبيض وقفطان بني متأخرًا، بدلًا من أن يحضر أولهم، شعيرات ذقنه كثة معرجة مجعدةً كأنها علامةً على الصلاح، وما أدراك ما أخلاقه، فاجرٌ فاسق زنديق عربيد لا يعرف للصلاح طريقًا، ويعبد الله رياءً، أسمعهم ينادونه بالحاج؛ ذلك لأنه زار الكعبة، وعاد منها إبليسًا متنكرًا، لم تغير فيه شيئًا زيارته لبيت الله الحرام.

تجري حبات المسبحة في أصابعه، شق الجموع بخيلاء وتباهٍ مثل إمام محرابي، وصلى ركعتين متعجلًا كقطارٍ يخترق الدنيا هربًا من نار الحمم، صعد المنبر وشرع يخطب فيهم، فخرج حديثه متخبطًا لا يمت للدين بصلة، جاهل لا يفقه شيئًا، مخارج الحروف عنده غير صحيحة، ويخلط العامية المصرية بالعربية الفصحى، ويتلفظ بما لا يصح قوله في مسجد، ويهتف الناس خلفه: «الله ينور عليك يا شيخ خباس». العته عشش في قلوبهم وتمدد، يحيط بأنفسهم ويعيشون في غفلةٍ لا يفقهون، ولا يصلون بقلبٍ طاهر ونقي، ملطخ بالفواحش، فلتحمنا يا رب مما يصنعون.

بعد أن أنهى (خباس) حديثه الركيك المعتوه، تبسم قائلًا: «أقم الصلاة». وأمَّ بهم فقرأ الآيات بنطقٍ غير صحيح، واصطف الكل خلفه يصلون وحركاتهم تفسد صلاتهم، يتلفتون جانبهم وخلفهم ويضحكون، وانزوى شخص يصلي وحده لا يصطف معهم، (صابر أبو حماقة)، الذي أنهى صلاته وقعد مغمضًا يسبح ويذكر الله، لا يتحاور ولا ينخرط مع أحد، كيف يسكت (صابر) ولا يخطب بالناس، ويتسيدهم الداعر النجس! والله إن الأمر ليحزن.

خرج الكل بتدافع من بابي، وكان آخرهم (حكّوم) يكتسي جلبابًا رماديًا، أخرج مسواكًا من جيبه، غرق رأسه أفيونًا، ثم حكه في أسنانه ثاقبًا بعينيه الجموع أمامه، وتجلت الزرائب، الجزء الأكبر من منطقة الخصوص، بعد أن صنعها (حكّوم) تضامنًا مع (المحلمي أفندي)، فقسمت الخصوص إلى منطقتين. جزء صغير زراعي ملك لأناس لم يوافقوا على تحويل أراضيهم إلى زرائب، معزولين مع أنفسهم. وجزءٌ يشبه مقلب القمامة، الزرائب فيه متاخمة، مصنوعةٌ من الصفائح الصدئة، علب تحوي القرف أنواعًا، وأحيانًا تقطعها منازل أدوارها شقق وأرضيتها زريبة، يجمعون فيها الأهالي كناسة البلد كلها من شرقها وغربها، ويحضرونها فيمتصون عسلها من نحاس وألمونيوم وصفيح وحديد وبلاستيك وكرتون وزجاج وطعام عطب يباع لأصحاب الدواب، وأحيانًا يفوزون فيعثرون على شيءٍ لامع في قمامتهم، ذهب أو فضة سقطوا دون وعي من الناس في زبالتهم،

فتتكاثر نقودهم في عينٍ مغمضة، تجارةٌ مورقة للمال.

بعد أن رسخ (حكّوم) الفكرة في عقول الناس، لَمْ القمامة بات شغلة من لا شغلة له، كل عيل يمشي على قدمين يطلع على كارو(7) أبيه أو أي من العاملين فيها بحثًا عن لقمة العيش؛ امتهانًا للخشونة وتشبهًا بالرجال، فلا عمل للقاطنين هنا إلا جمع القمامة.

في الزرائب، الأرض نجسة، ليست ترابًا فقط، أو أسفلت فلم يدخل منطقتنا، بل مفروشةٌ عن بكرة أبيها بالزبالة؛ أكياس، سخام، حريق، فتات ناشف لا يعرف مصدره، طعام عطن، أجساد فئران دهستها السيارات، جيفات، فضلات، بول، تراب، وجزء كبير طافحةٌ فيه مجاري الصرف الصحي، تسبح فيها الكلاب ومن ثم تخرج فتنطر فراءها مخضبةً الجدران والناس، وعربات الكارو تمر الشارع بعجلةٍ فتشقها وتلون الموجودات.

رائحة المجاري هالت المنطقة، ومخازن الزجاج التي تغلب عليها رائحة الدواء سببت زجاجاتها تعطن الهواء، وغائط الحمير وبول مَن يفكون حصرهم في أي ركن يطولونه يقتلان الأكسجين، تلك الروائح الثلاث جزءٌ لا يتجزأ من التراث هنا؛ صرف صحي، دواء عطن، خراء وصنان.

وقف (حكّوم) أمامي بعد صلاة الجمعة يمضغ سواكه الملطخ بالأفيون وقد أضحى ذؤابة أهله، ثوان مرت حتى حضر (حميد) صبي خمارة (خباس) المنافق وصلب كرسيًا فقعد عليه (حكّوم)، وجلب له نارجيلة، أمسك (حكّوم) خرطومها وشد أنفاسًا.. وعشرة رجال تجمهروا أمامه، قعدوا أرضًا، ملابسهم متسخة، منهم الحافي، ومنهم الذي يهبش رأسه بسبب القمل، رائحتهم نتنة، والسخام يغطي جلودهم، سود من القذارة.. أمسك (حكّوم) المهباش، وقلب الفحم على حجر المعسل، ثم أشار إلى شخصٍ بخرطوم الشيشة وقال: «تكلم يا جمعة»، فارتبك (جمعة أبو حسن) وتلعثم فمه، فسنده الولد (بغاغة العوج) وقال: «اسمح لي أن أتكلم أنا يا معلم، فأنت تعرف جمعة»؛ ذلك لأن (جمعة) عقله به لوثة، خفيف ويغيب بكلماته فلا تصنع جملةً مفيدة، فهز (حكّوم) رأسه بالموافقة.

تلفظ (بغاغة) وروى: «جمعة أبو حسن سريح من زمان والناس كلها تشهد له بالطيبة، كل ساكني منطقة الزرايب ضحكوا عليه وسرقوه، لكنه كان يرضى، والرجل غلبان وزوجته كفيفة وحسن ابنه عيل صغير، ويعيش وسطنا مستورًا، يلم كنسة ثلاثة شوارع في مصر الجديدة، بعد أن حكمت أنت يا معلم.. هناك ست تسكن عمارة اسمها الحاجة فواصل، كان جمعة يأخذ زبالتها كل يوم حتى ماتت، واستمر جمعة أيامًا بعد موتها يلم زبالة العزاء والشقق جنبها، وبعد العزاء بخمسة أيام طلع العمارة فوجد زبالتها مكومةً أمام شقتها، طلب منه ابنها أن يأخذها، فلمها وأرضاه بنصف جنيه، وعندما فتح الشوال(8) في غرفته، وكما تعلم هو لا يملك زريبة، وجد بها أوراقًا محزمة، أخذ مجموعة وذهب بها إلى المعلم سيد زكيبة، فعلم أنها أموال من فئة الجنيهات العشرين، وجمعة آخر ما رآه جنيه أحمر، فلم يعرف أنها نقود، وطلب المعلم سيد زكيبة منه إحضار البقية، وضحك عليه وسرقها، وكما ترى المعلم سيد تبدل حاله، وفتح زريبة في زرايب القرود، وبنى بيتًا من ثلاثة أدوار، وكل هذا من أموال جمعة أبو حسن، ولما اشتكى وطلب حقه، ضربه أمام الناس وطلب من العيال أن يقذفوه بالحجارة ويركضوا خلفه، يرضي من هذا يا معلم حكّوم؟ نطلب منك أن تعيد للمسكين حقه».

صمت، فاعترض المعلم (زكيبة) بوجهٍ مكشر، وهو رجلٌ أفاق: «كذاب ابن كذاب أنت والعبيط الذي معك، أتصدق يا معلم حكّوم أن أسرق؟».. شد (حكّوم) خرطوم الشيشة من فمه وقال: «اسكت يا زكيبة».. وقعد يتفقد أوجه الناس بأناة وهو يستأصل دخان شيشته، والأعين ترقبه بتلهف.. استقام على قدميه، ومشى وسطهم حتى وصل إلى (جمعة أبو حسن)، ربت على كتفه وأقامه، ثم مد يده في جيبه وأخرج خمسة جنيهات، دفسها في يد (جمعة) ناطقًا: «اشترِ شيئًا حلوًا لحسن»، فضحك الرجل بسعادة، ثم لف (حكّوم) جسمه للمذهولين خلفه: «المعلم سيد زكيبة بنى البيت والزريبة من أموال كان يتاجر بها معي».. دفس المسواك في فمه، أوشك (بغاغة) على التحدث فقال (حكّوم) بوجهٍ مكفهر: «أليس لديكم عمل اليوم؟ أم ستقعدون كالنسوان أمام بيتي».

صلب الكل طوله وتفرقوا، مر من جانبه المعلم (زكيبة) فتلقف (حكّوم) كتفه ومال على أذنه قائلًا: «تأخذ البيت أم الزريبة؟» تعثر لسان (زكيبة)، فبش (حكّوم) في وجهه قائلًا: «سأترك لك الزريبة، فهي تدر دخلًا. يومان وتترك البيت».

اهتز الرجل وارتعشت قدماه، ففرد (حكّوم) يده ورفع رأسه لفوق، وشد نفسًا عميقًا محملًا بهواءٍ ملوث بروائح المجاري والخراء والقمامة العطنة، ثم رمق (سيد زكيبة) بعينين حانقتين، فرحل الرجل مذعورًا، ليزعق (حكّوم): «غيّر لي حجر الشيشة يا حميد».

***

هرع الناس إلى بيوتهم عند رؤيتهم (حكّوم) حاملًا بندقية، وانكفأنا نحن أرضًا غير قادرين على النهوض، عاصفة ترابية غمرت الدنيا حولنا، سعلنا حتى كدنا نتلفظ اللوزتين، وهدأ كل شيء في عينٍ مغمضة، ثم قعدنا جميعًا فاردي السيقان أمامنا، تنحني أجسادنا وتستريح أذرعنا على فخاذنا، ومشى (حكّوم) صوب أمنا، حملها بين كفيه الغليظتين الصغيرتين، وسار إلى البيت، لم يصرف وجهه إلينا، فانتصبنا نحن وساعدنا أبانا على الوقوف، ومن ثم (ضاحي) و(شربات)، ومن بعدهم (خباس)، ثم مشينا متعكزين على ما تبقى لنا من استطاعة، حتى دلفنا إلى البيت خلف (حكّوم). وقفنا في بطن الصالة، أراح أمنا على أريكة، ثم قعد أرضًا، ومال برأسه على فخذها، وبكى بصمت، دموعه تنساب ماءً أجاجًا. دقائق مرت وهي تمسح على رأسه، ثم وقف، وترك البندقية على فخذها فتفقدها بعينين براقتين، ولج إلى الخلاء، دقيقتان وخرج بنفس الملابس الممزقة المتسخة، وقد غسل كفيه ورأسه وقدميه.. فرش سجادة صلاة، وشرع يصلي، فعلمنا أنه ارتكب طامة، وها هو يكفر عن ذنبه كما علمته أمنا، انتهى فدخل غرفته.

ومرت أيام، أسابيع، شهران ويزيد، لا ينكشف، كأنه دُفن، تُدخل له أمنا الطعام وترقيه، وكنا نراقب نحن أخبارهم، فقد كانت حياتنا كلها فوق شجرة الجميز، ونظرنا في أعين الناس فرأينا الاحترام تارة والتحقير تارةً أخرىٰ، يخافون لكنهم ينتظرون إشارة لينقضوا علينا، الغل بادٍ في أعينهم، ولم يتحدث أحدٌ معنا، يتجنبوننا، ولم يضربونا كما عهدناهم، فارتحنا منهم، وكنا نصلي ونتعبد، ننام وفي نفسنا دعة، نراقب السماء، ونغني، ونرقص، ونذكر الله، ونسبح. وسارت الحياة دون توقف، حتى خرج (حكّوم) من جحره، تحاشاه الناس في خشية، وراقبناه نحن، لا يرمق أحدًا، دار في المنطقة، لم نفهم غايته، وعاد إلى البيت، ثم خرج في اليوم التالي، وسار حتى رحل عنا. غاب يومًا، فاعتقدنا أنه اختفى كـ(يونس)، ومن ثم رجع ومعه (العربجي)، ذلك الشاب الذي باع لنا البيت، وأسكنه الدور الأرضي، وظننا أنه راح للسرقة، لكنه مكث فترةً يدخن الحشيش ويعاقر الأفيون على سطح منزلنا، وأحيانًا يفوز فيشرب نبيذًا، ويغنيان ليلًا ويصل صوتهما إلى المنطقة كلها، نسمعه ونحن على شجرة الجميز، ويمشيان في الشارع بأبهة، يزاولان البلطجة على الناس، يضربان شابًا أو اثنين أو ثلاثة، ويتركان أمارة في أجساد فرائسهما بمطواة أو خنجر.

وتبدل (حكّوم)، لم يعد يبتسم، رغم أنه كان جبروتًا ومن صفاته الشكيمة، لكن الأمر تضاعف في نفسه، كأن هناك ما حدث في بور سعيد سلب العاطفة والشفقة منه، فقديمًا كان إن ضرب أحدًا لا يسبب له عاهة، يكون رحيمًا في ظلمه، يغضب الله في كل الأحوال بأذية نفسٍ صورها وصنعها وحرم قتالها بغير حق، لكنه لم يكن بذلك المقت، فوالله قطع إصبع أحدهم عيانًا أمام الناس دون اعتبارٍ لصرخاته، وشق جبين واحدٍ تاركًا دلالة سيبصرها أبد الدهر، ومزق ملابس شاب نطق بكلمة حق وألبسه سترةً نسائية ورسم على مؤخرته بمطواة، ثم أجلسه على حمارةٍ ولف به المنطقة هو و(العربجي). الناس باتت ترتعد لرؤيتهما، وأمنا لم تردع أخانا، بل تركته يعيث فسادًا، وأبونا سكت وأصبح لا يشير؛ إذ إنهم لا يتقبلون وجوده، أما (ضاحي) فرافقه أينما حل، رغم سنه الصغيرة، لكنه مراهق عتل، يزداد ضخامةً مع مرور الوقت، و(حكّوم) يعلمه أمور الإجرام، فكان يمارسها على مَن هم في مثل عمره.

رحل (حكّوم) و(العربجي) يومين، وهدأت المنطقة إلا من (ضاحي) الذي أضحى فتيلًا للمصائب، وكره

الناس رؤيته، وكان يضرب صغارهم، وتعاظم الأمر معه بأنه قد تشاجر مع مراهق فتغلب عليه الولد، غضب (ضاحي) فأحضر بنزينًا وملأ به زجاجة، ثم أشعلها وألقاها على منزل أهل الغلام، فاشتعل وعلا صراخ النساء وكانت مصيبة. أخمد أهالي المنطقة النيران، وتكالبوا على (ضاحي) يؤدبونه فاستقبل قفاه أكوامًا من الصفعات، ومن ثم أجلسوه وسط المنطقة وجزوا شعر رأسه، وحضر (حكّوم) ومعه شخص آخر اسمه (الوحش)، هيئته كالحرامي، ملابس مهلهلة، جرح قديم في خده الأيسر يشقه نصفين، وملامح شرسة، أجرد الرأس، عظيم الجثة، مهيب الهيئة، مخيف يرعب من يلاقيه.

أبصر (حكّوم) ما حل بـ(ضاحي) فسأل، وعلم بإهانة أخوه في غيابه، فرفع البندقية وأمسك (العربجي) و(الوحش) أسلحةً بيضاء، وفي انتصاب الشمس فوق رؤوس الخلق، هجم على بيت الناس وأذلهم وأخرجهم منه، ولم تسلم منه النساء فكشفهن بملابس البيت للمارة، ثم أحضر بنزينًا وأجج النار في دارهم، ووقف الكل شاهدًا، وأحضر (حكّوم) كرسيًا وجلس مشبكًا الساقين، يتلذذ بالصرخات حوله، ومنع إخماد النار، ولم يرحل إلا بعد تفحُّم المنزل.

أقبلت الشرطة، رغم عدم وجود قسم شرطةٍ واحد في الخصوص، لكنهم يغزون المناطق المجاورة، وقبضوا على (حكّوم)؛ إذ إن رفقائه هربوا، وسجن. ولولت أمنا في البيت وانتحبت آناء الليل وأطراف النهار، أحضرنا له محاميًا، استطاع تخفيف الحكم إلى عام، رغم أنها جناية كبيرة، إلا أنها الأولى في صحيفته، وكانت أيامًا ثقالًا. عاد (العربجي) و(الوحش)، وكانا ينامان في بيتنا بالدور الأرضي، يعلمان (ضاحي) ما شرع فيه (حكّوم)، كيفية استخدام الأسلحة البيضاء، وصنعا منه آثمًا صغيرًا، وكانا يعاملان أمنا باحترام كأنها أمهما، ويضعان رؤوسهما أرضًا كلما مرت من أمامهما، ويقبلان يدها، وقررا حماية البيت في غياب (حكّوم)، ولم يقوَ أحدٌ على الاقتراب أو المساس بنا.

كالعادة بتنا منفصلين عنهم، لا نأكل أكلهم، ولا نسير على خطاهم، نغيب في الحقول بالأيام، ونعود فنجد الحال كما هي لا تتبدل، وجلسنا أمام الراديو، وعرفنا أن الحرب انتهت، وأن بريطانيا وفرنسا انسحبتا من مصر، ومن ثم مرت شهور، وعلمنا أن إسرائيل انسحبت، وفرحنا، لكننا لم نزّ صدى الانتصار على أوجه الناس، فشككنا بأنهم لا يعرفون بأمر الحرب، وكيف يعرفون وهم معزولون عن الدنيا. ومرت الأيام رتيبة، وباتت الأمور تخنقنا، وددنا الرحيل، لكن من سيغير ذلك الخراب الذي قبض على نفوس أهلنا، وإن لم نستطع الآن، حتمًا سيأتي يوم ونغيرهم.

انقضى العام، وارتقبنا خروج (حكّوم)، فلم تخلِ الشرطة سراحه، وعرفنا أنه آذى سجينًا كان معه، وحُكم عليه بستة أشهر أخريات تأديبًا له. ومرت كصاروخ، وعاد (حكّوم) أسوأ من ذي قبل، كإبليس في كل بقعةٍ تطولها قدماه، يعصي ويذنب ويتورط الكل في شره، ويقلده (ضاحي) كظله، ومضت الأسابيع سوداء، حتى رحل عنا ثلاثة أيام وعاد برفقة ثالث يدعى (البغل)، سمين لحيم، جسمه مكتنز بالدهن، قصير، أحمر الجلد، ذو شارب أصفر متراخ كقوس مقلوب، وسيم الملامح، لكنه عتل، متبختر في سيره، يعاقر الأفيون كخليله، أطلقوا عليه (البغل) لأنه ضخم الجثة مهيب. وعلمنا أنه كان سكين زنزانته، وامتلك الثلاثة الوافدون الدور الأرضي من بيت أمنا، ومن ثم انتشروا في منطقة الخصوص، يعرضون خدماتهم على الشباب، يجندونهم حبًا في (حكّوم)، وتطبيقًا لتعليماته، فسار (العربجي) يلمع السرقة في أعين الشباب، يقنع ثلةً ويأخذهم ليمارسوا المكوس واللصوصية خارج المنطقة، ثم يعود بالغلة ويلقونها في حجر (حكّوم)، الذي يغدق بجزءٍ منها ليس هينًا على أحضان أمنا، وتلتقطه منه بوجهٍ بشوش، ومن ثم يصلي تكفيرًا عن ذنبه، لا يترك فرضًا، سجادة الصلاة ملتصقةٌ به، ويعتصر سواكًا مخضب بالأفيون يدفسه في فمه كلما انتهى من صلاته.. كيف أقنع عقله بخرافاتٍ كتلك! أن ينجس فمه بعد الصلاة، كيف سيقابل ربه ويدعو بأنفاسه القذرة بالمغفرة والصلاح! ذلك ما زرعته أمنا في عقله، يخطئ فيصلي ليغفر له، ويا ليته يؤدي مناسك الصلاة مستقيمة، ونسي أن هناك توبة، فلم يقربها، الصلاة بالنسبة إليه هي المغفرة عن كل ما يرتكب من كبائر.

رحل (الوحش) عن الخصوص، ثم عاد ومعه قفة محملة بالأسلحة البيضاء، ودار في المنطقة يقنع الشباب بالدفاع عن أنفسهم، وشراء الأسلحة منه، والانضمام إليه ليخط على قلوبهم بقلم الشر، وتنصيب (حكّوم) معلمًا على منطقة الخصوص. وسحر الشباب فتأرجحوا بين السرقة مع (العربجي) وتعلم الدفاع عن النفس مع (الوحش) -كما أطلق عليها- وشراء الأسلحة منه. وشق (البغل) الجموع يعرض بضاعته؛ أفيون، بانجو، حشيش، فانتشرت تجارته وذاع صيته، فزاره الصغار والكبار صاغرين، وكانت الشرطة تضايق (حكّوم) كل فترة وجيزة، فيغلف ذاته برداء الطيبة والنقاء، ويقابلهم مرحبًا، يرشوهم بوافر من الأموال، ويأكلون حتى تنتفخ بطونهم، فيرحلون.

وتضاعفت نقود (حكّوم)، فذبح عجلين وسط جماهير عريضة من أهالي الخصوص، ووزعت أمنا اللحم على الناس، فهجم الكلال منهم يفردون أذرعتهم، مساكين، ضعفاء، ينتشون ورق اللحم بأعين واهنة، ويدعون لهم بكل لسان، فجمع (حكّوم) جيشًا جبارًا تحت وطأته يقدسونه.

وفي يوم، والهدوء سائد على الموجودات، وقفت سيارتان إصدار السنة باهظتا الثمن على أطراف المنطقة بالقرب من شجرة الجميز، ورأيناهما من مكاننا، وترجل منهما سبعة رجال يرتدون بدلاً سوداء، ومن ثم تقيأت السيارة في الأمام رجلًا ثامنًا، يرتدي بدلةً رمادية ونظارةً غامقة، تبدو عليه الهيبة والوقار، كأنه وزير أو رئيس جمهورية، أخرج من جيبه علبة سجائر، تنفس واحدة، وتفقد المكان بمقلتيه. دقائق وحضر (حكّوم)، رسخ على مقربةٍ منه، ولم تنبس شفتاه، يبدو أنه هابه، أو ظن في نفسه بأنه مندوب من الشرطة. دقائق أخرى ورحل الرجل دون الكشف عن سر قدومه، وتكاثفت الإشاعات حوله، قالوا إنه المحافظ وسيصنع مشروعًا في المنطقة، أو إنه سيجدد خطوط الصرف الصحي وأساليب الري، وبعد أسابيع سكتت الألسنة، ونسي الكل.

اشترى (حكّوم) تلفازًا، ورحلنا عن شجرة الجميز ساعات طويلة، نتردد على البيت، نتابع الأخبار، ونرى الناس تتحرك كأنها حاضرة معنا، وأبصرنا الرئيس (جمال عبد الناصر) وهو يخطب في الناس، وكنا نبش، ونسمع قرآنًا، ونعرف ما يحصل في العالم، وبحثنا في خلق الناس بالتلفاز عن المحافظ هذا الذي زارنا، لكننا لم نرَه.

كرهنا المكوث في بيتنا؛ إذ إننا ذات مرة كنا نتطلع إلى التلفاز، ومر (حكّوم) من أمامنا، وقف ثوانٍ يدقق بنا، ثم قال بهدوء: «تعجبك عيشة المجانين؟» لم نرد، صمتنا، ولو رددنا لجرحناه، أتعجبه هو عيشة الفاسدين؟ أردف: «الناس يقولون إنك عبيط، لكنني سمعت ما حصل حين قبضوا على خباس مع تلك الست». صمت، وقعد بجانبنا، وأخرج سيجارةً من جيبه وأشعلها، ثم قال متفقدًا الجدار أمامه: «لا أعلم لِمَ تتظاهر بالجنون».

تلفظ كلماته، ثم رمقنا ثوانٍ، وصفعنا على قفانا ناطقًا: «ذلك الدماغ به الكثير من الأمور». اغتصب السيجارة فانهارت بين يديه وتأملنا ثم استطرد: «أحتاج إليك معي».

امتعضنا من حديثه، فتحاملنا على أقدامنا راحلين، لم نبغِ سماع كلمةٍ أخرى، يحتاج إلينا في أمور الفساد والإجرام وأذية الناس. قررنا عدم زيارة البيت مرةً أخرى، حتى لا نشتبك مع الشيطان، والله وددنا لو تلفظنا بكلماتٍ تبدل قلبه، ولم نعرف لِمَ أصابنا الوهن والضعف، وإن تحدثنا لما تاب إبليس.

تعاظم (خباس) بعد أن تعملق أخونا (حكّوم)، ومشى في المنطقة يتغزل في نسوانها، ولا نعلم كم واحدة سقطت في شباك مفسداته، وكان كلما ارتكب بلوة، يصلي آخر يومه طلبًا للمغفرة، ولا يعرف شيئًا في دين الله. ثم دارت الأيام، وفتح مقهى على الطريق الخارجي في وجهة شجرة الجميز، بالاتفاق مع (حكّوم) الذي أمده بالأموال مقابل نصف الريع، سرعان ما تحول إلى خمارة، فباع فيها (خباس) البيرة والخمر، وكان أحيانًا يضع في ثلاجته زجاجة نبيذ تقدم فقط لـ(حكّوم) ولا تباع للناس، وخصص (خباس) طاولة في الزاوية للعب القمار، وكانت تتردد نساء من خارج المنطقة يرقصن ويغنين للصبح، ويخرج الرجال من الخمارة فجرًا كالأغصان المتراقصة في الشتاء، وتتغير أحوالهم للأردأ. وتعاظمت نقود (حكّوم)؛ إذ إنه يحصل على دخلٍ من (خباس) و(العربجي) و(الوحش) و(البغل).

واشترى (العربجي) البيت الذي يقع في وجهة دار أمنا، وتزوج (سكينة) ابنة (رضوان الشحات)، مزارع مسكين يعمل باليومية، وأقيم عرس حضر فيه سكان المنطقة كلها، ولم نطِق صوت مزاميرهم المزعجة، ولا أفعالهم البشعة، فالبيرة أغرقت العرس، والحشيش والأفيون، فكان يومًا معتمًا. تربعنا على شجرة الجميز نعظم في ذات الله طالبين منه الصفح والمغفرة. وفات شهر، ليلحقه (البغل) متزوجًا (فيروز) ابنة (خميس) المكوجي، ليتكرر العرس بكل ما فيه من دناءةٍ وبغض. ومن ثم أسبوع آخر ليتزوج (الوحش) (سعدية) ابنة (سميح) الدكاكني، صاحب دكان بقالةٍ، ورجل لم نرَ منه العيب، لكن كل العيب في (الوحش)، وأقيم نفس العرس، ثلاث زيجات للشياطين.

حضر المحافظ مرةً أخرى، كما أطلقوا عليه، ولف بسيارته كالساقية في المنطقة، فاستأسد (حكّوم)، وأوقفه، لم يترجل الرجل من سيارته، فتح زجاجها، ونظر من أسفل نظارته، فقال (حكّوم): «الباشا تابع لمن؟» والتم الناس حولهما وكنا منهم، فرد مستهزءًا: «سائح يزور منطقتكم». وضحك، فتجهمت ملامح (حكّوم) غير فاهم. أقفل الرجل الزجاج، وأشار إلى السائق ورحل.

أيام وورد، جلس على طاولةٍ أمام باب خمارة (خباس) رافعًا الساق فوق الأخرى، وكنا فوق شجرة الجميز نراه، طلب قهوةً من (حميد) وسأله عن الرجل الذي أوقفه، فرد وقال: «المعلم حكّوم كبير المنطقة». فبش الرجل ودفس يده في جيبه وأخرج ورقةً من فئة الجنيه، كاد يموت (حميد) من هول ما رأى، خطفها بلهفةٍ فقال الرجل: «أخبره بقدومي». فهرول (حميد)، دقائق وأشرف (حكّوم)، قعد بجانب الرجل الذي حاوطه خمسة رجال عمالقة كالأبواب المصفحة، مسلحون، نظراتهم كرأس البومة تلف في كل مكان. أخرج الرجل علبة سجائر، وناول (حكّوم) واحدة، فرفض بكياسة ونادى: «ولد يا حميد، أحضر لي شيشتي». ثم نظر إليه وقال: «اؤمر يا أفندي».

دس الرجل السيجارة في فمه وسلب منها أنفاسًا ثكلى، ثم قال بخبث: «أعرف كثيرًا عن عملك». شبك (حكّوم) ساقيه ورد: «وماذا تكون. حكومة؟» افتر وجه الرجل عن أسنان بيضاء نضيدة قائلًا: «فرصة». عبس (حكّوم) في فحم ولعة الشيشة دون مبالاة بأصابعه وهو يقول: «وماذا تريد يا عم فرصة؟».

ألقى الرجل السيجارة ودهسها: «كم تكسب في اليوم؟»، رد (حكّوم) بلا اكتراث: «وهل هذا الأمر مهم بالنسبة إليك؟» كاد يتكلم الرجل فرد (حكّوم): «لا يخص الكلب كم تبيض فرخة الديك». رغم فظاظة (حكّوم)، ضحك الرجل وقال: «عشرة جنيهات؟» شخص ببصره ثم أردف: «خمسة عشر جنيهًا؟» ثم صوب رأسه نحوه: «أستطيع أن أجعلك تكسب خمسين أو ستين جنيهًا في اليوم، ومن الممكن أن يصل الرقم إلى مئة، ومع الوقت والزمن توقع مضاعفة مستمرة». استسخر (حكّوم) منه: «تجارة مخدرات، أم سلاح؟» جذل الرجل وقال: «سيكون العمل الوحيد النظيف الذي تقوم به، وسيبعد عنك أعين الشرطة».

لمع وجه (حكّوم)، وغرق في عسل حديث الرجل، فقال الأخير مشيرًا إلى صفيحة قمامة: «تلك الصفيحة بها ذهب، لكنك لا تراه». ثم أشار إلى أحد رجاله، قلبها أرضًا وقال: «الزجاج والبلاستيك والأكياس يتم تصنيعها من جديد، والحديد والألمنيوم والنحاس يدخلون في صناعات كثيرة، ولقمة الخبز تلك تأكلها البهائم، كل شيء له قيمة». وطال الحديث، وانتهى باتفاق متقن بينهما، وعلمنا اسم الرجل، (المحلمي أفندي)، رجل أعمال مرموق في البلد، ويريد فتح مشروعٍ في منطقتنا، أطلق عليه الزرائب. أن يبني علب صفيح ضخمة تكون مقلب قمامة، والشباب هنا يوزّعون على القاهرة ينتشلون قمامة السكان من كل حدبٍ وصوب، في البيوت كانت أو في الشوارع، ويحضرونها إلى منطقتنا، ويفرزونها ويخرجون المواد الهامة، ويبيعها (المحلمي) لأصحاب المصانع، وسيبني زريبة لكل ساكن يوافق على العمل معه، تكون على أرضه، ولـ(محلمي) النصف تقديرًا لمجهوداته، ولـ(حكّوم) خمسة بالمئة لإدارته المنطقة، وسيكون رجله الأول في الزرائب، ومن لا يملك أرضًا سيعمل سريحًا أو عاملًا لدى أصحاب الأملاك، والعاطلون سيحصلون على فرص لعيش حياة كريمة، وسننظف البلدة من القمامة. عملٌ وسخ في أعين البعض، لكنه شريف، والعمل عبادة، إن اقتربوا من الله، من

الممكن أن تكون فرصة لتنظيف نفوسهم، وتوسيخ جسدهم الذي لا قيمة له، فهو بالٍ في آخر المطاف.

وشرع (حكّوم) هو ورجاله (العربجي) و(الوحش) و(البغل) يروجون للعمل الجديد، وسحب معه الشباب العابدين له ولملذاته، وكان عددهم يصل إلى عشرين. القليل من الناس الذين وافقوا افتقارًا إلى لقمة العيش، مَن يملكون أرضًا بورًا غير صالحة للزراعة. وبدأ في إجبار البقية على تحويل أراضيهم إلى زرائب. (المحلمي) صنع له خريطة، وطلب منه أراضي بعينها، ومَن رفض تعرض للمضايقات، حتى وصل الأمر أن (حكّوم) حرق محاصيلهم، وأخذ شهورًا طويلة عاكفًا على إقامة المشروع، ينام قليلًا، ومناديب رسل عمال ومهندسون من (المحلمي أفندي) يقلبون الخصوص إلى زرائب، والمحاصيل جزرت، وعاش الناس في ظلم بين، ونزح أناس آخرون، عائلات وشباب وغلابة من كل مكان، اكتظت المنطقة بالوافدين، واشترى (المحلمي) الأراضي المحاوطة للمنازل من أصحابها الذين وافقوا على البيع، وحولها إلى زرائب، وعمل فيها المبعوثون الجدد، منهم شباب جندهم (حكّوم) لحماية العمل ومساندته، فتضخم جيشه ووصل إلى خمسين رجلًا يحزّكون بأصابعه، ينفذون أوامره. ومَن عافر ورفض رفضًا قاطعًا من السكان على تحويل أرضه إلى زريبة، ضغط عليه (المحلمي) بعرض مالٍ مغرٍ مقابل البيع. ومَن امتلك بيتًا وليست لديه أرضٌ، ولمعت في عينيه الفكرة، صنع زريبة في الدور الأرضي.

تبدلت البقعة، واستحالت في أقل من عامٍ مجموعة من علب الصفائح الضخمة المتاخمة. ومن بين كل هذا، بنى (حكّوم) أول جامع في منطقة الخصوص، الدور الأرضي في بيتنا، حوله إلى زاوية صلاة، وخرجت لنا أجنحة من السعادة، وكنا نقضي يومنا كله هناك، نصلي ونتعبد، لكننا كنا نبصر أهوالًا، يرتكب (حكّوم) معصية، فيدخل إلى الزاوية ويصلي، ثم يخرج ويعيد الكرة، و(خباس) كذلك، ومن ثم (ضاحي)، فأمنا ضخت سمها في عقولهم، وساروا على دربها، أما أبونا فكنا نقابله معظم الأيام في الجامع، فنصلي معًا ونتحاور، ويزداد شيبًا وضعفًا كل دقيقةٍ تمر عليه.

بدأ العمل؛ يطلع الشباب على كارو، يلمون كناسة القاهرة، يحضرونها، فيعلمهم رجال (المحلمي) التفريق بين البضاعة الثمينة والبخسة، يخرجون ذهب زبالتهم ويبيعه (المحلمي) للمصانع والتجار، وينتفع الكل. يهبش (حكّوم) خمسةً بالمائة، والباقي يقسم بالنصف بين مالك الزريبة و(المحلمي)، ومع الوقت انسدت مواسير الصرف الصحي، فكانت تتفجر كالبراكين وتخرج جوفها في الطرقات، ورغم أن رائحة الزرائب خراء فائح، فالمجاري نجستها عن بكرة أبيها، أسابيع ويتبخر الماء من أشعة الشمس، ومن ثم يعود، وتجمع كلاب المناطق المجاورة في منطقتنا لكثرة القمامة والجيف، وتكاثروا، وأصبحت الزرائب بيتهم ومنزلهم، والفئران نقبت جحورها وعاشت معنا، والقطط، ومن ثم قرر بعض أصحاب الزرائب شراء طيور ودواب وتربيتها، فكنا نسير في الشارع ندهس القرف أنواعًا، وتركض أمامنا كل أنواع الحيوانات والطيور، وكانوا يرمون لها الطعام الذي يحصلون عليه في صناديق القمامة، وعلم (المحلمي) لكنه لم يغضب، تركهم ينعمون بخيرات ما خلقه لهم.

وانشقت الخصوص إلى ضفتين، الترعة تفصلهما. شطر زراعي لم يدخل في تخطيط (المحلمي أفندي) وكانت به شجرة الجميز خاصتنا. وشطر يشبه مقلب القمامة. ففي ضفة الأراضي الزراعية تبصر الأحراش والنخل والفول والذرة والكرنب والتفاح والخوخ والمانجا والعنب وكل أنواع الخضراوات والفاكهة الطازجة. والضفة الأخرى الخراء والصنان والزبالة ورائحة تكتم الأنفاس فتقتلها. وانسدت الترعة جراء إلقاء الناس الجيف من حيواناتهم والحمير الميتة والخراء، وأحيانًا تعثر الشرطة فيها على جثث أناسٍ قتلى. ومن الممكن أن يستخدمها أصحاب الأراضي الزراعية للري، رغم أن الترعة تصب فيها مجاري الصرف الصحي.

وما يثير اشمئزازنا أننا نبصر الأطفال يعبثون في جثة حمار ليخرجوا العظم فيبيعوه للتجار ويشحنه (المحلمي أفندي) للمصانع لصنع العلف والغراء والشحم وغيرها من الأشياء، فيعبث الطفل في الدود والهوام والعفن بجثة الدواب، ليجني في النهاية بضعة قروش. وأحيانًا يمتهن جمع بذر المانجا ويبيعه فيتم غسله وزرعه مرةً أخرى.

والمرعب بحق حينما يصنعون حريقًا هائلًا في مجموعةٍ من الأسلاك الكهربائية ليخرجوا ما بها من نحاس ويقومون ببيعها، فيصابون بالحروق وأحيانًا يجن جنونهم فيعبثون بالنار ويضربون بعضهم بها ضاحكين، فوالله رأينا بأعيننا طفلًا يدفع آخر لاعبًا فسقط في كومة النار وتخضب جسده كله بالبلاستيك المذاب، كاد يموت لولا أن أهله أخذوه إلى المشفى وعالجوه فعاش مسخًا يشبه الوحوش.

وكان العاملون كلما خرجوا للم الزبالة يأكلون منها، ويحضرون بعض الطعام الملقى من الفنادق، فيصنعون وليمة مع أطفالهم، وكأنه طعامٌ من الجنة، والغريب أن القليل منهم أصبح غنيًا من عمله في الزرائب، لكنهم يعيشون كالشحاذين، طعامهم من قمامة الفنادق ومنازل الأغنياء، وأحيانًا يسرقونه، ولا يبين عليهم الترف، والكعك الفاسد الذي تتخلص منه مصانع الحلوى يجمعونه في أكياس ويأكلونه أو يبيعونه فيما بينهم، وزجاجات الخمر المعتقة للسكارى زائري الفنادق والملاهي الليلية يجمعونها ويتفاخرون بشربها. وأحيانًا يجمعون أو يسرقون بعضًا من الأجهزة الكهربائية التالفة ويزوجون بها بناتهم، ولا يشترون رغم امتلاكهم للمال، وكأن صفات الفجر قد تعاظمت في نفوسهم وأهلكتهم.

قُسمت الزرائب إلى شوارع، وسمي كل شارع باسم، فهناك شارع «السباخ» الذي يرمي فيه الناس فضلات حيواناتهم، ويتردد عليه أصحاب الأراضي الزراعية يلتقطون الخراء ويصنعون منه سمادًا للزرع. و«الوسعاية» التي تشبه الخرابة في تكوينها، يقعد فيها السكارى يحششون ويغنون، ويحرقون الأسلاك ويُخرجون منها البضاعة النافعة، هؤلاء الذين لا يملكون زريبة، وتُلقى فيها مخلفات المستشفيات فتجد بها أطفالًا مخلقة، بعض منهم قد تم ولادته ميتًا، والبعض الآخر سقط نزل من بطن أمه قبل أوانه، أيادٍ وأرجل ودماغ وجسد، وأحيانًا لا تجد بعض الأطراف. ومنطقة «التل»، ذلك المكان المرعب الذي عُثر فيه على جثث أناس قتلى كثر، وهو مقصد كل السريحة، فيلقون فيه الكناسة التي لا قيمة لها، وكل برهةٍ يحرقونها لتتبخر ويتخلصوا منها، وفي بعض الأوقات تشتعل وحدها من تفاعل أشعة الشمس مع المواد فيها، وتخنق كل ساكني الزرائب كلما أمسكت بها النيران، وأهلك أوارها الجدران التي تحاوطها، ويتناقل عنها بأنها يسكنها الجن، فيسمعون منها أصواتًا في الليل، ولا يقربونها إلا نهارًا، ومن دخلها ليلًا خرج بعقله لوثة ورجحوا ذلك بأن الجن تلبسه، وهي عبارةٌ عن جبل ضخم كبير من القمامة والعفن، ومن يرتكب جريمة قتل ولا يكون مقصده الترعة، يدفس الجثة في التل فلا يعثر عليه إلا بعد أن يتحلل وينتهي أثره. وشارع «زرايب القرود» المليء بصفائح الزرائب والعمل فيه على قدمٍ وساق. والشارع القاطن فيه بيتنا، وقد أطلق عليه (حكّوم) اسم «آل أبو حماقة». وشارع «الكوم» الموجود فيه ميزان ضخم لمن يريد وزن كميةٍ كبيرةٍ من الغلة، ودائمًا مكومةٌ فيه الأشولة بإفاضة. وشارع «المطراوي» المسدود الذي كان موجودًا اسمه قديمًا وعرفنا أنه لشخصٍ كان يعيش في الخصوص منذ قرون طويلة. و«الممر الكبير» الفاصل بين الزرائب والترعة. ومن بعده «المعدية» التي يتجاوزها الناس للدخول إلى المنطقة الزراعية أو العكس.

وبعد صنع الزرائب، وزهو (حكّوم)، قرر زيارة الكعبة، وأخذ أمنا و(خباس) وسافروا، وتمنينا أن نزورها نحن ولكن بأموال حلال، وأملنا أن يعودوا منها أتقياء، غير هؤلاء العابدين لإبليس. وكأنها رحلةٌ ترفيهية، عادوا، ذبح (حكّوم) عجلًا احتفالًا، وزع اللحم على الناس، يومين، واستكمل أعماله البذيئة.

دارت الدنيا، وقابل (المحلمي) (حكّوم)، وقعد معه، وكان معه حيوان صغير في قفص، ومع التدقيق علمنا أنه خنزير، خلقه الله على سفينة سيدنا (نوح) ليأكل الوسخ والقرف والقمامة، وطلب (المحلمي) من (حكّوم) بناء زريبة ضخمة خاصة بتربية الخنازير، وسيحضر له كمية كبيرة يقوم بتربيتها، وستلد، والذي يكبر يأخذه هو، وسيعطي المربي ثمنًا لتربية الحيوانات، وإيجارًا لأرضه. وساد قانونًا، أن كل مَن يلمون القمامة عليهم إلقاء نصف الطعام العطب الذي يعثرون عليه للخنازير والنصف الآخر لحيواناتهم، وبهذا يوفرون لها الطعام، وكل بيعةٍ ستخرج من الزريبة سيكون لـ(حكّوم) نصيب منها. وبنوا الزريبة على أرض (أبو جرجس) النصراني لتكون مرتعًا للخنازير، وكان له نصيب من الغلة، وكل سنة تقريبًا تدخل الزرائب حاوية ضخمة تحمل بالخنازير وترحل، ولمعرفتنا بأن القليل فقط في مصر مَن يأكلون الخنازير وكلهم نصارى، فإن (المحلمي أفندي) يصدر

تلك الخنازير إلى الخارج، فالغرب يأكلونها بنهم، وتضمن برنامج التغذية أن تعيش في وحل دائم، وفضلات وبرك مياه، فوددنا لو حرمنا أنفسنا الاقتراب من زريبة (أبو جرجس)، لكنها جاثمةٌ على بقيعة بشارع آل أبو حماقة، تبعد عن زاوية الصلاة بضعة أمتار، فكنا كلما نذهب للصلاة نمر بجانبها ونسمع أصوات الخنازير ونشمئز؛ إذ إن الله حرم علينا لحمها، لكن ستقول لمن، هم لا يعقلون، يلهثون خلف القرش ولا يديرون بالًا لله عز وجل.

وبسبب المشروع ازدهرت منطقتنا، وأصبحت وجهةً لكل باحث عن عمل؛ فنزح إليها عددٌ كبير من الناس، يشترون أرضًا ويبنون زريبة، أو يعملون عند مالك يبحث عن عامل، فيقعون تحت وطأة قانون (حكّوم) و(المحلمي أفندي). ومع الوقت حضر إلى المنطقة عدد كبير من المسيحيين، وعاملهم (حكّوم) بطيبة؛ إذ إنهم سلكوا طريق العمل في القمامة واجتهدوا به، فبنى لهم كنيسة على طرف المنطقة، وعرضوا عليه شراء الخنازير وتربيتها، لكنه رفض، وترك الأمر لـ(أبو جرجس). وتأرجحت الساعة وانسل الزمن، وعلمنا أن (أبو جرجس) يسرق (المحلمي أفندي) بالحفاظ على بعض الخنازير في الخفاء، وبالاتفاق مع (حكّوم) بأن يكون له نصيب منها، وكان يبيعها للنصارى بعد أن حشّوا ثلاثين بالمئة من المنطقة، وكانوا ينهالون عليه قبل رأس السنة بأيام مَن يملكون وفرةً في الأموال، يشترون خنزيرًا يحتفلون به في عيدهم، ومن يقيم عرسًا منهم يكون مصدر طعامه خنزير من عند (أبو جرجس)، وكأنه صاحب حديقة حيوان، فكنا نتعجب كلما مررنا بجانبه. والعيال في المنطقة يلتمون حول زريبته ويدفسون أعينهم في فتحاتها وأخرامها يسترقون النظر إلى تلك الحيوانات التي تخرج خنخنة وينبهرون، ويصيحون ويهللون، حتى يخرج (أبو جرجس) بخيزران يسبهم بكل الأجداد، فيركضون صائحين: «هيييييه». أو يكون أحدهم شيطانًا ويمسك حجرًا يطوحه صوب (أبو جرجس) ونشانه لا يخيب، فيصاب الرجل ويطفر غاضبًا في مكانه ثم يلم جلبابه ويدفسه في كلسونه ويهرع خلفهم حالفًا أن يطلع ميتين أبوهم. يعدو، ويشتم، ويلهث، ويسقط، فيعود مغلقًا بابه مقسمًا ألا يكلم أحدًا حتى يحضر أبو الولد ويعتذر، ولا يعرف أي الأولاد أصابه، ينسى، أيام، وتكرر الفعلة.

وكان (حكّوم) يتفق مع كل السريحة لتخبئة قليل مما يحضرونه ليبيعه هو، ويعطيهم مالًا أكثر مما ينالونه من (المحلمي) فساندوه في أفعاله. ولم يكف عن تجارته البائدة، رغم أنه يكسب أموالًا منهمرة، لكنه لبث يبيع الأسلحة البيضاء والمخدرات، فزاد حال أهلنا بحبوحة، وتعاظم الأمر؛ إذ إنه تخالل مع بعض العرب في صحراء سيناء الذين يهربون المخدرات والسلاح، يشتري منهم ويوزعها على تجار صغار، وذيع صيته عاليًا، فضايقته الشرطة، ولكنهم لم يستطيعوا مسك أي هفوةٍ عليه، وإن ضيق أمين شرطة أو ضابط عيشته، يرشوهم بالمال فيصمتون، ولكنهم أبدًا لا يشبعون، وكانوا كالشوكة في حلقه.

وعام جر آخر، ثم آخر وعلم (المحلمي أفندي) بأن (حكّوم) يسرق خنازيره وقليلًا من الغلة التي يحضرها سكان الزرائب، وهجم بسيارتين محملتين برجال عمالقة، ودخل المنطقة غاضبًا، وزوبعةٌ تلف حوله بسبب الغش الذي تعرض له، وقف في مركز المنطقة بشارع «آل أبو حماقة». وزمجر في الناس أجمعين صائحًا ليسمع (حكّوم): «الكلاب تسرق عندما يعطيها صاحبها ثقته الكاملة، حينها تصاب بالسعار، فيتم ضربها بالنار». ثم أردف: «صنعتها وسأهدمها». وسحب رجلًا من أتباعه (أبو جرجس) من تلابيبه وضربه وأهانه أمام العامة، ومن ثم تفرق الرجال في المنطقة يكسرون الزرائب على رؤوس الناس.

وأبلج (حكّوم) ممسكًا بندقيته باسقًا، ومعه (خباس) و(ضاحي) و(العربجي) و(الوحش) و(البغل) ورهطه من خمسين شابًا يمسكون بالأسلحة البيضاء، ووزع الشباب في الزرائب وقامت حرب، ترأسهم (العربجي) و(الوحش) و(البغل) واشتبكوا جميعًا مع رجال (المحلمي) في معركةٍ حامية حتمًا ستخلف أمواتًا، وسحب (حكّوم) البندقية خلفه تكحت الأرض، ومن جانبيه (خباس) و(ضاحي) كالمنكبين، حتى وصلوا إلى (المحلمي أفندي)، فأخرج (المحلمي) مسدسًا من غمده، سلطه على (حكّوم) فقال الأخير: «ما لك يا باشا؟ إذاعتك وصلت إلى الناس كلها في بيوتهم، أهناك شيءٌ حدث لا سمح الله؟» فرد (المحلمي) بجلف: «هناك ثقة لم تكن في محلها لمجموعة من الرعاع عندما شافوا مالًا سائلًا أظهروا قدراتهم الإجرامية». صمت لحظة مع همهمة

الواقفين جميعًا، ثم استطرد: «خنازير وجدوا قليلًا من الماء النظيف فحاولوا لحسه بلسانهم القذر ولوثوه، يظنون بأن لا أحد سيقدر على كشف قذارتهم، ولكن الخنازير رائحتها النتنة فائحة، والسمين منها نهايته ساطور، ستصيبنا قذارته في أثناء ذبحه، لكن الأمر اعتيادي».

برأس مرفوع للسماء قبض (حكّوم) على رقبته وقال: «وهل تملك الساطور الذي سيشق جلدي السمين؟» صمت برهة ثم تقدم خطوات ومد يده ليجذب (المحلمي) ناطقًا: «اهدأ يا باشا، وتعال نتحدث بالداخل». فأبعد الأخير يده باهتياج وجلجل: «لا تظن بأن النقود التي أعطيتها لك ستجعل رأسينا متساويين، وتجعلنا نتناقش وأتنازل عن أشياء، أنت شخص أجير، تم تأجيرك مدة، وسأؤجر غيرك، وابتعد من أمام عيني الآن حتى لا أهينك أمام أهلك». كرمش (حكّوم) وجهه وتلفظ: «ومنذ متى الستات تهين الرجال؟» وفي رفة عين نزل (المحلمي) بكفه على وجه (حكّوم) باهتياج.

أغمض (حكّوم) عينيه، كز ضروسه، التقط نفسًا هادئًا، والكل مذهول، كاد (خباس) و(ضاحي) يتقدمان لولا أنه أبعدهما، ثم ألقى بالبندقية، وهجم كالأسد على (المحلمي)، لطمه أكثر من عشرين لطمة على وجهه، ثم طعنه في بطنه بركبته فأناخ، جثم عليه ولكمه عدة لكمات خضبته دماءً، فقارب الرجل على فقد وعيه، نهض (حكّوم) من فوقه لاهثًا، ثم سحبه من أقدامه أمام الجماهير المشاهدة، و(العربجي) و(الوحش) و(البغل) والشباب يكومون رجال (المحلمي) حول (حكّوم) والرضوض والخمش يغلفونهم، وما برح (حكّوم) يشد في قدمي (المحلمي) حتى وصل إلى بركة مجارٍ، وأشار إلى أخوينا (خباس) و(ضاحي)، فرفعه (حكّوم) من قدميه، و(خباس) و(ضاحي) من منكبيه، ثم أرجحوه في الهواء، وألقوا به في بركة المجاري ليحدث فرقعة غرقت الناس حوله، ثم تراجع (حكّوم) إلى الخلف متسربلًا بالمجد مشيرًا إلى (حميد) الذي جلب له كرسيًا ونارجيلة، وقعد يدخنها أمام البركة مشبكًا الساقين، تحامل (المحلمي) على أقدامه منكسرًا متألمًا ممتقع الوجه، ثم وقف والمجاري تنقط من ملابسه، ورائحته باتت أسوأ من زبالي منطقتنا، حدق إلى عيني (حكّوم) بوعيد، ثم هجر المنطقة تزحف خيباته خلفه. وبعد ساعةٍ بدأ رجاله في الإفاقة، ومشوا راحلين ولكن كرامتهم بعثرت، فكان الناس يرشقونهم بالقمامة ويتمسخرون عليهم، وترك اليوم علامة في الزرائب كلها، انقلاب واضح وصريح من (حكّوم) على (المحلمي أفندي)، وأخبر (حكّوم) الكل بالقسمة الجديدة، الربع له، والبقية لأصحاب الزرائب، وكان الأمر مكسبًا عظيمًا لـ(حكّوم) من ناحية النقود والرجال؛ إذ إن أهالي المنطقة كلهم خضعوا له، ومكسبًا أعظم للناس بعد أن زادت منفعتهم نصفًا ويزيد عما كان ينهبه (المحلمي).

ومرت الأيام والشهور، وضيق (المحلمي) الأفق على (حكّوم)، فكانت الشرطة تدخل كل يوم المنطقة تفتش البيوت، وكانوا يزورون بيتنا في كل مرة، يبحثون عن مخدرات وسلاح، وكانت تصل (حكّوم) أخبار توجههم نحوه من داخل قسم الشرطة قبل وصولهم؛ إذ إن فساده التهم نفوسهم الهشة بنقوده، فطلب من الكل تخبئة ما يملكون من ممنوعات برهةً من الزمن، وكلما حضرت الشرطة تخرج برشوة من (حكّوم)، ويقعدون فيأكلون بطًا وحمامًا ودجاجًا ولحمًا وأحيانًا فطيرًا وعسلًا وجبنًا وكل خيرات الدنيا، ثم يتسامرون معه، يفتشون البيت بشكلٍ صوري، ينتشلون بعضًا من نقوده، ويرحلون، وتكرر الأمر وبان أنه لن يتوقف؛ إذ إن أوامر القبض على (حكّوم) خرجت من جهةٍ عليا، ويفتشون عن سبب أو دليل إدانة، وفي في أثناء الأحداث الغابرة، احترق كل شيء حولنا، بأبشع حادثةٍ وقعت في تاريخنا.

***

يومَ كؤود مر علينا، كنا ننام على شجرة الجميز، نكشف الزرائب كلها بأعيننا، ورأينا (ضاحي) يقف على ناصية شارعنا، يدخن سيجارة حشيش، وقد اشتد عوده وتعاظمت القسوة فيه، ومعه شابان آخران، يتمسخرون بعضهم على بعض ويغازلون بنات الناس في أثناء مرورهن، ويضرب بعضهم بعضًا ضاحكين، ويغنون ويمرحون. وبغتة، توقفت سيارة أجرة أمامهم، وترجل منها سائقها وركض مفزوعًا كأنه أبصر ملك الموت فاستولت علينا اختلاجة، دقيقة كاملة انصرمت، فاقترب (ضاحي) من السيارة متفقدًا، فترجل شابٌ

ثلاثيني يتلفت حوله بهلع، يستر نفسه بملابس مهلهة، ويمسك في يده بندقية غريبة الصنع، تسمر بجانب سيارة الأجرة، وظل يبصر ما حوله، فتحاور معهِ (ضاحي) ولم نسمع، فنزلنا من شجرة الجميز وتوجهنا صوبهم، فسمعنا الرجل يقول: «أنا هارب من الحكومة، اتركوني». فزعق (ضاحي): «سنأخذ البندقية ونتركك». فصاح الشاب بصوتٍ عالٍ: «لست من هنا، والشرطة تلاحقني». فابتدر (ضاحي) إلى البندقية وجذبها، فرفعها الشاب وصدمه بها في وجهه، فصرخ (ضاحي) وتقهقهر، وانطلق الشاب متعمقًا في الزرائب، فرفع الشابان الآخران اللذان وقفا مع (ضاحي) حجارة من الأرض، وقذفاها نحو الهارب، سقطت واحدةٌ على ظهره، فلف جسده وضغط على الزناد، خرجت ثلاث طلقات متتالية من البندقية دفعةً واحدة، فهلع الناس بجنون، سلاح عجيب، وشاب أهوج، أخ على (حكّوم) أن يؤدبه، لِمَ لَمْ يتركه يرحل، والأدهى من هذا أن (ضاحي) أمسك حجارةً هو الآخر، ورماها على الشاب، ليبادله ضغطةً أخرى على الزناد وتبعث أكثر من خمس طلقات دفعة واحدة، فأصيب ولدٌ من أصحاب (ضاحي) في قدمه برصاصة، صرخ وسقط أرضًا، فركض (ضاحي) إلى بيتنا، وقد طلب (حكّوم) من الناس عدم إخراج أي أسلحة، وعبث في أشياء (حكّوم) وسلب مسدسه وخرج، وقد كان يغط الأخير في نومه، فزع وفاق وخرج خلفه ممسكًا ببندقيته، ضرب (ضاحي) على الشاب طلقةً، فبادله الآخر ثلاثًا، ثم مشى في المنطقة يسب في الناس صائحًا: «أريد الرحيل يا أولاد الزواني، أين الطريق؟».

عويل وصراخ من كل جهة، النساء ينحن والشباب والرجال أخرجوا أسلحتهم البيضاء، وبالحجارة قذفوا الشاب يحاولون التضييق عليه، فشق جموعهم بسلاحه ضاربًا عدة طلقات، فأصيب واحدٌ آخر في ذراعه، ركض الشاب بفزع، وضرب طلقات متفرقة على الناس، حتى وصل إلى شارع المطراوي المسدود، الذي على جانبيه بيوت مرصوفة أسفلها زرائب، وفي الوجهة بيتٌ سكني، نظر خلفه فرأى سكان الزرائب كلهم يطوقون طرف الشارع، فأدرك أن الخروج مستحيل، وكنا منهم نرى ما يحصل، (ضاحي) شق الجمع الغفير، وضرب طلقةً بمسدسه، فهرع الشاب ورفع السلاح في وجهه من على بعد مسافة ثلاثين مترًا على أقل تقدير، وضغط على الزناد فخرجت خمس رصاصات دفعةً واحدة، شقت واحدة عنق (ضاحي)، وسقط أرضًا محدثًا دويًا، لحظة واحدة وأظلمت الدنيا حوله، وعلا الصراخ أضعافًا حتى وصل إلى السماء، وبرز (حكّوم) من بين الناس بجلبابه الصعيدي بعد أن عاد لارتدائه، ونظر إلى (ضاحي) فعلم أن روحه خرجت، لم تتبدل قسماته، وانتحبنا نحن على المسكين الذي لم تعلمه الدنيا سوى المفسدات فشربها وطبقها ليغضب المولى، وارتقت روحه لتقابله على ذنوبٍ تضاعفت كل يوم، حمله (الوحش) وطرحه جانبًا، ثم غطاه بملاءة، فقعدنا جانبه نتحسس شعر رأسه بحنو، ودمعنا يسقط فيحرق الوجنتين، ودماؤه المسفوحة تتوسع أسفله كحمم جهنم، واشتعلت الأجواء حولنا، والنار مضغت الدنيا، وأصبح الأمر ثأرًا، ليس لعبةً افتتحها ثلاثة شباب هوج.

اقتحم الشاب البيت في الوجهة، فكمن الناس في شققهم مهابةً منه، واعتصم هو فيه وضرب طلقات فتفرق الناس ودخلوا البيوت والزرائب، فأزمع (حكّوم) على قتله وتخفى في بيت، وضرب طلقةً من بندقيته، لم يفترسه حزنًا على أخيه، قسمات غليظة، وأعين صقرية، وقلب صلب، وضرب الشاب طلقات لا تعد صوب (حكّوم) فاستقرت في الجدار المتحصن به، طلقة من هنا، وخمس من هناك. أحضر السكان أشولة محملة بالزجاج، وألقوها جهة الشاب، لم يرتد، وترسخ الناس عاكفين على قتله، فقط احتموا من بطش الرصاص، ودامت الحرب أكثر من ساعة زمن، وسكت الرصاص من جهة الشاب، بعد أن أصيب واحدٌ آخر في بطنه من رجال (حكّوم). ونزل هدوءًا لا فرقعة فيه، فعلم (حكّوم) أن الرصاص قد نفد منه، وانحشر الناس في الشارع، وتحركوا كرجال محنكين، وانهدم الحلم في إزهاق روحه، رغم صراخ قلبنا إلا أن الله يدبر الأمر بحكمةٍ لا يعلمها أحد، فلم نود طلوع روحٍ أخرى؛ إذ تجلت سيارتا شرطة مصفحتان ورسختا على ناصية الشارع، ألقوا قنبلتي دخان مسيل للدموع، فتفرق الناس في هلع. وأخفى (حكّوم) البندقية أسفل جلبابه، دفنها في كلسونه. دلفت الشرطة في كتائب، اقتحموا البيت المواجه، وقبضوا على الشاب، يترأسهم ضابط أربعيني اسمه (إسماعيل بيه الخياط)، وخرجوا مكلبشين الشاب، فهرع (حكّوم) نحوهم وخلفه أخونا (خباس) و(العربجي) و(الوحش) و(البغل) ومن ثم رجال المنطقة كلها، وتوقف كل شيء ثابتًا، لا تتحرك نملة، تسمرت الشرطة مكانها

لا ترى طريقًا للخروج، فقال (حكّوم): «اتركه يا باشا». زجر له الضابط وصخب بصوتٍ مهيب: «أأنت مجنون؟» فرد (حكّوم) شزرًا: «أترى تلك الجثة على ناصية الشارع؟ أخي».

قال الضابط بحنق: «يا حكّوم، الرجل هارب من حكم إعدام، هو ميت، ولن يفيد قتله بشيء، اهدأ واترك القانون ينفذ». نظر (حكّوم) إلى العوام قائلًا: «لننفذ القانون هنا، أمام الناس، نشنقه هنا». كشر الضابط ناطقًا: «الأمور لا تسير هكذا، أفسح الطريق». وضع (حكّوم) يديه فوق رأسه وانحنى برفق متلفظًا: «حذاء الحكومة فوق دماغي». ثم اعتدل في وقفته: «لكننا صعايدة، والصعيدي لا يترك ثأره، سنوسع لك طريقًا طويلًا على جانبيه رجال لا تخلص، وسنوصل الحكومة إلى قسم الشرطة على أكتافنا، كل هذا سيحصل إن تركته».تقدم الضابط خطوتين حتى التصق به: «أتهددني يا حكّوم؟» اختطف (حكّوم) الحديث منه: «لا، لا سمح الله، كما قلت حذاء الحكومة فوق دماغي، ولكنه لن يخرج إلا جثة، طبق قانونك واشنقه أمامنا، أو نشنقه نحن». بأعين ثاقبه خرجت كلمات (الضابط): «لا أريد حبسك في ظروف كتلك». وأخرج الضابط سلاحه من غمده، ففرد (حكّوم) يديه إلى فوق علامةً على الاستسلام، ولف جسده ببطء نحو أهل الزرائب، وقسمات وجهه ترشدهم إلى التخريب، كشفنا الدنيا وكأنها تسير ببطء وئيد يخنق الصدور، كل شيء بان أمام أعيننا يهتز بتلكؤ، وكأنه فيلم تصويري. أخرج (حكّوم) بجنون البندقية من أعماقه، ولف جسده بسرعة الريح، وضرب طلقة استقرت في وجه الشاب، الذي سقط جثة هامدة في جزء من الثانية وسط رجال الشرطة المذهولين، ورياح الخماسين ضربت الموجودات، فهاجت الدنيا ومادت، تمور الأرض أسفلنا، ولم يستوعب (إسماعيل بيه الخياط) ما آلت إليه الأمور، وتبخر (حكّوم) في الهواء، وغاب عن الأنظار، وضغط سكان الزرائب أجسادهم صوب رجال الشرطة صانعين حلقة دائرية، طوقوهم حتى اختنقوا، وما إن خرجت طلقات حية تحلق في السماء، حتى تفرق الناس كالطيور، ولكنهم لم يهربوا، بل افترشوا أسطح المنازل حولهم. وتجلى (حكّوم) مع مجموعة من الرجال على ناصية الشارع وأغلقوه، وحمل مَن هم على الأسطح أشولة معبئة بالزجاج، وأمطرت السماء على رؤوس رجال الشرطة زجاجًا وحجارة، ومَن حاول منهم الخروج اصطاده (حكّوم) بصحبة الرجال وذاقوه من التنكيل ما لا يطيقه بشر، هيجان وانتفاضة وعدم تساوٍ في الكفتين؛ إذ إن الشرطة امتنعت عن استخدام أسلحة الموت، فاحتمت في المنازل رعبًا، والأمر كان واضحًا، (حكّوم) قتل الرجل، ولو اجتمعت شرطة العالم لن تستطيع زجه في السجن، فقرر إظهار قوته لهم ليفكروا قبل أخذ القرار، وتأديبًا لرفضهم الثأر لأخيه، والقاتل بالنسبة إليهم مسجل خطر لا قيمة له في المجتمع، وموته كان حتميًا، والله لو تركوا الأمر لتعاليم الله لما قتل (قابيل) (هابيل)، إنهم لمغيبون، والنهاية سواد، كلنا سواسية كأسنان المشط، ولكنها التفرقة البشرية العمياء، ومن أخطأ فشرع الله واضح، ولا تحكمنا قوانين الغاب.

ازداد الأمر خرابًا؛ إذ إن (إسماعيل بيه الخياط) رشقت زجاجة برأسه الأقرع وتركت ندبة لم تمح، لم تقدر الشرطة على الخروج، وحمي وطيس المعركة لثلاث ساعات، سيارة دعم من الشرطة مملوءة عن آخرها حضرت المنطقة ولم تستطع إنقاذ ذويها، ومن ثم سيارة أخرى، وثالثة، وانتشرت قنابل الغاز المسيل للدموع في كل بقعةٍ بالزرائب، والشرطة ارتدوا الأقنعة، واستطاعوا بعد كبير مجهود السيطرة على الأوضاع، وطلع الكل فوق الأسطح هربًا من الدخان ومنهم، وكان من بينهم (حكّوم)، الذي أمسك بندقيته وقد تلاعب بالأمور كالشيطان، وأوقع نفسه في مصيدة يعرف طريق الخروج منها، واعتقدنا بأنه سيسجن، ولكن ما حدث كان خيالًا لا يصدق، بعد أن هدأت الأمور، وقف (إسماعيل بيه الخياط) وسط الزرائب، رمق (حكّوم) بعينين ثاقبتين، ثم أشار للعساكر حوله ورحلوا في هدوء مسهب دون محاولة القبض على أخينا.

وفي فجر اليوم التالي، خرجت جنازةٌ من بيتنا، وعويل أمنا وصل إلى الصعيد تطلب من الله السلوى، صراخ وانتحاب من نسوان المنطقة كلها، وبكينا نحن، ورفعنا على أكتافنا نعش أخينا مكسورين مع إخوتنا، والرجال تتدافع لتمسه بأصابعها مساعدةً لتحليقه، وخرجت المنطقة كلها خلف المرحوم، صلينا عليه الفجر، ثم وصلنا إلى مقابر الخصوص، فوجدنا رجال الشرطة مرصوفين حول القرافة ومن بينهم (إسماعيل بيه الخياط)، ومشوا خلفنا في الجنازة، ونظرات (حكّوم) أخينا كانت قلقة مرتابة، لكن (إسماعيل بيه) أعصابه

بدت باردة، وصلنا إلى عين دفنٍ جديدة، وكان قد اشتراها (حكّوم) الليلة الفائتة بعد أن أدرك أن الدنيا فانية وسيأتي يوم ونكوم جثثًا تعفن في التراب، وقد كتب علينا أن تكون نومتنا الكبرى في الخصوص، وانتهينا من دفن (ضاحي)، وأقام (حكّوم) سرادقات العزاء لثلاثة أيام غطت شارعنا كله، وجلب مقرئًا من الأزهر الشريف، والناس كلها قعدت على الكراسي من الصبح حتى منتصف الليل، مسيحيين ومسلمين، وتوقف العمل في المنطقة، وسكتت الكنيسة حدادًا، وحضرت الشرطة الثلاثة أيام، كأنهم يؤمنون المكان، وتكهنا بأن (إسماعيل بيه) يريد شيئًا من أخينا (حكّوم)، فقد قتل أمام أعين الشرطة، ولم يقبض عليه، مرغ هيبة الباشا في الطين ودعسها، وكان يحضر فيجلس ساعات طويلة مع أخينا، حاولنا معرفة ترابطهم ففشلنا، وكان يغيب (حكّوم) من المنطقة أيامًا مع رجاله، ويترك (الوحش) ليدير شؤون الزرائب، ويعود فنبصر رجالًا مجروحين، حتى يوم أغبر، عاد ناقصًا رجلًا، ولما تساءل أهله أغرقهم في المال تعويضًا، وفطنا إلى أنه مات، وفهمنا أن (حكّوم) يقوم ببعض الأعمال الوسخة إرضاءً للباشا، وتوالت الأيام، فعادت الأمور إلى نصابها، وهدأت الدنيا، ولم يخرج (حكّوم) من المنطقة، كأنه كان اتفاقًا وتم تنفيذه، ولم نعرف حتى الآن ما كان يحققه للباشا، كل ما تبيناه أنهما صارا صديقين، يزوره (إسماعيل) من وقتٍ لآخر، وتلقى (حكّوم) احترام الشرطة من كبيرها وصغيرها، ونشأت بينهم صلة ترابط واحترام، وركضت الدنيا مسرعة ولم تقف على ميت، ورجع العمل على قدمٍ وساق، ولم تضايق الشرطة (حكّوم) مرةً أخرى، ونتيقن تمام اليقين بأن (المحلمي أفندي) حاول استرجاع هيبته وكرامته، ولكنه فشل، وعلم بأن البساط سحب من أسفله، فترك الأمر واختفى، ولم نره بعد واقعة المجاري، نشل نفسه من العفن والوسخ الذي صنعه، وتركنا موحولين فيه.

وازدهرت تجارة المخدرات والسلاح مع (حكّوم)، وقدم عديدًا من التجار الكبار، وشككنا بأن (إسماعيل الخياط) تلطخت يده معه؛ ذلك لأنه كان يقعد في اجتماعات التجار، وساعدوا جميعًا على إدخال الحشيش مصر، وإفساد شبابها الأنقياء، وكل يوم الكمية في تزايد، وتغير حال الناس حولنا من بشرٍ إلى شياطين، فكل المنطقة أضحوا عمالًا لدى (حكّوم)، رجال ونساء، وكأنها إمبراطورية يحكمها، فإما يطلعون على كارو ويلمون القمامة فيكون عملهم شريفًا ويأخذ (حكّوم) نسبته، وإما يتاجرون في مخدراته فيبيعونها خارج الزرائب أو على نواصيها لساكنيها، وتعاظمت الذئاب في نفوسهم، فيبلطجون بعضهم على بعض، ويضرب بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، فكل برهةٍ من الزمن يسقط قتيل في مشاجرة، وتتدخل الشرطة طلبًا للمساعدة من (حكّوم) ليحلوا القضية، وفي معظم الأوقات يقبضون على القاتل، ولم يسلم غريبٌ أو قريب، الناس ينهش بعضهم بعضًا كالكلاب، وكل بيت يسكن فيه سلاح دفاعًا عن النفس، أو ليستخدمه صاحبه في أثناء السرقة، أو قطع طريق على غلبان يمر أو زائر، وتنبثق الأسلحة حين تطرأ مشكلة، ويحل (حكّوم) المشكلات، ولكن الناس يتشبهون به، يتذللون أسفل ظله كأنه معبود، يدعوهم للصلاة فيصلون، ويخرجون من المسجد فيرتكبون البلايا والرزائل والمعاصي، لا صلاح في قلوبهم لو بني ألف جامع.

وانعزلت المنطقة على أوشابها، وخاف الكل اقترابها، حتى الشرطة فقدت الأمل في السيطرة عليها، وظل الاحترام والعمل قائمين بين (حكّوم) و(إسماعيل بيه الخياط)، فتركت الشرطة حكم المنطقة وحل مأزقها لـ(حكّوم)؛ فهو الحاكم والأول والآخر بالنسبة إليهم، رمز تدين المنطقة الكافر والفاسد، يظهر فيعظمونه، يغيب فيذكرون اسمه ويتشبهون بصفاته، ويرتكب المعاصي عيانًا فيصلي ويتعبدون خلفه، يتاجر في المخدرات ويذبح عجلًا لله، يوزع الأموال على المحتاج، ويقرض القادر بالربا، والله إن صفات أمنا كلها تجمعت فيه هو و(خباس)، ذلك الذي ينام مع الستات دون خشية، ويعلم الكل عنه تلك الأفاعيل ويخافون مواجهته، المتبرجات من سكان المنطقة يتغزلن فيه فيرتكبن الخزي دون خشية، والمصونات يوقعهن في شباكه بكلمات الحب والغزل، ولأنه أخو (حكّوم) كبير المنطقة ما إن يحوم حول امرأة لا تصدق نفسها وتهيم عشقًا به، حتى تقع في المحظور ويتركها، فهناك رجل علم بعلاقته مع زوجته، اختفت الست في ظروف غامضة، ولم يعثر عليها، ولم يواجه الرجل (خباس) بكلمة، لكن الكل يعلم أنه قتل زوجته، وماتت الحكاية مع الوقت.

يدير (خباس) خمارته لبيع الخمرة والقمار، وقبل دخوله البيت يصلي طلبًا للمغفرة، ولأن سكان الزرائب

جاهلون، كانوا يبحثون عمن يؤمهم للصلاة، وعندما حاولنا نحن لم نزَ القبول في أعينهم، لكنهم صمتوا وخافوا الاعتراض لأننا أخو (حكّوم)، ودام الحال معنا أيامًا معدودات نبتَ في قلوبهم الإيمان والتقوى، ونرجو من الله أن يلينهم فيعودوا إلى الطريق القويم، لكن كلامنا أغضبهم؛ إذ إنه أصاب أسيادهم، فاقترح المعلم (الوحش) أن يؤم بالصلاة (خباس)، فهو أولى بالناس منا، وهو قريبٌ منهم، وعلى حد قوله هو لا يترك فرضًا، وأبصرنا الخوف في أعين (خباس)، لعدم حفظه آيات الله، وحاولنا مساعدته آملين أن يغير من نفسه، وكنا نحفظ له القرآن، ونقرأ له الآيات التي تدل على أن أفعاله حرام، ولكن عقله لم يستوعب، فتحدثنا معه بلين وحكمة، فنهرنا ولم يقبل حديثنا، وانتهى الأمر بأنه أخبر (حكّوم) أننا نرى أن عيشتهم حرام، فتأكد أن كلامنا في الجامع كنا نقصدهم به، فضربانا الاثنان وطردانا من الزاوية، وخرجنا مدحورين نعزف على أحزاننا، ننام على شجرة الجميز ونصلي تحت ظلها، واتجه (خباس) لإذاعة القرآن كي يحفظ، وسمعناه يؤم الناس في مكبر الصوت، فكان صوته بشعًا في قراءة القرآن، وربط آيات بعضها ببعض ليست في السورة نفسها؛ لعدم معرفته بالقرآن وترتيبه، فكان يقول آيةً من البقرة ومعها واحدة من المائدة، واثنتين من الفلق وواحدة من الجن، ومن ثم يعيد ترتيبها على نحو مختلف، ثم يستخدم آيات وسورًا أخرى، ويبدو أنه يجتهد في الحفظ ولكن بصورة خاطئة، حتى إن النطق خرج منه غير صحيح، وأخذ مكانة عظمى بين الناس، وأصبح مسؤول الدين الأول والأخير في المنطقة، وكانوا يستفتونه في أمور دينهم، وترك لحيته فنبتت، ثم تمددت كأفرع الشجر.

ومن العجاب أن المعلم (سيد زكيبة) جمع بين أختين وتزوجهما، فقد تزوج واحدة، وبعدها بخمسة أعوام تزوج الثانية، وأقام عرسًا في المنطقة، وكانت كارثة بالنسبة إلينا، ولما تحرينا الأمر علمنا أنه أخذ الفتوى من (خباس)، وكانت حجة الأخير أن سيدنا (يعقوب) -عليه السلام- جمع بين أختين، ولا يعرف أن هذا الأمر كان مباحًا ومن ثم تم تحريمه، والله لم نزَ جهلًا بهذه الطريقة، ومع فساد أخلاق الناس، فسد دينهم، كنا نأمل إصلاحهم، حين قدمنا رأيناهم بعيدين عن الدين، لكن نفوسهم كانت بها بعض الطيبة، تحتاج فقط إلى إرشاد، وجاء الإرشاد من مفسدي الأرض إخوتنا.

المشهد العام أضحى مرعبًا، نعيش في رهق وسط وحوش تنهال على الدنيا فتقطعها بمخالبها، يأكل بعضهم بعضًا ولا يرجعون لكتاب الله في معاملاتهم، السباب أصبح لغة العامة وانتشاء، فقد اعتادته الآذان، فالغلام يشتم، والشاب يسب، والعجوز يلعن، والستات من كل لون يقذف بعضهن بعضًا بأقذع الصفات، والعيال تولد من رحم أمها عالمةً بكل ما هو خسيس ودنيء، الطفل تحسبه بريئًا فيلعن كل من سكن قبر عائلتك حتى يصل إلى الجد الثامن عشر. وإن مر أحدٌ من المنطقة يُعرَّض للنشل والسرقة والضرب، وإن اعترض يتطور الأمر فتكون جريمة قتل، ولا يهاب الناس السجن، والبنات يمشين في الشارع فلا يسلمن من لذع ألسنة الشباب، ويصنع ذلك مشكلات كل يوم، ويتدخل (حكّوم) ففي يده لجام الأمور ويحل أفظعها بكلمة، ويهابه الكل ويخشون غضبه.

ونسي الجميع في الزرائب ربه رغم مواظبة معظمهم على الصلاة، ولا يرتكبون سوى الفواحش؛ السرقة، والجباية، والضرب، والقتل، تلك أخلاقهم. إن ارتطم أحدٌ بآخر دون قصد، من الممكن أن يكون هذا سببًا كافيًا لترك علامة على وجهه بمطواة، والمعتاد رؤيته يوميًا سيدات المنطقة اللاتي يرتدين ملابس قذرة نجسة تشبه الرجال ويضربن حمارة تسحب كارو -مليئة بأشولة الوسخ- بسياط يشقق جلد المسكينة، ويشتمن أم من يعترض طريقهن ويخضن في عرضها لأنه لم يفسح الطريق.

رغم هذا، الناس هنا مساكين، جبروا على وضعٍ لا يملكون فرارًا منه، ولدوا في أتعس مكانٍ خلق، يتعرضون للمهانة والذل على يد الأعيان خارجًا، الفقر اغتصب نفوسهم فانساقوا خلف مَن خرب أحلامهم، تحولوا إلى كلاب بحثًا عن الثراء، ينهش بعضهم بعضًا من أجل لقمة العيش حتى لو تيسرت، وخارجًا، يقوسون ذيولهم على مؤخراتهم ويصرخون راكضين عندما يتعرضون للسباب والضرب على يد من يلقون لهم زبالتهم، واستخدموا حق الدفاع عن أنفسهم، فأكل بعضهم بعضًا بأسنانٍ حادة، وسرقوا كل ما تطوله أياديهم.

***

تجلت السماء باهتة، الغيوم تغلفها، تتكور ببطنها، وصراخٌ مكتوم تصدره الرياح، يومَ عويص نحمد الله فيه، نصلي ونسبح ونتعبد على نعمة السمع والبصر والحديث وصحة الجسد وخلوه من أي أمراض، توسدنا شجرة الجميز وتلحفنا بأغصانها في نهارٍ لا شمس فيه، فإبر البرد تنغرز في لحمنا، فلا نملك دثارًا. وتابعنا بأعيننا حركة الناس، وقد اعتدنا الرائحة، تقتلنا ولكننا نرضى، والله إن الدنيا زائلة، ولا نبغي منها غير رضا الله سبحانه، واعتدال أهلنا الذين عاثوا فسادًا.

نظرنا إلى السماء، وأغمضنا أعيننا، وحلقت أنا روح (صابر) إلى ملكوتٍ لو يعلمونه لتابوا، أصوات السباب تخنقنا، والشجار لا يتوقف كأن الشيطان يتربع فوق رؤوسهم، وفي جلستنا الروحانية، وفدت فتاة عشرينية إلى المنطقة، خمرية اللون سوداء الشعر عسلية العينين جميلة فاتنة، وكان اسمها (عزة)، تحمل على رأسها وعاءً مستديرًا يحمل صنفين من الطعام، وجلست أمام خمارة (خباس) التي تفتح في النهار كمقهى وفي الليل وكرًا للعاهرات والسكارى. وكشفت البنت عن محتويات وعائها؛ أصابع كرنب محشوة بالأرز، وحلوى البسبوسة، تبيع أصابع المحشو الخمس بخمسة قروش صاغ، وقطعتي البسبوسة بنفس السعر. وجلست تنادي على بضاعتها، وتهافت الناس عليها واشتروا كل ما معها، ثم رحلت، وعادت، وقد فتنوا بطعامها، فكانوا يزورونها من وقتٍ لآخر، ومر ثلاثة أيام، حتى تحرش بها شاب من المنطقة، فخلعت شبشبها ونزلت على رأسه صدعته، فسبها وشدها من شعرها وسحلها أرضًا، تجلى (خباس) بأنياب مكشرة، وكان يتابع البنت من خمارته، فأمسك الشاب وضربه وأهانه وسط الناس، وفرد منكبيه وسار مزدهيًا وبان بطلًا في عينيها، واشترى منها كل ما تملك ووزعه على رجال الخمارة، وكانت كلما تأتي وتجلس لتبيع، يشتري ما معها، ويُجلِسها بجانبه ويقدم لها شايًا دون أن تدفع مليمًا، وتوالى الأمر أسبوعًا، حتى مد (خباس) يده ولمسها، فصرخت فحاوطهما الناس، وصفته بالمتحرش ولذع لسانها قطع جلده، لكنها كانت كمن تحدث نفسها في صحراء، ثوانٍ معدودات وتفرق الناس كطابور النمل الذي عبث فيه طفل، فلملمت أشياءها ورحلت، مضى يومان ولم تظهر، وكان (خباس) يراقب مكان قعودها، حتى تجلت، فتغزل بها، لكنها تجاهلت وجوده، كأنه نسمة كريهة عابرة، وبدت قسمات وجهها صلدة غاضبة، وانفلت شهر، يعافر (خباس) معها لتلين، لكنها لم تسقط في براثنه، ومع خفقانه، ثمل بها، فقرر الزواج بها، وسعدنا بحق؛ إذ إن هذا الأمر من الممكن أن يغير منه، وتقدم لخطبة البنت، فعلمنا أنها لا أهل لها، وأنها تنفق على نفسها وتسكن في غرفةٍ وحدها بالقرب من مقابر الخصوص، فآواها (خباس)، وبنى لها شقةً فوق بيتنا، دورًا ثانيًا غير الأرضي -الزاوية-، والأول الذي يمكث فيه أهلنا، وأقيمت الأفراح ثلاث ليالٍ دون هدنة، وسعد أهالي الزرائب، وابتهجنا؛ إذ إنه يعف نفسه، ورقصنا في عرسه، توسطنا الناس وأغمضنا أعيننا ورفعنا رأسنا لأعلى ثم تركنا جسدنا يلف في دوائر، ورقص الناس حولنا، وكانت أيام هناء على منطقتنا. وراقبنا (خباس)، فوجدناه مغتبطًا، واعتزل النسوان إلا زوجه، وانسلت الشهور فأنجب ولدًا يحمل ملامحه، وأقيم سبوع ذبح (حكّوم) فيه جاموستين، ووُزع اللحم على أهالي المنطقة كلهم، وساعدت النساء أمنا ليطبخن أكلًا لأهالي الزرائب، وصنعن وليمة عظيمة امتدت بطول شارعنا، وأكل الكل وشبع حتى أصيب البعض بالتخمة، لكننا لم نأكل، رفضنا؛ إذ إن أكلهم حرام، و(حكّوم) نهرنا وشتمنا أمام الناس حينما قدمت أمنا لنا طبقًا فيه قطعتين من اللحم ووافر من الأرز والبسلة المطبوخة فأعرضنا، وكان نصيبنا توبيخًا وسبابًا وآذى، فخرجنا من احتفالهم وقعدنا على شجرة الجميز نمدح سيدنا النبي -صلوات ربي عليه-، ونمنا بعد صلاة فجرٍ داوت قلبنا المجروح.

كان يغترب (حكّوم) عن المنطقة، يختفي أيامًا هو و(العربجي) و(الوحش) و(البغل)، ثم يعود، وقد توسعت تجارته، فأحضر قليلًا من الأسلحة، ثلاثة مسدسات وبندقيتين، ويبدو أنه على وشك التجارة بالسلاح.

مررنا من أمام البيت، فنادت علينا أمنا، قبلتنا وقعدت تتحدث معنا وتستخبر أحوالنا، وكان حديثنا قليلًا، وعرفنا أن (حكّوم) يعمل مع تاجر أسلحة ومخدرات مهيب في سيناء اسمه المعلم (سليمان الثعلبي)، ولهذا يسافر مبتعدًا عن الزرائب ليباشر تجارته، واحتضنتنا أمنا لكننا لم نشعر بحنان، كأن قلبنا أصيب بفتور من

أفعالها، وربتت على قلبنا وطلبت أن ندعو لأخوينا. ابتسمنا، ألا تعرف أننا لا نكف عن الدعاء لينجدهما الله من أكل السحت! وقد كبرت سنها، تجاوزت الخامسة والخمسين على أقل تقدير، وغزت التجاعيد وجهها، يلتف الذهب على ذراعيها الاثنتين وأقدامها وأصابعها وصدرها وأذنيها كأنها مومياء ستحنط ويدفن الكنز معها، وحاولت إطعامنا لكننا أبينا. طلبت منا أن نبيت معهم، ولتجنب المشكلات؛ وافقنا على مضض، وفي الليل رحلنا دون أن يشعر بنا أحد.

غاب (حكّوم)، لكن تلك المرة كانت على غير العادة؛ فقد عاد ومعه فتاة غانية اسمها (جواهر)، لكنتها لا تشبه سكان القاهرة ولا الصعيد، فعلمنا أنها من عرب سيناء، باتت يومين في البيت ثم أعلن أنه سيتزوجها، وأنها ابنة الرجل الذي يتاجر معه (سليمان الثعلبي)، وأحضر مأذونًا وكتب كتابه، وقرر الزواج في الدور الذي تعيش فيه أمنا وأبونا و(شربات)، ولم يقم عرسًا، وتساءل الناس، فعلمنا أن أباها قُتل في مناوشات مع الشرطة، ولم يذكر السبب، رغم وضوحه كنور الشمس في إشراقها، كانوا يهربون السلاح أو المخدرات وتشابكوا مع الشرطة، ولم تخلع البنت الأسود، وتآلفت واندمجت مع أمنا، فنشأ بينهما الحب أكثر من (عزة) زوجة (خباس) التي تتمرد على أشغال البيت ولا تزور أمنا إلا قليلًا رغم أنها تسكن فوقها.

كنا نرى دخانًا يخرج في الليل من نافذة بيتنا، كثيفًا كالسحاب، ونسمع همهمات غير مفهومة، وقررنا التلصص، رغم أننا نعلم أنه حرام، لكننا نخاف على أهلنا، وعلمنا أن (جواهر) تصنع سحرًا، وحاولت أنا الارتقاء عن جسد (صابر)، لأحس بما تفعله، فأنا عالمةٌ بما لا يستوعبه جسده البالي. ولما اقتربنا، بانت الرؤى، تصنع أعمالًا وتتقرب من الشيطان، فجزعت وامتعضت، وشعر بي (صابر) فتراجع، وكرهناها هي وأفعالها التي تُغضب الله، ولم نقترب منها يومًا بعدها. ومر عام على زواجها بـ(حكّوم)، ولم يرزقه الله بأطفال، ولكن (خباس) أنجب ولدًا آخر، وأقيم سبوع جلجل في المنطقة كلها.

برز جسد (شربات) أختنا، وأضحت أجمل بنت في المنطقة، براقة المظهر، يتلصص الرجال عليها بحذر حيطةً من كبيرهم (حكّوم)، تمشي بتميس تهز عجيزتها لتشتري مستلزمات البيت فتنتصب الأشنبة بفحولة عنترة، لكن بأجساد ترتجف؛ فالمعلم (حكّوم) لو علم أن أحدًا ينظر إلى أخته ستوافيه المنية. وتتبرج في وضع الزينة، فعلمتها (جواهر) التبرج، رغم أن الأخيرة تكحل فقط عينيها النجلاوين، وتغطي أختنا جسمها بملابس كاشفة، ولم يخطرها أحدٌ بأن هذا حرام، ولم يتقدم لخطبتها شاب رغم جمالها الساحر؛ اتقاء شر أخينا (حكّوم)، فلو أحزنها يومًا يهلك، ولذلك وصلت إلى سن الثالثة والعشرين ولم يتجرأ رجل على دخول البيت لزواجها، وتلك سن كبيرة بتقاليدنا في الصعيد، لكنه أمرٌ طبيعي عند أهل القاهرة، وظلت وحيدة تحتضن جمالها، وكانت سيئة الخلق، تسب وتلعن، صوتها عالٍ، تنم على الناس وتخوض في سيرتهم، وتصنع المشكلات أينما حلت، يهابها الناس لأنها أخت (حكّوم)، وللذع لسانها السليط. أمنا تركت عفنها يتخذ من قلبها عشًا، والله إن أمنا هذه بوجهين، في الصعيد كانت حملًا وديعًا، وتبدلت شيطانًا، قتلت، وظهرت أفعالها الدنيئة، نكرهها، رغم أنها أمنا، حاولنا التقرب منها توصيةً بحديث رسولنا الكريم -صلوات ربي عليه- بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، لكننا لا نرى سوى جهنم تجري أسفلها، نود لو تغير من حالها، ونغوص أسفل قدميها، لكن الشيطان أفسدها، وما باليد حيلة.

توقف الناس عن الوفود إلى منطقتنا، لكننا أفقنا من النوم ذات يوم على أفندي ثلاثيني يرتدي بدلة كلاسيكية بدا لدنًا مائعًا، تتأبطه ست عجوز، وسيدةٌ عشرينية متوسطة الجمال. في بادئ الأمر اعتقدناه صحفيًا يريد أخذ سبق عن المنطقة، لكننا نحينا الفكرة عن عقولنا؛ إذ إن الصحفي لن يشد معه سيدتين إحداهما قد قاربت على الستين، ولو كان صحفيًا لقُتل في الحال، فمنذ بضعة أشهر كان (خميس كلبة) ابن (أبو حربي) الحوذي وعمره سبعة عشر عامًا قد حضر شخص إلى المنطقة، وأعطاه بعض المال ليلف به في الزرائب ويكتشف معالمها، وقد كان يحمل في يده بضع أوراق وقلمًا، يدون كلما أبصر شيئًا، فأقلقت الناس هيئته النظيفة، وأوقفه المعلم (سيد زكيبة) واستفهم منه، فكان حديثه متعرجًا غير مفهوم، ومع التضييق عليه علم أنه صحفي يريد كتابة خبرٍ عن المنطقة، فتكالب الناس في الزرائب كلها عليه ونكلوا بجسده حتى إن (بغاغة)

كاد يطعنه بسكين، لولا أن (حكّوم) سلبه منهم وأفهمه أن المنطقة هنا خط أحمر، فهرب الصحفي غير مصدق بأن روحه ما زالت قابعة في جسده، وامتنع أهل الزرائب عن الكلام مع (خميس كلبة) الذي لم يكن يعرف أن الرجل صحفي، وحلف بكل الأديان حتى صدقوه لكنهم تصرفوا معه بحذر. ومنذ ذلك اليوم لم يزرنا صحفي، وذلك الرجل الذي لف المنطقة على قدميه وهو يحذر خطواته حتى لا تطولها نجاسة، ويكتم أنفاسه بيده هو والسيدتان متأففين، يبدو أنه مسكين رغم بدلته المنمقة وليس صحفيًا، وقد تأكدت ظنوننا بعد أن سلك طريقه إلى خمارة (خباس) وسأل عن غرفةٍ للإيجار. تمسخر عليه الناس بأنه نظيف، ورخو، وناعم، وأن عيشة الزرائب ستفنيه، ولم يقابل الإهانة إلا بابتسامةٍ سمجة وإصرار على المكوث بمنطقتنا. وكان (حكّوم) يجلس على الخمارة يشرب النارجيلة، فدار بينهما حوار: «أتركت أرض الله الواسعة وتبحث عن سكنٍ هنا!» فرد الشاب بدماثة وقد بدا مهيض الجناح: «والله يا معلم نحن أناس بسطاء، ولا تخدعك البدلة؛ إنها الوحيدة التي أملك». فقال (حكّوم): «وما الذي أحضرك إلى هنا؟» فرد الشاب بكياسة: «سمعت أن العيشة هنا رخيصة». ضحك (حكّوم) بصوتٍ خشن، ثم سعل وتلفظ: «حياة الزرائب لا تناسبك، اذهب إلى منطقةٍ أخرى» قدم الشاب نحوه وقال بانكسار: «أبوس يدك يا معلم، الدنيا أغلقت أبوابها في وجهي، طردت من عملي ولا أملك مليمًا واحدًا، وكنا نسكن في شقة وفرها لي صاحب العمل، ولكن الأمور بيننا وصلت إلى نهايتها». عدل (حكّوم) من قعدته وتساءل: «وماذا تعمل؟» رد الشاب: «أنا مؤلف روايات، صدرت لي رواية وفشلت، وصاحب دار النشر كان قد وضع في آمالًا كثيرة، وعندما فشلت الرواية في البيع اعتذر عن العمل بيننا وفسخنا العقود وسحب مني الشقة». لم يستوعب (حكّوم) حديثه فقال: «صحفي يعني؟» فرد الشاب سريعًا: «لا يا معلم، مؤلف قصص». تزعم الصمت الموقف، وبردت النبرات، وأخمد (حكّوم) نار الشيشة، ثم بحلق في عيني الأفندي: «سأساعدك، ولكن إن كتبت كلمة عما يجري هنا» ترك خرطوم النارجيلة من يده ووقف مدققًا بناظريه آخر الخصوص: «سأبني لك عينًا في القرافة» ثم تحرك قائلًا: «اتبعني».

سلمه غرفة فوق سطح بيت (الوحش)، كانوا يسهرون فيها أحيانًا ويعاقرون المخدرات، فسكنها الشاب هو وأمه وأخته، وعلمنا أن اسمه (حسن أفندي) وكان (حكّوم) يبعث له طعامًا ليحيا شفقةً بحاله؛ فهو كريم ويتصدق على كل محتاج، وخيرًا يطلب من خلاله مغفرة ربه. رغم بشاعة صفاته، فهو جاحد ماهن للفساد، واتسمت دواخله بالتضاد. ومع الوقت رأت (شربات) الأفندي، ويبدو أنها أعجبت به؛ إذ إننا كنا فوق شجرة الجميز نلاحظ نظراتها إليه من نافذة البيت ساعات كاملة بنزوع، وكانت تأخذ الطعام توصله إليه، وأصبحت تجلس مع زوجة (الوحش) رغم أنها كانت تتجنب نساء المنطقة كلها. وبعد وقتٍ وجيز تقدم (خليل) الحلاق لخطبة أخت الأفندي، ووافق، وتولى (حكّوم) مصروفات العرس بنفسه.

كتب الأفندي قصة، ولم يستطع أحدٌ قراءتها؛ فسكان الزرائب كلهم جاهلون، وكان (حكّوم) يراقبه خوفًا من أن يكتب عن أهل منطقتنا. وفي يوم اقترب (حكّوم) من شجرة الجميز ومعه الأفندي يمسك في يده مجموعةً من الورق، فنادى (حكّوم) وقال: «يا نسناس عائلة أبو حماقة». ابتسمنا بود للإهانة، فطلب منا النزول، ترجلنا من الشجرة، وأعطانا الورق، وطلب منا قراءته؛ إذ إننا قد التحقنا بالكتاب ونحفظ الناس القرآن فحذقنا القراءة والكتابة، وعاش معنا الورق يومًا، فقرأنا قصة عن شخصٍ يسكن في بيتٍ مليء بالوسخ والعفن، وكلما قام بتنظيفه يصحو من نومه فيجده أكثر اتساخًا، وعاش عمره كله في الوحل حتى انغرز فيه، ولكنه لم يكن راضيًا عن بيته، حتى تمرد عليه في آخر القصة وتركه ورحل دون وجهة، لا يعلم طريقًا يسلكه، ولكنه كان سعيدًا لأنه لأول مرةٍ شعر بأنه نظيف ورائحته طيبة.

كانت هناك رسائل خفية بين أسطر القصة، ووصل المعنى لنا، فتأثرنا بكل كلمةٍ وحفرت في قلبنا خدوشًا، وحكيناها لـ(حكّوم) فضحك مستهزءًا، وأخذها الأفندي ونشرها في الجرائد، وبدأ في تحصيل بعض الأموال من عمله، وبعد وقتٍ قليل تقدم لخطبة (شربات)، وكانت صاعقة نزلت على (حكّوم) الذي نهره وأهان كرامته أمام الناس، وكان سيطرده من المنطقة إلا أنه عفا عنه وأعطاه فرصةً أخيرة، وأضربت (شربات) عن الطعام ثلاثة أيام، وكانت ستموت، و(حكّوم) لا يحب أذية نسوان بيته، فوافق علي مضض على زواجهما، وبنى لهما

(حكّوم) دورًا آخر فوق بيت أمنا، وأقيم عرس ينافس عرس (خباس) ويتخطاه، ودقت المنطقة بالطبول ثلاثة أيام دون إمساك، وتزوجت العروس، عام واحد وأنجبت بنتًا سمتها (سميرة)، وأصبح (حسن) من العائلة، وعامله (حكّوم) باحترام وتقدير لأنه متعلم.

سمعنا في الراديو ما عصر قلبنا حتى نزف، تحاول إسرائيل احتلالنا، لكن الأخبار طمأنتنا أن الفوز قريب، وأن جيش مصر وتدّ في الأرض لا يزحزح، وقد استطعنا تدميرهم ودحض هجماتهم، وكانت الأخبار مبشرة، حتى تكلم (جمال عبد الناصر) وعلمنا الأخبار الحقيقية، أننا هزمنا، وأن إخوتنا في سيناء قتلوا بدم بارد؛ إذ إن سلاح الجو الإسرائيلي قد ضرب القواعد الجوية المصرية ودمر جزءًا كبيرًا منها، وسلبت إسرائيل مدينة العريش، وسقط ضحايا كثر لم تحص أعدادهم، واستولت إسرائيل على شرم الشيخ، وسيناء، وسحبت الإدارة المصرية من قطاع غزة، وتعاظمت؛ إذ إنها استولت على الضفة الغربية من الأردن، واحتلت هضبة الجولان من سوريا، كأنها وحش قرر التهام العرب، وأعلن (جمال عبد الناصر) استقالته وتخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وسمعنا في الراديو بأن شعب مصر كله يتظاهر في الشارع رفضًا لاستقالة (عبد الناصر)، يقولون مصر كلها، ونسوا أن منطقة الزرائب من ضمن الخريطة، ولم نزَ فيها مظاهرات، بل لم يتغير شيءٌ فيها، كأنها في عالمٍ وحدها. وتوالت الأحداث السياسية التي صدعت رأسنا، حتى انحصرت الحرب في قرارات واتفاقيات فأدبرنا عنها ونسيناها.

وانصرفت ثلاثة أعوام على زواج أختنا، وتغيرت نظرات الناس، كأن هناك بغضاء قد وقعت ولا نعلم عنها، يتطلعون إلى (شربات) بشبق، ينهشون جسدها، ثم يتوارون ويتخفون، والأحاديث تكاثرت، وماجت حتى وصلت إلينا، فنحن نعيش في الشارع، والناس لا يسكتون، نعرف مكنوناتهم، فعلمنا عسرة ما وقع، وقد أغضبنا حديثهم وافترضنا أنه إرجاف، فما يقال قحة، منحط، وحقير، أن أختنا (شربات) تطلب من زوجها (حسن أفندي) أن يعاشرها كل يوم، وهو لا يقدر على تلجيمها، وإشباع غرائزها، ولكن كيف وصل الأمر إلى الناس، أسرار غرفة نوم اثنين متزوجين، كيف تكون حديث العامة. إن الأمر ليس هينًا، ولو وصل إلى (حكّوم) لتفجر بركانٌ لن يخمد، وتجهمت (شربات)؛ إذ إن الأنظار تحوم حولها كأن الكل يبغاها لنفسه. وقد جثم الشيطان في عقولهم، وإن كان الزوج مبتور الإير، فرجال المنطقة أشداء، وكلٌ يظهر فحولته، كأنهم حيوانات في موسم تزاوج، وإن علم (حكّوم) ستتحول الزرائب إلى بحر دماء، ستكون نهاية وقيامة؛ فالشرف في الصعيد إن تدنس تفت الدنيا.

عزلت (شربات) نفسها عن البشر، واحتقن وجهها الصبوح، وظل الأمر مستترًا عن (حكّوم)، وقررنا العودة والمكوث في البيت، فمخايل الموت تتراقص أمام ناظرينا. وفرحت أمنا، وكنا ننام في الصالة، نتابع ما يحصل بأعين ثاقبة، لكننا استنكرنا أكلهم، كأنه الزقوم، وظللنا على حالنا، نربط بطننا، نأكل جميزًا حينما تنبت الشجرة، أو يعطف علينا شخص نعلم أن أمواله حلال، وينظرون إلينا نظرة الشحاذ، لكننا نبغض السحت، يكفي بأننا ذوو شرف، وخفنا معرفة (حكّوم) ما يقال عن أخته، لكن كيف سيكتم شيء كهذا، وكل الزرائب رجال، وحلقت الكلمات، أسابيع يتندر الناس في الخفاء، حتى وصلت إلى (الوحش)، الذي دخل البيت في مرةٍ وسأل عن معلمه، فنضح العرق من جسدنا رهبة. قعد في صدر الصالة، وربضنا في ركنٍ ندعو الله بحقن الدماء، وخرج (حكّوم) من غرفة نومه يرتدي كلسونه، وقال بوجهٍ مكشر: «صباح الخير يا وحش، قلقت نومي الله يقلق نومك، ما الأمر؟» رد (الوحش): «الأمر لا يسر». فتقدم (حكّوم) آنفًا، وجلس بجانبه على الأريكة، ثم نظر إلينا وقال: «يا أخي هيئتك بني آدم، لكن تصرفاتك كالكلب، اقعد مثل الناس». لم نرد؛ فنحن نعلم بأن أخانا مج الأخلاق، ولا نريد التعمق معه في حديث، وكان يشغل بالنا (الوحش)، الذي لم يعطه (حكّوم) جل اهتمامه. أمسك بالموقد وأشعله، رص عليه ثلاث قطع فحم، وتركها حتى توهجت، ورتب حجر الشيشة، حضنه بالفحم، وأمسك خرطوم الشيشة وسحب أنفاسًا، ثم زعق نحو غرفته موجهًا حديثه إلى زوجه (جواهر): «كوبين من الشاي يا مرة».

ونظر إلى (الوحش) وقال: «أخبرني». فرمقنا بأعين مهزوزة، فضحك (حكّوم) وقال: «تحدث، لا أحد

هنا، هذا مثله كمثل الخيشة». لن يهزنا حديثه، فلم يقل لنا كلمةً حنونةً قط، ندعو الله ونخاف مما يضمره (الوحش)، الذي قال: «أختك يا معلم». تسمرت يد (حكّوم)، وترك خرطوم الشيشة ونظر إلى (الوحش) بعيني شيطان، فاهتز الأخير: «الناس يتكلمون عنها». فأغمض (حكّوم) عينيه بهدوء، كأنه يستجمع قواه، ويكظم غضبه، ولم ينطق بكلمة، رفع خرطوم النارجيلة، وشرع يسحب أنفاسًا، وأشار بيديه لـ(الوحش) أن يكمل، فحكى له ما يدور.

انتهى الحديث، وظهر الهدوء على (حكّوم)، وقام من مكانه، وكانت (جواهر) قد أحضرت الشاي، فقال لها: «أحضري لي البندقية من أسفل الدولاب». وهرعت إلى الغرفة، رفع (حكّوم) كوب الشاي وارتشف حسوة، وناول (الوحش) الكوب الآخر، الذي تعجب هدوء أخينا، لكننا نعرف أن عاصفة ستضرب أنحاء الزرائب اليوم، وأحضرت (جواهر) البندقية، فقام (الوحش) من مكانه، فنطق (حكّوم): «أكمل شرب الشاي، لن تطير الدنيا». وظهر العجاب على وجه (الوحش)، وبعد أن نفد الشاي رفع (حكّوم) البندقية وقال لـ(الوحش): «انتظرني بالخارج». فخرج الأخير مسرعًا، وسلك (حكّوم) الدرج، فتبعناه، ولم يعطِ لنا بالًا، عيناه تنضحان بالنار رغم هدوئه المغيظ، وطلعنا حتى وصلنا إلى شقة أختنا، وقرع على الباب، فتحت فولجنا، قعدنا على الأرض بجانب الأريكة، وجلس (حكّوم) عليها قابضًا على البندقية. تعمدنا أن نكون في المنتصف، ولا نختار فراشًا وثيرًا ليريح مؤخرتنا، فشجرة الجميز أشواك غصونها تلطخ ظهرنا. ووقفت (شربات) أمامه جسدها يهتز كزلزال، فأمرها: «اقعدي». جلست بجانبه وتركا مسافةً لجسدنا الذي يفصلهما، فسألها: «أسمعت كلام الناس؟» حركت رأسها بالمعرفة، فأشار لها بأن تحكي، وكانت الكارثة.

(حسن أفندي) منذ تزوج أختنا لا يعاشرها معاشرة الأزواج إلا كل شهرين أو ثلاثة، وينامان منفصلين كل شخصٍ في غرفةٍ كأنهما أغراب، ولا يطأها إلا عندما تتغنج عليه، وكثيرًا من الأوقات يبتعد عنها بحجة أنه تعب؛ ذلك لأنه تسلم عملًا في إحدى دور النشر ولا يعود للبيت إلا آخر الليل، ويتحجج بأمور العمل، وتتدلل عليه مرارًا حتى يقبل بها، ورضيت ولم تعترض، حتى فاض بها ولم تعد تتحمل. ومنذ شهر تقريبًا تحدثت معه في الأمر، وأخبرته بأن طاقتها نفدت، وأنها زوجة ولها حقوق، وتشاجرا، ثم امتنع الاثنان عن الحديث مغًا، شهر كامل لم يلقِ عليها الصباح. انتهت من حديثها وصمتت، فقال (حكّوم): «الناس يقولون إنك تطلبينه كل يوم، وإنه لا يقدر عليكِ». فوقفت وقالت ودموعها تنساب: «والله العظيم لم يحصل، ما أخبرتك به هو الحقيقة». التقط نفسًا عميقًا ثم نطق: «وكيف وصل الحديث إلى الناس؟» فجلست دون إرادةٍ منها وردت بتنشج: «لا أعرف». وانتحبت بحرقةٍ ينتفض جسدها، فصعدنا على الأريكة وقعدنا بجانبها، ربتنا على كتفها بحدب فارتمت في أحضاننا. منذ أعوام طويلة لم نشعر بتلك القشعريرة، لم نضم أختنا بين ضلوعنا منذ يوم قتل جدنا، شعور شق قلبنا، فقبلنا رأسها، وتملصنا ولففنا لنغطيها بجسمنا الأعجف حمايةً لها، وسلطنا ناظرينا في عيني (حكّوم)، الذي لم ينبس، تحامل على قدميه، وخرج من باب الشقة، فضممنا أختنا إلينا حتى هدأ جسدها، وقبلناها ونزلنا.

جلب (حكّوم) كرسيًا وقعد أمام البيت ممسكًا ببندقيته كأنه حارس، وكان كلما مر عليه أحد وألقى السلام لا يرد، ظل يشرب في أكواب شايٍ صعيدي ثقيل ويحرق في أحجار المعسل، ويمتص أفيون، حتى حضر الليل وغطى الزرائب، ووفد (حسن أفندي) غانمًا على ناصية الشارع، واقترب من (حكّوم) وقال: «سلامٌ عليك يا معلم حكّوم». فزعق (حكّوم) بصوتٍ عالٍ: «حميد، أحضِر كرسيًا للأفندي». فرد (حسن): «أشعر بالتعب والله يا معلم، سأطلع لأنام». حدجه (حكّوم) متندرًا: «أنت دائم التعب يا أفندي». أحضر (حميد) الكرسي فأردف: «اقعد».

حضر (خباس) بعد أن علم بالأمر بكرسي وجلس، وبجانبه (العربجي) و(الوحش) و(البغل)، فجلس (حسن) مرتبكًا، فقال (حكّوم): «الرجل الذي لا يكفي زوجته في السرير لا يستحق لقب رجل». فتجهم وجه (حسن) وكاد يتحدث لولا أن (حكّوم) استطرد: «عندما رأيتك قادمًا إلى المنطقة كالعيال الصغيرة أشفقت لحال أمك فساعدتك، ولما طلبت الزواج بأختي، لم أرَ فيك الشهامة لتكون زوجًا لشربات أبو حماقة بل كنت خرغًا،

ونظرتي في الرجال لا تخيب، لكنني لم أرد كسر قلبها، يبدو أنه شيءٌ متأصل في أولاد أبو حماقة». وقف (حسن) مكانه وصاح في استنكار: «لا أسمح لك يا معلم». فوقف (حكّوم) ودفعه في صدره فأجلسه غصبًا وقال ونذر الوعيد تتطاير من وجهه: «تسمح أو لا، هنا أنا الذي أسمح». ثم أمسكه من تلابيبه وقال آمرًا بحديثٍ مقتضب: «كلمةٌ ونصف تحكي فيهم كيف وصل ما يحدث في غرفة نومك إلى الناس». أزاح (حسن) يده برفق، وبان عليه الثبات، ونظر في عينيه وقال: «الأمر لم يخرج بيني وبين أختك، اسألها حكت لمن». فصاح (حكّوم) شزرًا: «أخبرتني بأنها لم تحكِ لأحد، وشربات لا تكذب». فرد (حسن) بهدوء: «أنا لا أجد تبريرًا لانفعالك». رفع (حكّوم) البندقية في وجهه: «الكلمة والنصف انتهوا» فنحى (حسن) البندقية عن وجهه وقال بإباء: «وماذا بعد؟ ستقتل زوج أختك؟» فرد (حكّوم) بهدوء: «أتظن بأن هذا الأمر صعب عليّ؟» وسعت عينا (حسن) أفندي، ثم قال بوجهٍ جامد: «أتظن بأن الأمر لا يؤلمني؟ إن شكك أحدٌ في رجولتك، ماذا سيكون رد فعلك؟» دفعه في وجهه بفوهة البندقية، وكرمش حاجبيه، فأذعن (حسن): «لم أحكِ إلا لأمي». رقيع من يُخرج سر غرفة نومه، فطوقه (حكّوم) من ياقته حتى مزق قميصه وقال: «كم مرة في الشهر تلبي احتياجات زوجتك؟» سكت ولم يتحدث، فعلمنا أن قصة أختنا (شربات) صحيحة، فأشار (حكّوم) إلى (الوحش) ليركض الرجل صوب بيته، دقيقة وعاد ومعه أم (حسن) التي تسكن غرفة السطوح، وبالضغط على الست علمنا أنها أخبرت ابنتها بالأمر، فأحضر (البغل) ابنتها، وكانت المنطقة كلها قد انتصبت حول (حكّوم) يسمعون التحقيق الجاري، كأنهم نمل، الملح إن ألقي لن يسقط، ومن نظرةٍ واحدة بعيني (حكّوم) نحو أخت الأفندي أخبرته أنها حكت لزوجها (خليل) الحلاق وكان واقفًا وسط الجموع بوجهٍ وجل، وبسؤالٍ واحد علمنا أنه حكى لقليل من زبائنه، فانتشر الأمر بين الناس، وتناقل اسم أختنا (شربات) على ألسنة الكل ينهشون عرضها دون شفقة، رغم أنها أخت كبيرهم المعلم (حكّوم)، لكن هناك حلقة مفقودة، الذي قالته (شربات) غير ما يردد، وبالتضييق على (حسن أفندي) علمنا أنه عندما حكى لأمه أخبرها بأن (شربات) تطلبه للفراش بكثافة ولكنه لا يقدر على تلبية احتياجاتها بسبب عمله الذي يعود منه تعبًا، وبهذا راج الأمر بين الناس ورأوا أن أخت (حكّوم) مولعةٌ دائمًا.

قبض الوجود على الدنيا حولنا.

هدوء مرعب.

ثم همهمات بين الناس.

وعينا (حكّوم) تنضحان بالشر.

ويبدو أن عقله سيطر عليه الشيطان.

وقف في منتصف الناس، رمق (حسن أفندي) بجيشان، ثم رفع البندقية وسلطها عليه، فعلا صراخ أختنا وعويلها من النافذة، وكان قاب قوسين أو أدنى من قتله، فلم نتحكم في أنفسنا إلا ونحن نقول: «رجل لا يريد النوم مع زوجته، فيمَ يضيرك هذا؟» التفت الكل إلينا، ومقلتا (حسن أفندي) أخبرتنا بأننا نجواه، أصبحنا مركز الاهتمام، فتقدم (حكّوم) نحونا وقال: «شرف أختك يا عديم الشرف» فرددنا بحبور: «شرف أختي لم يلوث، زوجة تطلب من زوجها حقوقها الزوجية، هل هذا عيب؟» أصوات متداخلة صدرت من الكل، فأردفنا: «والرجل له الحق في تلبيتها أم لا، ذلك بيته وهو حر فيما يفعل». انفعل (حكّوم) وتقدم نحونا وتلفظ: «حر في توسيخ عرضنا؟».

حاولنا كبح جماحه وإخماد ناره: «اهدأ، الأمر لا يحل بتلك الطريقة، لو كنت مكانه وزوجتك تطلبك وأنت ترفض، هل هذا يوسخ عرضها؟ وهل تستحق الموت لهذا؟» فأشار إلى (حسن أفندي) بعينين من جحيم وصاح: «أتشبهني بتربية النسوان هذا» فتقدمنا نحوه، نظرنا في عينيه بسماحة ونطقنا: «لا أشبهك بأحد، الأمر لا يستحق كل تلك الجلبة» التقط (حكّوم) أنفاسه، ثم ساد الهدوء وجهه وقال: «وماذا ترى فيمن يخرج أسرار غرفة نومه للناس؟» رددنا سريعًا كأن لساننا يتلقف الكلمات بعجالة: «هو لم يتحدث إلا مع أمه، ألا تتكلم مع أمك في أمورك وأمور بيتك؟».

ترأس صمتٌ فخم، كأن كلمات (حكّوم) نفدت، ولكن بركانه لم يخمد، فبششنا وحاولنا تذكيره بربنا: «استهد بالله وتعال لنصلي ركعتين، واترك الزوجين يحلان مشكلاتهما بأنفسهم». فأشار إلى (خليل) الحلاق ببندقيته وبوجهٍ مكفر افتتح شدقه: «وهذا الكلب، ألم يخطئ أيضًا؟» تبسمنا وتحدثنا بفطنة: «أخطأ، لكنه سيتوب الآن».ثم نظرنا إلى الناس وتلفظنا بلباقة: «قيام الليل يا ناس، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: أفضل الصلاة، بعد الفريضة، صلاة الليل».

دفعنا باب الزاوية لينفرج، وتدافع الكل على الدخول، ووقف كل شخص وحده يصلي في هدوء، وحللنا الأمر كما واقعة (خباس)، ودارت الأيام، وكف الناس عن التحديق إلى (شربات)، خافوا انقلاب (حكّوم)، لكنها لم تعد تشرق كسابق عهدها، تنكمش في منزلها بعد المصيبة التي حطت عليها. مر أسبوع على الواقعة، وكان (حسن أفندي) عائدًا من عمله في الليل، فأوقفه على الناصية (خميس الشمام) شاب من أشبال (حكّوم)، وكانت المخدرات قد أفسدت عقله، تطوح أمام الأفندي وخبطه في صدره، ثم صاح وجلجل بأن الأفندي هو من ضربه، وأخرج مطواة من جيبه ورشقها في إير الأفندي، فخصاه، وسقط الأخير صارخًا بكل قوته يتمرغ في الأرض، فاقت المنطقة على كارثة، تهتك عضو الأفندي ولم يعد رجلًا، الأمر هنا حتمي وليس إشاعات تنقل، وحمله الناس وأوصلوه إلى المستشفى، وعلمنا أنه فقد خصيته وشق إيره، وعاد مكسوزًا برأس مدفوس عينيه أرضًا، وشككنا بأن الحادثة مدبرة، وعند دخوله المنطقة أوقفه (حكّوم) أمام باب البيت، ونظر في عينيه وقال: «طلقها». فانعقد لسان (حسن أفندي)، فأعاد (حكّوم) الكلمة بوجهٍ كشر، وخرجت أختنا تنظر من النافذة، وعيناها تنقطان على الأفندي دمًا، الذي نظر إليها وقال عنوة: «أنت طالق» فتلفظ (حكّوم): «بالثلاثة». فنطقها (حسن)، والله إن هذا لظلم بين، لكننا لم نستطع التدخل، وخرج (الوحش) من بيته ممسكًا بأم (حسن أفندي)، وقد ألبسها جلبابها وحجابها اللذين أتت بهما إلى المنطقة، و(العربجي) أخرج أخته و(خليل) الحلاق، ومثل الأربعة أمام (حكّوم) فقال: «جئت دون شيء، وترحل دون شيء، لا أريد رؤية وجهك مرةً ثانية».

فتأبط أمه ومشى في الشارع مضعضعًا مكلومًا، وخرج العيال يقذفونهم بالقمامة والطعام الفاسد، ويضحكون ويشدون جلباب أمه وأخته ويضربون الحلاق، ويغنون: «حسن أفندي أبو عود مقطوع». وتبعوهم حتى وصلوا إلى عتبة الزرائب، ورحلوا، وفرقع شيء كأن قنبلة تفجرت، نواح وشهيق وصراخ بأن سقط شيء من الدور الثالث ببيتنا، وسكت كل شيء، أختنا (شربات) ألقت بنفسها من النافذة، بكاء المنطقة كلها المتصنع مؤازرة لأخينا (حكّوم) وصل إلى السماء السابعة، وصراخ أمنا جلجل حتى إن حنجرتها كادت تشقق، وبكاء وحزن رنا على الكل، وركض (حكّوم) هو ورجاله وحملوا أختنا ووضعوها في سيارة، وصلوا إلى المستشفى، وعلمنا بعدها أن أختنا لن تمشي على قدميها مرةً ثانية، وأنها شلت وأصبحت قعيدة بعد كسر عمودها الفقري.

شهر وخرجت من المستشفى، ومن ثم عشرة أشهر في السرير، ثم أحضر لها (حكّوم) كرسيًا متحركًا، وعلمت أنها ستقضي عمرها كله على الكرسي، ولم يعرف زوجها ما جرى لها، وغمت وشحبت، التهمها الحزن، وقررت السكوت، ولم تعد تتكلم، ساهمة في اللا شيء، عيناها تتحركان قليلًا، يطعمونها في فمها، ولا تمد يدها للأكل، رغم أنها سليمة معافاة، وأحضر (حكّوم) لها طبيبًا، فأخبرنا بأن الأمر نفسي، واستمرت أحوالها على ذلك المنوال، ولم ترتد يومًا، وتأرجحت الساعة، حتى ولجت أمنا عليها ووجدتها قطعت شرايين يدها اليسرى، ونزفت حتى ارتقت روحها، انتحرت فلم تعد تطيق العيش مع أناس ظالمين، وحبها لـ(حسن أفندي) كان أقوى من تمسكها بالحياة، ودفناها في مقابر العائلة بالخصوص، واعتكفنا فوق الجميزة أيامًا ثقالًا ننتحب بارتياع وندعو الله أن يغفر لها؛ إذ إنها اعترضت على حكمه وقتلت نفسها، والله إن قلبنا ينفطر، وكنا نسمع بكاء أمنا الذي لا ينقطع طوال الليل، ونحس بقلبها الممزق، ولم يضحك (حكّوم) لمدةٍ طويلة لم نحصِها، و(خباس) كان حديثه قليلًا، أما أبونا فزاد عويله أرطالًا، وخنقنا الحزن نحن وأهلنا، ليس اعتراضًا لأمره، بل خوفًا على ما آلت إليه في الآخرة، فهي أختنا ومهيضة الجناح، وحدادًا عليها كان العمل بطيئًا في الزرائب، والناس حديثهم نضب، ومن ثم لفت الساعة مرةً ثانية، وعادت الضحكة، والسباب أم بهم فغلفهم، وتلاعبت عوامل الزمن بالقلوب، حتى انطوت صفحة (شربات)، وأصبحت تذكر بالرحمة وبعض الرثاء، ولا نظن أن (حسن

أفندي) علم بموتها، فوجهه لم ينكشف في الزرائب، وكأن قصتهما كانت حلمًا ودفن، وقررت أمنا تربية ابنتها (سميرة)، فساعدتها (جواهر) ترعاها، وأغلق الكتاب على ما يحويه من آلام. والدرس المستفاد أن (الوحش) أضحى الرجل الأول لـ(حكّوم)، ليس عاملًا لديه، بل صديقًا وأخًا للعائلة، له مكانةٌ رفيعةٌ بينهم، ولم يعد يتحرك (حكّوم) إلا وهو في ذيله.

ومن ثم أكلنا الوقت، وعلمنا أن (جمال عبد الناصر) مات، ورأينا جنازته على التلفاز، مصر كلها تسير فيها إلا نحن، المشهد مهيب، حزنٌ سقط على شعب مصر، وكان الهتاف عاليًا: «لا إله إلا الله، ناصر هو حبيب الله، كلنا ناصر». وأبصرنا رؤساء معظم دول العالم، أناس كالتراب يسيرون، ملايين، وشغل منصب رئيس الجمهورية من بعده (محمد أنور السادات)، ولم نشعر بأي شيءٍ تجاهه، ولم تنمْ في أنفسنا راحةٌ أو قلق، وكنا نفكر مع أنفسنا قليلًا من الوقت، فنكن في صدورنا البغض والكره لـ(عبد الناصر)؛ إذ إنه رغم أفعاله النبيلة تجاه البلد، كان ظالمًا يعذب رجال الدين، متعصبين كانوا أم شبابًا ناصرين لدينهم يترددون على الجوامع يؤدون فروض الله، كنا نسمع الأخبار، نقرأ الجرائد التي تقع في أيدي من يلمون الزبالة، فنطلب منهم الإذن في المعرفة، ومن ثم نعيدها إليهم، وشعرنا بأن لا ديموقراطية في بلدنا، وأنها تسير على نهج الديكتاتورية، وخفنا أن يكون (السادات) مثله، ولا نعرف أنذكر (جمال) بالخير لأفعاله، أم نبغضه، فأصابنا خللٌ في دماغنا، وقررنا الابتعاد عن السياسة بكل ما فيها من تعقيد.

وشغلنا بالنا بأهلنا، وعاد أخونا (خباس) إلى النوم مع الستات، رأيناه وهو يغازل بعضهن، ويختبئ في الغيطان، ويحط على بيوتهن، ويمسك سبحة ويظهر برداء الدين، ومن ثم يصلي طلبًا للمغفرة، ويلعب القمار، ويقرض الناس بالربا كي يلعبوا فيخسرون، ومن لا يسدد ينغص عليه عيشته، يضربه ويهينه أمام الناس هو ورجاله، وإن تصاعدت الأمور تطول أهله، حتى يبيع الرجل كل ما يملك، وفي خطبة الجمعة تكون أسوأ الخطب، كلمات لا تمت للدين بصلة، وحكايات تناسب المقاهي والشوارع، ويأخذون منه الفتوى فيزدادون فجرًا وابتعادًا عن الدين، كأنه مرضٌ انتشر في الزرائب وتلف عقول الناس، وحاولنا التدخل وتغييرهم، فقابلوا حديثنا باستهزاء، وضربنا (خباس) وطلب منا أن نبعد عن تلويث أعماله، كأننا نحن من نلوث الدنس، حاولنا أن نتحدث معه بلين لنفهمه الدين بشكله الصحيح، فما نلنا منه إلا التنكيل فغلبنا التثبط.

وأمنا كبرت وأصبحت ستًا عجوزًا، تسب الدين إن غضبت، لسانها بذيء، وتسبح في أثناء جلوسها وحدها، وإن دخلت قطة منزلها تلقيها من النافذة، وتقسو على أبينا وتنهره، تقبل بأفاعيل (حكّوم) المحرمة، وتصلي إن ارتكبت ذنبًا، ولا تواظب على أداء الصلاة، تميل على عكاز يسندها، وتستبد بالناس إن أبت، تستغل سلطة ابنها، فبائعة جبن أحضرت لها كيلو، وبعد أن رحلت وزنته فكان أقل، أحضرتها وسلبت كل الجبن خاصتها وحلفت الست بأن الميزان تلف في ذلك اليوم، لكنها لم ترحمها، وطلبت من (حكّوم) أن يطردها من المنطقة، وهو لا يرفض لها أمرًا، والمرأة كانت تصرف على أيتام، ولم يحنوا عليها.

بلغ أبونا من العمر أرذله، صامت طيلة الوقت، ويتحاشاه الكل، كأنه ظل يختفي من ضوء أهله، يوبخه أخوانا كأنهما يعيدان تربيته، ولم نرَ فيه العيب سوى القبول بأفعالهم، والجلوس في البيت والرضا بظلمهم، والأكل من أموالهم، ولا يترك فرضًا، يتعبد ليلًا ونهارًا، جزءٌ فيه يشبهنا، وندعو له بأن يثلج قلبه؛ لأنه حتى وقتنا هذا يتذكر حادثة أبيه، ويتندرون عليه عندما يقول حكمةً كان يتلفظ بها جدنا، أو يذكر موقفًا له، ويكرهون حكاياته، وحديثه، ووجوده، يعيش كأنه غير مرئي، مخفي عن الكل، ينتظر الموت ليقبض روحه في هدوء.

ولم يسأل أحدٌ عما دار في الصعيد بعد رحيلنا، ولم نرجع، ولا نعرف شيئًا عن أعمامنا (خطاب) و(نوفل)، وما آلت إليه المصائب هناك، ولا نستبعد أن يكون قد قتل أحدهما الآخر، ولا نعرف شيئًا عن ثروة جدنا، وآلمنا قلبنا ونفسنا وضميرنا، وقرعنا أنفسنا؛ إذ إن ترف عائلتنا كله حرام من الجد الأكبر (أبو حماقة) حتى آخرنا (حكّوم)، ومتى يخضب الحلال عيشتنا؟ والله إننا لكرهناهم، ونبغي لو نتركهم، ونخاف لقاء ربنا فيسألنا لماذا

تركنا أهلنا ولم نغير فيهم، لكننا نحاول فلا نأتي بنتيجة، ولا نحب المشكلات، وصدع الدماغ، فنتحاشاهم، ونرتقي بأنفسنا ليتقبلنا الله في رحابه، ونطمع للجنة ولقائه عما قريب.

واستمرت الأحوال السيئة في نهش أهلنا، ورجحنا هذا لأن حياتهم حرام ونصيبهم درك جهنم، أمنا كانت النبتة وسبب المصيبة الأولى، قتلت جدنا، سرقت أمواله، بنت أسرةً بالحرام، أكلوا سحتًا، ونقلت لهم أفاعيلها التي لم ترد في كتابٍ إلا ولعنت، ففهموا العبادة على نحو خاطئ، التوبة بشكلٍ شيطاني، الصلاة تأدية واجب دون خشوع ورياء، سببٌ يظنونه سيغفر لهم، ونسوا التوبة النصوح، يرتكبون المعاصي والرزائل، ويطلبون الصفح ثم يعودون، يغيبون العقول، ويبيعون سمًا للناس، ومن ثم يذبحون عجلًا تطهيرًا لأموال الحرام، يعطفون على المسكين، ويقسون عليه إن وصل الأمر إلى مصالحهم، يتلبسون هيئة رجال الدين وهم جهلةٌ لا يفقهون، يشهدون زورًا، يأكلون أموال المساكين، يتاجرون في المحرمات، يتحدثون بعجرفةٍ وتكبر كإبليس، كأن الله في السماء وهم فقط مَن في الأرض، يخربون كل ما تطوله أنفسهم، يفسدون ولا يصلحون، شياطين بشرية، انتشر عفنهم في الأرض، والمصلح الواحد القهار.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwaya2025

تخطيت العقدين ملتزقًا بإصبع (حكّوم)، عاينت أهوالًا، وكنت أظن بأن (جاد الله أبو حماقة) أظلم من ارتداني، لكن تعاظم جبروت (حكّوم) أدهشني، وعشت في إصبعه بتباهٍ، مفتخرًا بمكانتي، وكأن آل أبو حماقة السيادة قد خلقت لهم، (أبو حماقة) كان تاجرًا للعبيد وله هيبةٌ وشموخ الملوك، و(جاد الله أبو حماقة) حاكمًا لمنفلوط ويهتز أمامه الخلق، و(حكّوم أبو حماقة) قائدٌ للزرائب بكل ما فيها من مفجعات وفطاحل في الجريمة، ولا شك بأن (حكّوم) أكثرهم صرامة، فالفائتون حكموا الكلال، لكن (حكّوم) يترأس وحوشًا، مسوخًا وحيوانات.

اهتزت (جواهر) بجسدها الرخو الأملس مفترشةً السرير أسفل (حكّوم) من دفقاته القاسية، لم تتبدل ملامحها، لم تئن، لم تصدر نأمة، حتى أفرغ شحنته، ولهث ملتقطًا أنفاسًا حامية، ثم اعتدل، ولفح جسده بملابسه، ورمقها بضيقٍ وقال: «كأنني أنام مع حجر». ادرعت بقميص مصنوع من الديباج، ودون أن تنظر إليه نطقت: «أتشرب شايًا؟ أم أحضر لك الشيشة؟ أم كأسًا من النبيذ الذي تحبه؟» استقام أمام المرآة بوجهٍ مكفهر متلفظًا: «لا أريد شيئًا من وجهك».

عدل كلسونه، فركضت وأحضرت الجلباب، وساعدته على ارتدائه، فقبض عليها من منكبيها، حدق إليها وباح: «من أين لكِ بهذا البرود؟» لم ترد، تقهقرت إلى الخلف لتحضر جبته، فتفوه: «فسري لي لم حتى الآن لم ننجب أطفالًا». رسخت أمامه تقبض على الجبة بوجوم، فاستطرد حديثه بعيني شياطين: «أتفعلين شيئًا في نفسك؟» لم ينبس لسانها، فتلحف بالجبة: «أعلم أنك لا تحبينني، وأنني تزوجتك غصبًا، لكن ألم تحفظي لي المعروف؟ الشرطة قتلت أباك، وإن تركتك في صحراء سيناء كانت ستنهشك الكلاب، تزوجتك معتقدًا أنني بهذا أرد معروف أبيك حين أشركني في تجارة السلاح، وقلت في نفسي إن الزمن يلين الحديد، وأنت تعرفين أنني لست عيلًا تافهًا من الذين يحبون وينطقون بالحديث المعسول». انتهت من تلبيسه، ثم عادت واقتعدت السرير فلف جسده إليها واسترسل: «والزمن يمر، وأنت جامدة كالصخر، أشعر دائمًا بالقرف بعد معاشرتك، كأنني أغتصبك».

لم تخرج حرفًا، فدفع المشجب جانبه باستفحال لينطرح أرضًا، وهجم عليها وصفعها على وجهها، فانكمشت في نفسها وذرفت دموعها، فصرخ بصوتٍ مكتوم وضرب لكمات متتالية على فراش السرير، ثم هدأ جسده وقال: «إن اكتشفت أنكِ تقومين بشيء من أسحارك لتمنعيني من الإنجاب، لن يهدئني إلا موتك». ثم صلب جسده أمام المرآة، ثوانٍ أضاف: «اخرجي حضري مع عزة الفطار فهي بالخارج من الصبح».

مسحت وجهها وتلحفت بعباءة سوداء ورحلت، أغمض (حكّوم) عينيه، والتقط نفسًا هادئًا، ثم ارتدى لاسةً بيضاء على رأسه، وأمسك بزجاجة عطر وغرق جسده، وعدل من هندامه فبدا لامعًا، وقام بالنفخ في ومسحني، ثم خرج، اقتعد الأرض في بطن الصالة، فهرعت (عزة) زوجة (خباس) ومن خلفها أبنيها، وأحضرت نارجيلة ورصتها أمامه، فابتسم لها وربت على كتفها وبش قائلًا: «لم لا تنزلين وتقعدين مع أمي؟» فقالت: «والختمة الشريفة العيال يتعبونني فلا أستطيع الخروج من البيت». لم يرد بل أشار إلى ابنها الصغير (يوسف) وأجلسه على فخذه يلاعبه، ثم أعطاه جنيهًا كاملًا فهلل الولد وركض لاعبًا، استل (حكّوم) أنفاسًا من الشيشة فقرقرت، فانصرفت (عزة)، وولج (خباس) إلى البيت وألقى السلام على (حكّوم)، ثم جلس بجانبه، وأشعل سيجارةً ناطقًا: «أخذنا البيت من المعلم سيد زكيبة كما طلبت، وأغلقته وهذا مفتاحه». أخرجه من جيبه ومد يده فأخبره (حكّوم): «خذ كل بهائمنا وطيورنا وأخبر الوحش أن يضعها فوق البيت ولا ينسى رعايتها». أعاد (خباس) المفتاح في جيبه، وتنفس سيجارته، فأردف (حكّوم) : «والحصان والكارو أيضًا ضعهما في المخزن الأرضي»، فهز رأسه بالطاعة.

بزغت (لبيبة) بجسدها الصليب رغم عجزها، فحياها (حكّوم): «صباح الخير يا حاجة». تحشرج صوتها: «صباح الخير يا حبيبي». وتربعت بجانبه، أبعد الشيشة ونام على فخذها فمسحت على جبينه وهو يقول:

«والله يا أمي إني لا أشعر بالراحة إلا بين يديكِ». قبلته في جبينه وربتت عليه، فولج عليهما أبوه (عبد القادر)، قعد على الأرض يتفقد الكل بعينين كليلتين، وكان يتحدث بلغة الإشارة ويصدر أصواتًا غير مفهومة، فلم يمتزج معه أحد، دام دقيقتين فدوى (حكّوم) متلظيًا: «اسكت رأسي سينفجر». كتم (عبد القادر) وتجمد، ولجت (جواهر) وهبطت بالطبلية في المنتصف، فأحاط بها الكل، وطفقت ترص عليها الأكل هي و(عزة)، فهجم الأولاد مرحين، وما إن انتهت السيدتان حتى جلستا إحداهما بجانب الأخرى، وتزخرفت الطبلية بفطير وعسل وجبن قريش وآخر قديم وبيض مسلوق وبصل أخضر وقناء وأكواب من اللبن.

ابتدر الفطار وأخذوا يتبادلون النكات والضحكات إلا أبوهم (عبد القادر) الذي ابتأس بعد أن نهره (حكّوم)، وفي في أثناء سعادتهم البهيجة، طرق الباب فصدح (حكّوم): «مَن؟» فرد مَن في الخارج: «الوحش يا معلم، هناك شخص بالخارج شحاذ مجنون يقول إنه أخوك ويريد الدخول».

رموا الطعام من أياديهم، وجحظت أعينهم، طفر (حكّوم) قائمًا، وفتح الباب و(خباس) خلفه، ليخرجوا ويصعقوا مما شاهدته أعينهم، فتسمروا كأن على رؤوسهم طيرًا، (يونس) أخوهم ينتصب أمام البيت، يتدثر بجلباب مهترئ، شعره أشعث يغزوه القمل، بعضٌ من خصلات شعر ذقنه التي تصل إلى نصف صدره بيضاء متسخة، تثرمت أسنانه، أعجف ضئيل، أظفاره طويلة سوداء، جسده متسخ، رائحته غائط عفن، يتفقد (حكّوم) بعينين غائرتين، يجاهد ليبتسم، فأظهر أسنانًا محطمة، ومد يده ببطء يخطو خطوات وئيدة، يحاول لمس (حكّوم)، وما إن اقترب منه وكاد يلتصق به، حتى ردعه بشراسة وخشونة فانكب أرضًا متوجعًا صارخًا بصوتٍ ذابل، كحت جسده الأرض فخلق بعض الرضوض، وتخضب وجهه بماء المجاري، وانشق أوسط جلبابه فأطلت عورته، رمقه (حكّوم) بجحود، وبرزت (لبيبة) من الخلف، فتحامل (يونس) واعتدل بجهدٍ مضنٍ ليقتعد، ومط يده إلى أمه باكيًا، فبصقت في وجهه وعادت إلى الدخول، ولما تفقد بعينيه إخوته الاثنين، أحكم (حكّوم) جسد (خباس) وأدخله البيت، ثم تبعه ودفع الباب الحديد بقسوة فانغلق في وجه (يونس)، ثم خرج صوت (حكّوم) بنفور وتنمر: «عد من حيث أتيت، لا أهل لك هنا».

***

الله موجود في كل مكان، لكنهم يظنون بأنه فقط في السماء، فيرتكبون المعاصي دون مراعاة لكلمة الرب، يقتلون، يدنسون معالمه المقدسة، يدهسون رؤوس بعضهم بعضًا، ينتحرون، يزنون، ويقطعون السبيل، يخونون الأمانة، وما هم بصادقين، ثم ينظرون إلى السماء ويشكون همهم، يمتهنون الكذب والنفاق، ليس على بعضهم بعضًا، بل في حق الله، وهو عالم بما تخفيه نفوسهم وصدورهم.

في ظهر يوم عودة (يونس)، خرج (حكّوم) من البيت، عازمًا على الصلاة في، وكان معه (خباس) الذي يظن نفسه عالم دين وهو كذاب أفاق، أغلق (حكّوم) باب الدار خلفه، ثم تقدم (خباس) ليوغل المفتاح في بابي، وكان (يونس) يتوسد عتبتي، فركل بطنه وصاح: «ابتعد من أمام الجامع يا حرامي». رزح (يونس) فاستفاق مختلجًا واحتضن نفسه راحلًا مكلومًا، وعورته تظهر عيانًا للناس، ولم يعطفا عليه بجلباب يواري سوءته، فرج بابي، فتدافع الناس خلف (خباس) و(حكّوم)، أدوا الصلاة في جوفي وبالهم مشغول بأعمالهم وأفعالهم القذرة، ثم انتهوا، أغلقوا بابي، فعاد (يونس) ونام على عتبتي، وكل صلاة يعرض للضرب والتنكيل على يد (حكّوم) و(خباس) وتعملق الوهن في نفسه، رغم سنه التي قاربت على الخمسين، إلا أنه بدا بعمر الثمانين، ظهره محدودب، وعظامه نحلة، الموت يحوم حوله، وكلما ساعده الناس بفتات الطعام ليأكل، يتعرضون للبأس على يد رجال (حكّوم)، فيمتنعون، ويسعى في الشوارع بحثًا عن الطعام، يزور التل ليلًا ونهارًا، يفتش في القمامة، يقتات منها، ويتجرع ماءً آسنًا، ويعود فيفترش عتبتي، يتقيأ ويتألم ضاغطًا بطنه، ولا يتحنن عليه أحد، ثم يخطو دون وجهة، فيصل إلى شجرة الجميز التي ينام عليها (صابر)، الذي عندما علم عودته أشفق لحاله الرث، فكان يعطيه قليلًا من الطعام الذي عطف عليه من يملكون أموالًا حلالًا، أو يقطف له بعض ثمرات الجميز، يأكل، يضحك، يتسامر مع (صابر)، يترفق به، ثم يعود في الليل وينام على عتبتي، وفي اليوم التالي يعرض

للتعذيب، وعاش حياةً مرةً كالحنظل، وحاول التواصل مع أمه (لبيبة) أو أبيه (عبد القادر)، لكنه لم يستطع، وكان يغيب عقله فينام وسط الشارع، وفي أي زريبة، وكان يلعب ويلهو كالطفل العبيط، يتراقص مع العيال بجانب زريبة (أبو جرجس)، ومن ثم يبتغي رؤية الخنازير، فيمر (حكّوم) يقرعه ويضربه، فينزوي بجانب جدار منتحبًا، ويعطف عليه (صابر) فيبيته بجانبه، لكنه لا يقدر على تسلق شجرة الجميز، فينام أسفلها وعورته ظاهرة.

ولم تكف (جواهر) زوجة (عبد القادر) عن زيارتي ليلًا، تمسك مجمرة، تدفس فيها فحمًا مشتعلًا، وترمي بالبخور فيتوهج ويملأ جوفي، وتنطق بكلمات مقلوبة، وأحرف غير مرتبة، وتصيح طالبة من أبيها الحضور، كأن روحه ستخضع لطلاسمها وتظهر في بيت الله، تدنس مكانًا مقدسًا، دجالة مشعوذة، تطلب العون من روح أبيها كي تنجب، بعد أن تيقنت بأنها عاقر، ولو طلبت من الله لاستجاب إن أراد، لكنهم أناس لا يفقهون شيئًا في دنياهم ولا دينهم ولا يسعون لجنة الآخرة، شياطين تدب على الأرض، نهايتهم جهنم وبئس المهاد.

***

كنا ننام على شجرة الجميز، حين وفد (يونس) إلى منطقة الزرائب، تبخر منذ أكثر من عشرين عامًا، وقد رحلنا من السيدة زينب، وسمعة (حكّوم) مشاعة، فتمكن من الإياب، لكن حاله الرثة تبكينا، كيف آلت أحواله إلى فتات بشر، فنحن غلبان ولا نملك قرشًا، لكن الرواء يظهر علينا، على عكس الجثة المتحركة تلك، كأنها انبثقت من المقابر، الرضوض والخمش يغطيانه من رأسه إلى أخمص قدميه، والوسخ والعفن يغلفانه، وفضلاته تخضب جلبابه البالي، فلا يقدر على إخفاء عورته، ولما حاول دخول بيت أمنا قابلوه بالنفور والأذى، فانخرط في الزرائب فلا تفرق بينه والقمامة، ولولا أن الناس عرفوا بسبب الحديث المحلق أنه أخو (حكّوم)، لتعرض لأشد التندر والجلد منهم والغلمان.

حين يزورنا عند شجرة الجميز نستقبله بحدب، ولما نعرف بأنه ساغب نعطف عليه مما نملك من طعام قليل، وحاولنا التحدث معه استخبارًا لأعوامه البائدة، لكن عقله قد أصابه خبل، يخرف بحديثٍ مغاير، ذات مرة أخبرنا بأنه فتح حانوتًا بالمال الذي سرقه من أمنا، وكان يعيش فيه، وطلع عليه بعض الشباب كسروه وأشعلوا النار في زجاجات الخمر، ثم عذبوه وسرقوه، وطوح في الشارع. ومرةً حكى أنه قد تعرض للاختلاس بعد خروجه من السيدة زينب، ولم يقوَ على الرجوع، فمشى في الطرقات متشحطًا في عون الله، حتى عمل في أرضٍ زراعية فلاحًا مقابل طعامه، ومن ثم وثق به صاحب الأرض وعينه خفيرًا عليها، وهجمت عليه في الليل مجموعةٌ من الناس حرقوا المحصول وضربوه، فأصيب المالك بنوبةٍ قلبية ومات، وطرده أبناؤه فتشرد في الشارع يقتات الفتات، حتى سمع عن منطقة الزرائب، وعلم بأن الذي يقودها اسمه (حكّوم أبو حماقة)، فعادت روحه إليه وقرر العودة. ومرةً قص بأنه تزوج من ست مطلقة وأهلها نهبوا ما يملك وألقوه في الشارع، وكثرت الحكايات حتى لم نعد نفرق بين الحقيقة والوهم، وكل القصص فيها جماعة من الناس نغصوا عليه عيشته وتسببوا في تشريده، ولم نعد نصدق، نسمع ونصمت، ولم نبغ معرفة الحقيقة.

ومرت شهور، وسقم (يونس)، ذبل وامتنع عن الأكل، وتخضب وجهه بالخمش إثر تنكيل يلاقيه يوميًا، رجلاه لم يرتدِ بهما شبشبًا، فتتفصدان بالدم وتتركان بصماتهما أينما حل، وكان دائم ترديد اسم أمنا، وأنه يسعى لمغفرتها، ويقعد في مجسمه على عتبة الزاوية، ينادي عليها، دمعه سافح، ثم يغلبه الألم فينام دون دثار، تنغرز في عظامه إبر البرد حتى تسوست، وتقرح جسده من عض الهوام، وكان يعطف عليه أبونا فينهره (حكّوم)، وعاش كفضلات الحيوانات، يدهسه الكل دون خشية من كبيرهم؛ إذ إنه يعامل أخاه على أنه حمار، يسبه، يضربه، يعذبه، وأحيانًا يتجاهل وجوده كأنه جماد، وظلت الأحوال مظلمة مع أهلنا، وعلمنا أن قلوبهم فحيمة، لا طيبة تضخها.

وتوالت الأيام مرعبةً في الزرائب، واندلعت مشكلات كثر، وكل يوم يعثرون على جثة، ولم يأبه (حكّوم)، والشرطة كانت تدخل المنطقة تتفقدها ثم تخرج، يعاملون الناس كحثالة، وتضاعفت الجرائم، وكان كلما مات

أحدٌ يعامل كالمهملات، ورأينا في أعين الحكومة غاية التخلص من المنطقة، وتدميرها عن بكرة أبيها، وإعدام كل الناس فيها، فلم يعودوا بشرًا على أي حال، وكنا نعرف نذالة النواة الأولى، لكننا لم نكن لنتخيل أن تؤول الأحوال إلى ذلك الجحود، وأضحينا نخاف الدخول إلى الجزء المعتم إلا للصلاة، ولا نلف أو نمشي، النهار عملٌ وسباب وقذارة ومعارك، والليل بيع المخدرات وشربها على النواصي، وإخراج الأسلحة عيانًا لبيعها أو إظهار القوة وفرض السطوة والسرقة والقتل.

وانطوت الدنيا على الزرائب، وركضت الساعة، فاعتاد الكل وجودَ (يونس) وسطهم كأنه علامةٌ على المنطقة، يعاملونه على أنه أبله، وكلما مر الزمن، ينهشه الاعتلال، فبدا كظلال تهتز دون روح، وقد قارب على الاختفاء، يضربه أحدهم فيطفر ليركض خلفه خطوتين ويسقط متألمًا، يبكي آناء الليل وأطراف النهار، وينام على عتبة زاوية الصلاة، وكل يوم يكنسه (خباس) كالقمامة ويلقيه في الشارع ويشتمه ويلعنه فيهرب مبتعدًا ويعود بعد الصلاة ينوح وينادي على أمنا وأبينا، وكان يجلس القرفصاء في أي ركنٍ ليخرج فضلاته كالحيوانات، فتعلق في جلبابه ولا يزيلها، فرائحة الغائط دائمًا تنبعث منه، وينفر منه الناس ويبعدونه عنهم رغم أنهم يعملون في القمامة والعفن، إلا أن رائحة (يونس) غلبت ميتًا نافقًا، ورغم أنه كان يأكل من القمامة وكنا نراقبه، امتنع فجأةً عن الطعام، وكان كلما يضربه أحدٌ لا يرد ولا يتحرك، مكومٌ أمام الزاوية، يجاهد (خباس) ليبعده.

في صلاة فجر يوم نزل (خباس) ليرفع الأذان وكان خلفه (حكّوم)، فأبصرا (يونس) نائمًا على جانبه محتضنًا ذاته دافسًا رأسه في صدره، سبه (خباس) ولعنه، ودفعه بقدمه، فكان ثقيلًا متحجرًا، جاهد ليبعده، فسقط جسده من فوق العتبة، وانكشف وجهه، فلم تنفتح عيناه، وبدا كأنه قد صمل، فتقدم إليه واحدٌ من القادمين للصلاة، مال بجسده وعبث في يد (يونس) ولمس صدره وصفعه برفق على وجهه فقد كان قد تيبس، ومن ثم اعتدل وقال: «البقية في حياتك يا معلم حكّوم». فتسمر الكل كأن الدنيا خرست، ثوانٍ مرت، حتى شق (حكّوم) الهدوء وقال بنبرةٍ صلبة كأن قلبه حجر لا يشعر: «حضروه للدفن».

لم ينطق بكلمة رثاء.

والكل يهاب حضرة الموت، لكنه وقف شامخًا يرمق جثة أخينا بكبر.

***

بنيت لأكون وجهةً للصلاة، وأي صلاةٍ تلك التي يصلونها، ارتصفوا أمام جثة أخيهم (يونس)، ومن خلفهم سكان الزرائب المسلمون، فوق حصائر تغطي بلاطي، ويؤمهم (خباس)، الذي قال بهدوء: «صلاة الجنازة أربع تكبيرات تنتهي بركعة». كاد يكمل، فتحدث (صابر) بتريث: «يا خباس، الصلاة أربع تكبيرات لا سجود فيها». فرمقه (خباس) بخيلاء، وتغاضاه يتبعه الكل وقال: «التكبيرة الأولى ندعو للميت، والتكبيرة الثانية ندعو لأم الميت، والتكبيرة الثالثة ندعو لأهل الميت». قاطعه (صابر) وقال: «والتكبيرة الرابعة ندعو لك». فتجهمت بعضٌ من وجوه الناس، والبعض الآخر انفلتت منه ضحكات خافتة، فأردف: «حين مات ضاحي تفوهت بتلك الخرافات، وحاولت نصحك لكنك لا تسمع، فصليت وحدي». ثم تقدم للأمام وولى وجهه إلى الناس ناطقًا: «صلاة الجنازة أربع تكبيرات لا سجود فيهم، التكبيرة الأولى...» لم يستكمل حديثه، إذ دفعه (خباس) ليلتقطه (الوحش) الجائر ويوقفه آخر الصف، وتفوه (خباس): «التكبيرة الرابعة ندعو لسائر المسلمين ومن ثم نركع ساجدين». ولف جسده إلى المحراب وصاح: «الله أكبر»، فقال (صابر): «لا حول ولا قوة إلا بالله، اغفر لنا يا الله». ثم انشق عن الصف الأخير ووقف في ذيلهم وحده وصلى صلاةً صحيحة، وما إن رفعوا النعش حتى سقط دمعه ساكتًا دون تنشج، والله لو يفقهون شيئًا لتبعوه، وما يجعل أحجاري ترتجف أنهم في ثناياهم يبغون التوبة، لكن الشياطين تلتف حولهم، وما أدراك ما هم، يخبرهم (صابر) بالصحيح فيتبعون الخطأ عامدين.

وخرجوا بالنعش من الزرائب متجهين إلى مقابر الخصوص، دفنوا الميت وودعوه، كأنهم عاملوه بطيبة، فقد

مات محقرًا في الطريق كالكلاب، ويكرمونه بدفنه ولكنهم لا يرجون حدادًا ولا عزاء، إذ إنهم عادوا والتم الناس أمامنا، فوقف (حكّوم) ودوى: «لا توقفوا أعمالكم، وعزاؤكم وصل، تقبل الله منا ومنكم». ثم نادى (حميد) الذي أحضر له نارجيلة، وقعد أمامي يمتصها، وكل من حضر ليأخذ العزاء كان يسرحه إلى عمله، ثم مل فصعد إلى شقته، ونام، وفي الليل نزل، أخرج حصانه، وطلب من (الوحش) تحميمه، وبعد أن انتهى خلع (حكّوم) جلبابه وشمر ساعديه وأخذ يقص شعيراته، ثم ركبه ولف في الزرائب يستخبر أعمال الناس ممسكًا بخيزران، ومن يجده يتلكأ يلسعه في ظهره مازحًا ويطلب منه العودة إلى عمله، ويمر بجانب رجاله البلطجية فيحثهم على عدم افتعال مشكلات، ومن ثم الشباب الذين يحاولون لفت انتباهه، فيتشاجرون ويصنعون عاهات تباركًا بمروره، فيتجاهلهم، أو يضربهم وينهاهم عن الخطأ، ونفسه مهلهلة لا تطمح إلا للمعصية والهلاك.

***

رحل الكبير، ومن قبله الصغير، ومعهم أختنا، وكأننا حبات عنب تنسل من عنقودها، ورغم هيبة الموت، لم نخَف منه لأنفسنا؛ إذ إننا نشتاق للقاء الله، لكننا نخاف على عائلتنا، فكلهم للملذات عبيد، للمعاصي معاقرون، وللدين تاركون، وأفعالهم شنيعة.

مرض أبونا، قد غلبه الكبر، ونحن نعلم أنهم لا يحبوه، كرهته أمنا لضعفه كما ادعت، ويكرهه (حكّوم) منذ صغره، وأخيرًا (خباس)، أسيحبنه زوجاتهم؟ ولذلك قررنا العودة إلى البيت وخدمته، فتركنا شجرة الجميز، وسنعيش معهم بقوانيننا، ننام على خيشةٍ بالأرض بجانب فراش أبينا، ندخله الحمام، نسقيه، نجلب له الطعام ونبلغه بأنه حرام، ونبرئ أنفسنا أمام الله، وتموج الأيام، وتركض، ويزداد تعبه، فلا يقف دون معين، عشرة أيام وهدأ، واستعاد عافيته، ومساعدتنا له كانت قليلة، وكنا نتعرض للتندر على لسان (حكّوم) و(خباس)، وأمنا تحاول التقرب منا وكسبنا فنعاملها بطيبة لكن قلبنا يبغضها، وتعلم هي ما نحمله لها.

يغيب (خباس) ساعات كثر، من بعد صلاة الظهر لا يدخل بيته إلا بعد صلاة الفجر، ويقضي (حكّوم) عمره أسفل البيت في الشارع، يلف في المنطقة، يفرض سيطرته، ويعود، فمعظم الأوقات نراه في البيت، إلا إذا كانت هناك تجارة هامة سيسافر لينجزها، وكانت عشرة أيام خانقة، انتهت بكارثة.

في آخر يوم، كنا نجلب الطعام إلى غرفة أبينا، ونطلب من الله المغفرة، وقابلنا أمنا تجلس في صدر الصالة، وطلبت منا أن نأكل، لكننا امتنعنا، فسبتنا، والله سبت ديننا، وزعقت بصوتٍ عالٍ: «ترفض عيشتنا وأنت تنام ككلاب الطرق، كيف أنجبتك!» وأكملت حديثها بلعنات وشتيمة، وانتهت بأن طردتنا، فخرجنا من باب الشقة، ووقفنا على درج البيت، أغلقنا الباب وانتحبنا، قعدنا على السلم، وشعرنا أننا لن نصلح فيهم، وإلى متى سنظل بهذا الهوان، دفسنا رأسنا بين أقدامنا نبكي، وظللنا ساعة وأكثر، حتى أصابنا الاسترخاء، وتنفسنا ببطء، وصلبنا طولنا، فسمعنا صوت قطةٍ تموء في المنور، توقفنا على أصابع أقدامنا نبصرها، فكانت صغيرة تقف على ماسورة الصرف الصحي الخارجة من شقة (خباس) وتعجز عن إنقاذ نفسها، أظافرها بارزة وتنزلق، فسقوطها قريب، وإن وقعت ستموت، فتسلقنا الجدار كالقرد، ودخلنا المنور، مددنا يدنا مبتسمين بدعة، ونردد: «تعالي، لا تخافي». القطة انكمشت على نفسها، فدهسنا ماسورة وتشبثنا بنافذة حمام (خباس) حتى لا نتزحلق، وفي في أثناء رحيلنا سمعنا صوتًا ينبعج من شقة (خباس)، رجلٌ يهمس: «إن نطقتِ بهذا الجنون سأذبحك». صوتٌ نعرفه مثل اسمنا، صوت (حكّوم)، يحدث (عزة) زوجة (خباس) التي تجاوبت معه: «والختمة الشريفة لا أكذب عليك، هو ابنك».

انتبهنا للحديث، الذي ارتجف قلبنا عند سماعه، فاستطردت بصوتٍ متنشج بالبكاء: «لم أكن سأخبرك، قبل حملي بيوسف ظل خباس شهورًا لا يمسني، وكنت أعلم أنه يخون، وأنت زرتني ثلاث مرات، ثم اكتشفت أنني حامل، فنمت معه حتى لا يشك، إن لم تصدق لا يهم، أنا فقط أخبرك للأمانة». وكأن رعدًا نزل من السماء فأصاب دواخلنا، كأنني صعدت من جسد (صابر)، وكأن الموت زائرنا، وتمنينا لو تنتهي حياتنا، ولا نعلم شيئًا بتلك القذارة، ولا نسمع ما يخرب أنفسنا الهشة، ونحن لا نملك قوةً لتحمل صِدمة كتلك، فتهاوى جسدنا وكدنا

نسقط فنموت، فقعدنا على الماسورة بحذر وجسدٍ متهاوٍ، وانبثق صوت (حكّوم) ليستحيل الشك يقينًا: «كيف أنجب منكِ وجواهر لم تحمل حتى الآن». فردت عليه: «والختمة الشريفة لا أعرف، الولد ابنك». أصدر خنفرة عالية صدعت آذاننا ونطق بغضب: «أنتِ نمتِ معي، ما الذي يجعلني أصدق أنكِ لا تنامين مع غيري؟ ابحثي عن أبي الولد، لن أعتب باب شقتك مرةً ثانية».

خشينا انزلاق القطة، وكانت تتشبث بنا فانغرست مخالبها في جلدنا، وعافرنا للتصلب حتى لا نهوي مغا، لا يهمنا أنفسنا، لكن القطة ما ذنبها، ففردنا يدنا اليمنى وتمسكنا بالجدار ومشينا على الماسورة، حتى وصلنا إلى الكوة فقفزنا، ونزلنا بالقرب من باب أمنا، فأبصرنا (حكّوم) ينزل على الدرج، ثبت أمامنا، وأمسكنا من تلابيبنا بصلابة وقال: «ما الذي كنت تفعله في المنور». لم نرد، تعلق ناظرانا به باشمئزاز ونفور، كأننا نرى الشيطان أمام أعيننا، فقال: «انطق». فانسلت القطة من بين أصابعنا، فضحك متندرًا: «عيل خرع». ثم ابتعد عنا، فلم نقدر على المكوث لحظة، خرجنا من البيت شاردين، عقلنا يتقلب على نار حامية، يتم شواؤه، ولا نرى أمامنا إلا الظلام، الجحود، الكفر، المعاصي، وكل ما هو محرم وشنيع، فقررنا الخروج، الرحيل بلا عودة، ترك أهلنا في ظلال الدنيا، يرصون حطب جحيمهم، يأخذون موعدًا مع الله، لتكون نهايتهم سوداء قاتمة.

مشينا حتى خرجنا من الزرائب، وقررنا عدم العودة، ولم نعلم وجهةً نقصدها، فساقتنا قدمانا إلى حي السيدة زينب، ننبش في الماضي، ونتضاءل ضعفًا، ولا نعلم ما يخبئه القدر لنا.

***

التحمنا حتى أصبحت هو، أرى أفعاله اليومية، جزءً من إصبعه لا يتركه، خاتم (حكّوم أبو حماقة)، أعلم ما يمر عليه، ومر حياته، ولذع ما يذيقه من حوله، بحور دماء يغرقني فيها، وشلالات من المخدرات والأسلحة، وجزءً ضئيل من التعبد المجهول.

بعد اختفاء (صابر)، علم أهله دون استخلاص سبب، ولم يحددوا وجهته، فنقبوا في كل مكان، ولم يعثروا عليه، وفرش (حكّوم) رجاله في القاهرة يفتشون، وفرقة منهم يقلبون الزرائب، التل، الكوم، والسباخ، ينبشون عن جثته إن قتل، والبقية يستقصون أي مكان قد يزوره، ومادت الأيام ولم يعثروا عليه.

وزاد مرض (عبد القادر أبو حماقة)، وولج (حكّوم) الشقة في ليلةٍ مظلمة، ممسكًا هراوةً في يده يهزها، والسكر يزيده عربدة، فوقف على عتبة باب غرفة أبيه، وأسند الهراوة، وأخرج ورقًا من جيبه وتبغًا وحشيشًا، وقرفص على الأرض، وأخذ يلف سيجارةً محشوة، وعيناه تعاينان (عبد القادر) الذي سعل والتقط أنفاسًا خانقة، وقد أوشك على السبعين، جزر شعر رأسه إلا نتفة منه كبياض الثلج، فغر عينيه، وتقابلت النظرات في مبارزةٍ صامتة، أشعل (حكّوم) السيجارة، وصلب جسده، استند إلى حرف الباب، التقط دفقة منها وقال: «لِمَ لا تموت؟» جاهد (عبد القادر) دقيقتين حتى قعد، وأشار بيده ببطءٍ ونيد: «كل شيء يموت في النهاية»، ثم أردف: «لِمَ تكرهني؟» يفهم (حكّوم) بعض كلماته، استنبط ما قاله، فتقدم نحوه ونطق بامتعاض: «لأنك ضعيف». أناخ على كرسي مرتكن أمام الفراش، اقتلع أنفاسًا من سيجارة الحشيش، ثم أردف: «لو لم تكن ضعيفًا، لما طردنا من الصعيد، ولم يكن ليسرقك عمي خطاب». سرح مراقبًا دخان سيجارته وأكمل: «أتظن بأنني سكت؟».

استل بعض الدخان بين رئتيه مستطردًا: «منذ سنوات قليلة، سافرت لأرى، أتعرف أن عمنا نوفل قد مات؟ وجدوه غارقًا في الترعة، وزوجته هند عادت لترقص في الموالد، أما خطاب». صمت لحظات وضحك، وحدق إلى عيني أبيه اللتين جحظتا وتوسعتا: «لا أظن بأنك تريد أن تعرف عنه».

تنهد، ثم توقف وأحرق قعر السيجارة: «أستطيع أن آخذ رجال المنطقة وأسافر إلى منفلوط وأسترجع حقنا، أقتل إن أردت، أهدم بيت أبو حماقة الكبير، لكن الورث لا يعنيني، إنه يعنيك أنت، وضعفك جعلك تصمت».

انسكبت دمعةٌ من (عبد القادر)، وارتعش جسده وهو يشير: «ماذا حصل لِخطاب؟».

مال (حكّوم) مبحلقًا فيه متسائلًا: «سؤالك قلق، أم تريد أن تعرف ما حصل لأخيك؟». مد (عبد القادر) يده وأمسك أصابعه راجيًا، فأبعده الأخير فظاظة وهو يقول: «ظلمك وتريد له الخير، لا تقلق، هو عمدة منفلوط الآن، ينعم في خيرات جدنا، يملك كل شيء، استرح».

أنهى حديثه، أمسك بالهراوة، تطلع إليه بتأفف، ثم رحل.

***

خرجنا ولا نملك في جيبنا إلا ربع جنيه عطف به أحدٌ علينا منذ أيام فدفعناه أجرةً لنصل، وتسللنا إلى حي السيدة زينب، راجعان إلى رحم الدعة والأمن، وسترنا وجهنا بوشاح، نخاف أن يبصرونا فيتذكرون ما صنعته أمنا، حتى لو مر من العمر ما قارب العقدين، دخلنا مسجد السيدة زينب، وتوضأنا، وصلينا ركعتين، وتبسمنا بتؤدة لم نشعر بها منذ أعوام، واستخبرنا فعلمنا أن الشيخ (محمود) توفاه الله، تربع الحزن على صدرنا، وتساءل الناس والأعين تركض خلفنا، من ذا الذي يصلي ملثمًا، ودنا المصلون وزائرو السيدة منا، يستوضحون اسمنا، من أي مكان أتينا، ولم نغطي وجهنا، وأخبرتنا نفسنا كذبة، بأن مرضًا أصاب جلدنا فلا نبغي كشفه للعامة، لكننا خفنا غضب الله، فهو لا يحب الكاذبين، فهربنا من أسئلتهم، وأعينهم، ومنهم، وخرجنا من المسجد راحلين، مشينا في الحي، الناس يرمقوننا بتحير، وكنا نريد رؤية أبناء (يونس)، ونخبر زوجاته أن يغفروا له، فقد وافته المنية، ومررنا من جانب بيوت آبائهم، فلم نبصرهم، حتى انتهينا عند بيت المعلم (سفاجة) أبي (نعيمة) أرملة (يونس)، وقد أبصرناها تخرط ملوخية أمام البيت وتفرد ساقيها وفخذاها ظاهرتان للمارة، ما زالت فاجرة، قاربت على الأربعين وكما هي، ناضجة لا تخشى رجلًا، وبجانبها فتاة فاتنة، جميلة، (زينب) ابنة (يونس)، أصبحت سيدة كبيرة، ورق قلبنا عند إبصارها، فاقتربنا، وتسمرت قدمانا أمامها، فلاحظتنا (نعيمة)، أفرغت يدها وعلقتها في جانبها وقالت: «ما لك تقف هكذا وتغطي وجهك؟ حرامي أنت؟ أم تبصبص». فانتزعنا من ضياعنا، وكدنا نعتذر لكننا خفنا معرفتها صوتنا، فكتمنا فمنا، فخرج عجوز ينادي، علمنا أنه المعلم (سفاجة)، والزمن نهش جسده فما بقي لا يسر نظر.

فرحلنا مدبرين، لم نلف خلفنا، ومشينا حتى خرجنا من حي السيدة، نسير دون علم لطريقنا، ولا وجهةً نسلكها، ولم نملك مالًا ندفعه لسيارة أجرة أو قطار، وإن امتلكنا، فأي مكانٍ سنطلب؟ مشينا حتى نحلت كعوبنا، وكنا نقف في كل مكانٍ عند الصلاة لنؤديها، في جامع أو شارع، فغلفنا غبش الليل، وقرب صلاة الفجر، قطعنا سيرنا في مكانٍ يدعى الزاوية الحمراء، وأبصرنا جامعًا، دخلنا نصلي، وكان صوت الشيخ عذبًا نقيًا جميلًا، وكنا خاشعين، انتهينا فشعرنا بهدوءٍ يسكننا، وهرب الكل بتدافع، ونحن آخر من رحل قبل الإمام، جلسنا بجانب المسجد، نتنفس هواءً يريحنا، وحمدنا ربنا أن الفصل صيف، فلم تصبنا نسمات بردٍ، وغاب الكل وتنفست الدنيا بنورٍ خافت صدر من السماء، ووجدنا قطعة ورقٍ سميكة، أمسكناها وفردناها بجانب المسجد، ونحن نعتاد نومة العراء، فمددنا جسدنا، ونمنا ثلاث ساعات متواصلة، ضجيج ودبيب غطى الحي، فأصبحنا وفتحنا أعيننا، تبسمنا بدماثة، ثم استعنا بالله، وشيءٌ في نفسنا أخبرنا بأن حياتنا هنا.

مررنا بالشوارع، نتفقد المنطقة، صغيرة، هادئة، ناسها يسعون للرزق، ويبدو أن الطوائف تغلبها، ويعيشون معًا بتقبل، شيوخ بلاسات، وقساوسة، جامع وكنيسة، تسمع النواقيس والأذان في وقت واحد، والابتسامات توزع بدعة، فقررنا البحث عن عمل، لم نعمل في حياتنا كلها، ولكننا لن نستطيع العيش فارغين دون طعام، ولا نسعى لامتلاك بيت، فأرض الله واسعة، وعلينا أن نسلك حياة الرجال، فطرقنا كل الدكاكين نسألهم، ووقت الصلاة نعود إلى المسجد لنؤديها، ثم نستكمل بحثنا، فلم يقبلنا أي منهم، ولم نجد وظيفة شاغرة، وإن وجدنا فيبحث صاحبها عن خبرةٍ لمن يعينه، وفي الشفق، أدركنا أننا سألنا كل الناس، فرجعنا إلى المسجد، صلينا المغرب ومن بعده العشاء، أظلمت الدنيا، فجلسنا أمام الجامع، وصرخ بطننا، لم نأكل شيئًا منذ البارحة، ولا نملك جنيهًا واحدًا، وكان في جيب جلبابنا حبل، فلففناه على بطننا ليهدأ ويصمت ويرحل الجوع، وفرشنا الأرض بالورقة ودفنا في نوم سحيق، غرقنا حتى ارتفع مكبر الصوت بصلاة الفجر، فأفقنا، وصلينا، وكان اليوم

أربعاء، الجوع ينهش بطننا، ففتحنا فمنا أسفل صنبور المياه وملأنا جوفنا، شيء يسكت الجوع، وبعد الصلاة ربضنا أمام المسجد، وطلع الصبح، فعزمنا النية لله وتوكلنا عليه نبحث عن العمل، وللمرة الثانية، نمر على نفس الدكاكين، نسألهم، فيتندرون علينا، وبعضهم يبتسم بالرفض، والآخر يسبنا لعدم فهمنا، ولم نيأس، لم نترك دكانًا إلا وسألناه مرتين، ونعود لنصلي ثم نكمل، حتى أذنت صلاة العشاء، وعدنا إلى المسجد، عبأنا بطننا ماء، وكادت نفسنا تبكي، أنهينا صلاتنا، وخرجنا، ابتسمنا ونظرنا إلى سماء مرصعة بالنجوم، وحاولنا النوم، لكننا لم نقدر من الجوع، يشتد ويزداد، فكرنا أن نقتات من الورق الذي ننام عليه، ولكن نفسنا أبت، فقعدنا مغمضين العينين، نهز جسدنا، نسبح ونذكر الله، والله لم نشعر بالوقت، حتى حضر إمام المسجد وفتحه، وكان الصابح خميسًا، فقررنا الصيام، رغم أننا لم نأكل الثلاثاء والأربعاء، ففتحنا صنبور المياه وغمرنا معدتنا ماء، ونوينا الصيام، ورفع الإمام عقيرته بصلاة الفجر، وصلينا، ثم خرجنا، وبزغ الإنهاك والتعب من وجهنا، يجالسنا الموت حليفًا، ولا نهابه، إن كان ميعادنا فلا نخشاه، نريد لقاء ربنا، وظهرت الناس مع بزوغ أشعة الشمس، وقررنا التفتيش عن العمل للمرة الثالثة، ولكننا كنا نسير الخطوة بجهدٍ مفقود، وكانت عينانا تغيبان وتعودان، ونسأل نفس الناس أصحاب الدكاكين، فينهروننا، ونرحل.

قرب صلاة العصر، في أوج القيظ، سقطنا أرضًا، طلبنا من الله العون، وأن ينجدنا فما عدنا نقدر التحمل، فجسدنا مكدود ضعيف، أوقفتنا الناس وساعدتنا، فتبسمنا لهم بود، ورحلنا إلى المسجد، صلينا العصر وانزوينا، شددنا الحبل على بطننا بقوة أعظم، حتى برز قفصنا الصدري، وطلعنا لنقعد أمام المسجد، لم نقدر على مواظبة البحث، كنا نتدهور، يتهاوى جسدنا، نتمسك بالهواء بجهد مضنٍ، نذكر الله، ونبتسم، نظرنا إلى السماء وتحدثنا بصوت خافت: «أهو اللقاء؟»، وضحكنا براحة لم نشعر بها منذ خلقنا، وأذن المغرب، ودخلنا، تجرعنا ماء حتى آلمنا بطننا، ثم صلينا، وجلسنا بجانب جدار نسبح، وكانت الناس تبدو غائمة أمامنا، فخار جسدنا، وسقطنا، فالتم المصلون حولنا، فحاولنا ألا نكشف ضعفنا، تبسمنا وقلنا بكياسة بصوت خرج بأعجوبة المولى: «اعذروني، فأنا لا أنام جيدًا». ربت الناس علينا باغتباط، وأحسسنا بأننا نحتضر، وقعدنا بأكتاف ساقطة، وتطلعنا إلى فوق، وذكرنا الله مرارًا في نفسنا، نسمع نمنمات متداخلة، تصلب بغتة رجل من المصلين نير الوجه يبلغ الستين سمعنا الكل يناديه الحاج (حسين)، سحب وعاء فيه لحم وأرز، ثم وضعه في منتصف المسجد وقال: «اليوم علمت بأن زوجتي حامل، وهذا نذرٌ لله أن أطعم الناس من خير بيتي، هو قليل، ولكن الله يبارك فيه».

فصاح بعض الناس: «مبارك يا حاج حسين». فرفع يديه الاثنتين والسبحة تعلق بهما يحييهم ويقول: «الحمل هذا بعد خمسة عشر عامًا، الحمد لله». فزاد الكل من مباركته والتموا حول الوعاء يأكلون، ولكننا لم نتحرك من مكاننا، شيء في نفسنا أوقفنا، لا نعرف الرجل، أهو منافق مثل أخوينا، أم رجل صالح، فلما أبصرنا، قدم نحونا حتى التصق بنا وربت على كتفنا وقال: «تعال كل معنا».

تنهدنا بضعف وخرج صوتنا خافتًا: «أموالك حلال؟» فرد بتبسم متأثرًا: «حلال لا تقلق، إني أخاف الله». فتوسمنا في حديثه نجوانا، جاهدنا للوقوف وكدنا نسقط، تأزرنا به حتى وصلنا، وانفرجت الناس لنجلس، مددنا يدنا، وأكلنا بنهم وشره، فكان اللحم ينزل في جوفنا دون أن نمضغه، والله لا نذكر آخر مرة تذوقناه، كنا أطفالًا لا نفقه شيئًا، فحمدنا الله في نفسنا، ووقع دمعنا شكرًا وحمدًا، ولما شاهدونا نغوص في الأكل، رأفوا لحالنا وابتعدوا تاركين لنا الوعاء، عكفنا نأكل حتى انتفخ بطننا، وحللنا عنه الحبل، وزدنا في أكلنا، حتى افترشنا الأرض وتمددنا بجانب الوعاء، والابتسامة لا تفارق وجهنا، والحمد لا يغرب عن لساننا، وما زاد حمدنا أن الحاج (حسين) ربت على كتفنا وهمس: «أتبحث عن عمل؟» كدنا نموت فرحًا، وهززنا رأسنا بسعادة، فأمسكنا من يدنا لننتصب قائلًا: «تعال معي».

مشينا حتى أدركنا طرف الحي، انتهينا عند دكان، قام بفتحه وهو يقول: «علمت من الناس بأنك سألت في الدكاكين حتى ملوا منك، ولكنك لم تسألني، يبدو أن السبب أن دكاني متطرف بعيدًا عنهم». انكشف الدكان، فاتضحت أمامنا أجهزة كهربائية، أربعة تلفازات، وخمسة راديوهات، وثلاجة، وغسالتان، وأسلاك متناثرة

في كل مكان، جلس على كرسي خلف مكتب خشبي مغطى بالأسلاك والمسامير والعدسات وهو يقول: «أنا الكهربائي الوحيد في حي الزاوية الحمراء». قبضنا على راديو وبششنا، وددنا لو نضعه في الكهرباء فنسمع قرآنًا، فأردف: «كنت أبحث عن شخص أمين يساعدني، وجهك يريحني، ولا تقلق، سأعلمك المهنة وستكون عريفًا بها». فنظرنا إليه مبتسمين براحة ودعة، فقال: «أعطني هذا الراديو». فناولناه إياه، فأمسك مفكًا وبدأ في حل مساميره وأعيننا تحفظ كل حركة يقوم بها.

***

افترش الناس كراسي خمارة (خباس) يستمعون إلى الراديو، وجيش مصر يواجه إسرائيل ببسالة، يحاول استرجاع الأرض التي سلبوها، وأخذ (حكّوم) يمسح على حجري يلمعه على طاولته المركونة أمام باب الخمارة، ثم سعل، وجر أنفاسًا من شيشته، يشبك سيقانه، يكشف الزرائب، وأذناه مرتكزتان على ما يتردد في الراديو، وقد غلبت عليه الوطنية حتى إنه منع أعمال العنف والسرقة لانتهاء الحرب، فعلى قلوب المصريين أن تنطوي على نفسها كرجل واحد، وألا تسجل جريمة، فالبلد في حالة حرجة، وعليه ألا ينتبه لترهات الشغب، وعلى الكل أن يلتزم بحب وطنه، والراديو يصدح: «يحاول رجالنا الدفاع عن وطننا، واسترداد سيناء، ونطمئنكم، لقد أسقطنا عددًا ليس هينًا من طائرات العدو، ودبابات، ولا تصدقوا إشاعات أن خط برليف منيع، فبعون الله سنخترقه ونمر». فقال (البغل): «علي الطلاق من بيتي لو لممنا رجال المنطقة وذهبنا إلى سيناء لنأكلهم أكلًا». تحزب له (العربجي): «والمصحف الشريف لو يأذن المعلم حكّوم لنسحب الأسلحة ونقطعهم في بلدهم». جذب (حكّوم) دخانًا حاميًا، وغاب بعينيه، يبدو أنه تذكر لحظاته مع المقاومة، وسقوط (محمد) بين ذراعيه، فأطبقهما لحظات، ليزعق (الوحش): «حرب ماذا التي تتحدثون عنها؟ اتركونا نشوف أكل عيشنا». ثم زعق: «قهوة مضبوط يا حميد». ورمق (حكّوم) وقال: «ما رأيك يا معلم؟».

ترك خرطوم الشيشة من يده، وتفقده ببغضاء ناطقًا: «رأيي أن تسكتوا لأنكم لا تفهمون شيئًا». ثم انتصب، ولج إلى الخمارة، قعد معهم إلى الطاولة وبص إلى (الوحش) مزمجرًا: «مرت ثلاث سنوات». وضع (حميد) القهوة أمام (الوحش)، ثم ركض وأحضر شيشة (حكّوم) وناوله خرطومها، فارتشف (الوحش) حسوة من القهوة وقال: «والله ما سكت يا معلم، الفترة الفائتة كانت عندي بعض الأخبار، وأرسلت من يؤكد لي صحتها». ضربه بخرطوم الشيشة وصاح: «وماذا تنتظر يا بن الكلب؟ انطق». فضحك (الوحش): «اهدأ يا معلم، انتظر، كل شيء في وقته». قاطعهما (البغل): «الوحش خرع، كنت تركتني أنا أبحث عنه». فجلجل (الوحش) بضحكات عالية وقال: «تهز مؤخرتك السمينة وتأتي فارغًا كما أنت، اسكت يا بغل». ثم رمق (حميد) وقال: «أحضر له زجاجة بيرة ليهدأ». فقهقه الرجال في القهوة ضاحكين، زمجر (البغل) فساد الصمت في لحظات.

قدم (خباس) وقعد بجانب (حكّوم) وهو يقول: «لماذا تريد معرفة مكانه، أقسم إنه يشحذ الآن عند أبواب الجوامع». مال برأسه صوب (خباس): «الولد ضعيف، ولا تنسَ أنه أخونا» رد (خباس) سريعًا: «أخونا ومجنون». ضحك (حكّوم) مستهزئًا: «أنت المجنون، أنسيت كيف أخرجك من ورطتك؟» تنحنح (خباس) ونطق متحيرًا: «حظ». انفعل (حكّوم): «خباس، لا أريد وجع دماغ، رئاسة الجامع لك، وأنا لا أبحث عنه لشيء، أريد فقط أن أعرف إذا كان قد مات». تساءل (خباس): «لمَ؟» تنهد (حكّوم): «هو أخونا في النهاية، مثلك، ولا أريد أن يمسه سوء».

ولج رجل من رجال (حكّوم) ولمس دماغه بأصابعه العشر: «سلامٌ على المعلمين». ثم مال على أذن (الوحش)، فبش الأخير وقال: «مر علي في الليل وستفرح». فابتهج الرجل وحياه ورحل، فقال (الوحش): «عرفت مكانه يا معلم». انتبه (حكّوم) فأردف: «في الزاوية الحمراء يعمل في دكان رجل كهربائي اسمه الحاج حسين». فتنفس (حكّوم) بدعة ووقف مبتسمًا براحة، ثم أخرج من جيبه لحسة أفيون، مصها، والسعادة برزت من عينيه، لف نفسه صوب الباب، فدخل أحد رجاله وقال مرتاعًا: «أبوك مات يا معلم، البقية في حياتك».

أغلق (حميد) الراديو، وانتفض الرجال في المجلس فوقفوا من رهبة الحِدث، وتقابلت نظرات (حكّوم) مع

(خباس)، ويبدو أنه لم يعرف ما يشعر به في نفسه.

***

غسلوا الميت وصلوا عليه في باطني صلاةُ خاطئة كعادتهم، وكحال الدنيا فانية، ينتهي فيها كل شيء، ولا يبقى غيره شاهدًا على ما صنع، ويتعاظم ويتكبر الإنسان ونهايته تراب ودود، ما أحقر الدنيا ولكنهم لا يفقهون.

لم تسقط دمعة حزن، وبدوا كالجماد لا يشعرون، يصلون الصلاة بعجالة، وانتهوا منها ودفنوه، ثم عادوا وصنع (حكّوم) سرادق للعزاء، وكان أحيانًا يضحك ويسخر ولا يحزن حدادًا، حتى انقضت ثلاثة الأيام، ولم يذكر اسم (عبد القادر أبو حماقة) بين جدران البيت مرة ثانية، حتى إن (لبيبة) لم تخرج دمعة واحدة وداعًا لرجلها.

وانتهى اسمه من الدنيا، رحل هادئًا كما كان فيها، وتوالت الأيام، وعجلة الدنيا لم تتوقف على ميت أو حي، والله يسيرها كما يريد.

***

أوينا إلى منطقة الزاوية الحمراء، وغدق الله علينا بالخير، فسمح لنا الحاج (حسين) بالنوم في دكانه، رجل طيب وبشوش دائمًا يتلفظ بالخير ويعطف علينا، ومع مضي الأعوام تمكنا من استئجار شقة صغيرة في بيت قديم ملك لرجل نصراني، لم نحتك به إلا عند دفع الإيجار، وكان سكان البيت كلهم نصارى، إلا نحن فقط مسلمون، وكنا راضين بما قسمه الله لنا، وزاد وزننا فنضر وجهنا، وأصبحنا نأكل الطعام كما الناس كلما أحسسنا بالجوع، بأموال حلال نكسبها من عمل شريف، فقد حذقنا مهنة تصليح الأجهزة الكهربائية، وكنا نزيح الحمل عن كتف الحاج (حسين) ونقوم بمعظم الأعمال، ولم ننس الزهد لله، فلم نترك فرضًا ولا دقيقة إلا وسبحنا. واشترينا جلبابين نبدل فيهما، واستحالت حياتنا هادئة وجميلة ومطمئنة.

وأغرب ما مر علينا، أن زوجة الحاج (حسين) الست (خديجة) كانت نصرانية وأسلمت بعد أن تزوج بها، وتوجد حكاية قديمة بين الناس في الحي، أنها كانت تسمع القرآن في المسجد، وتعلق قلبها به، وفي يوم كانت تصلح راديو عند الحاج (حسين)، وسألته لأنه مسلم، وكان حينها في بداية عقده الرابع، فأجابها، وكانت تزوره لتستفهم منه، وهو ضليع في دين الإسلام، ووقعت في حبه، وأبلغته أنها تريد أن تعتنق الإسلام، فتزوج بها، وأخفاها في بيته، ولم يهرب من المنطقة، فقرر أهلها قتلهما، واجتمع المسلمون حوله لحمايته، وتدخلت الكنيسة، وكانت الفتنة على وشك الاشتعال، وحاول علماء الدين الإسلامي إخماد الحريق، فأخبروهم بأنها الآن مسلمة، ومن حقها أن تعيش في سلام، ولكنهم لم يتنازلوا عن حقهم في الثأر، فحرست الشرطة بيت الحاج (حسين) ثلاثة أعوام، وكان يتعرض لفيض من المضايقات، وانتهت الكارثة بموت أبي (خديجة)، وأخبروها بأنه حزن على فقدان ابنته، ولم تحاول أمها التواصل معها، حتى وافتها المنية هي الأخرى، ودفنت الحكاية، وعاشوا بهدوء، ولكن الناس لا تنسى، ويعرف الكل أن زوجة الحاج (حسين) كانت مسيحية.

وبعد أعوام، حاول أخوها (ميخائيل) التحدث معها، ولكن الحاج (حسين) حال دون ذلك، وكانت ترتعد من شره، وظل يعافر شهورًا، حتى جمعهما الحاج (حسين)، وعاملها (ميخائيل) بحسنى، ولم يخبرها كلمة جارحة، وظلت هي على دينها، وهو على دينه، وأحيانًا يأتي (ميخائيل) لزيارتنا، ونتحدث معه، طيب وثغور، رغم لسانه البذيء، ويعمل في مصنع دواجن، يصرف على زوجه وابنه الصغير، ولأنه سمح أحببناه على دينه.

وهرولت الأيام تنسل، وذات مرة كنا في الجامع، وسمعنا طفلًا يتلفظ بسورة الفاتحة بنطقٍ غير صحيح، فكان يقول: «الرحمنْ الرحيم». فتقدمنا نحوه وربتنا على كتفه وقلنا: «ما اسمك؟» فرد الولد: «محمد». فشاعت ابتسامة من وجهنا ونطقنا: «خير الأسماء اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم». تربعنا بجانبه وقلنا: «اسمع يا محمد، سورة الفاتحة تنطق هكذا، بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمنِ الرحيم، بالكسرة وليست بالفتحة».فأعادها خلفنا بسماحة، والتمت الأطفال حولنا، فتذكرنا ما كنا نعمله

في حي السيدة زينب، تحفيظ الأطفال القرآن، فتملكتنا دعة، وشرعنا في تحفيظ الأطفال من حولنا سورة الفاتحة، ومن ثم بدؤوا في الوفود إلينا، وطلب حفظ القرآن، وأهلهم أخبرونا بأن سيرتنا على ألسنتهم طيبة، وكنا نعلمهم بعد كل صلاة بعض الآيات.

في يوم، كنا نحفظهم سورة الكوثر، فقدم إلينا الحاج (حسين) وقال: «لمَ لا تأخذ مقابلًا ويكون عملًا إضافيًا على عملك معي». فرددنا: «والله نستحي من الله أن نطلب مقابلًا في شي جليل كهذا». فرد علينا: «يا صابرا! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ أحقَّ ما أخذْتم عليه أجرًا كتاب الله)».

واقتنعنا بحديثه، وكنا نأخذ مقابلنا ممن يملكون القدرة على الدفع، ولكن الفقراء من أهالي الغلمان لا نتلقى منهم قرشًا.

وكانت توجد ثلة من الشيوخ المتزمتين، وعلمنا بأنهم جماعةٌ يطلق عليهم الإخوان المسلمون، يترأسهم شيخ ضرير اسمه (قاسم)، وكانت أفكارهم متعصبة، من الدين ولكن لا لين فيها، فالسارق تقطع يده دون جدال، ولا يبحثون عن السبب الذي خلق منه سارقًا، وحل مشكلته، كإعطائه عملًا ينتفع منه، فيعرض عن السرقة، يبغون تطبيق الشريعة كما أنزلت، ويفسرون الآيات دون يسر فيها، ولا نرفض تطبيق الشريعة وإنزالها على المسلمين، ولكن علينا أن نفكر بلينٍ في التعامل، فوالله أن أصلح من شاب فيكون تقيًا أفضل من أن أعاقبه فيكره ديني ويلعنه فنزداد كافرًا، ولا نلغي تطبيق شرع الله، فأقامه رسوله -صلى الله عليه وسلم- من قبل، ولكن بعض الأمور يحتاج إلى الكثير من التفسير والتنقيب قبل تطبيقها بحدٍّ قاطع، ولا نعرف إن كان اعتقادنا صحيحا، ولكننا نأخذ الدين بلين وحب ومسامحة، وذلك ما أشار إليه الإسلام.

والشيخ (قاسم) علم أننا نحفظ القرآن للأطفال، فكان يستخبر أمرنا، وكان يلقي علينا السلام دائمًا، ويجلس معنا لنتشاور، يحذق أفانين الكلام، فنختلف، ونتفق، ونفترق، ونقترب، وتتأرجح الدنيا حولنا، وما باقٍ إلا الله وحده شاهدًا على تنازع الإنسان.

***

موجودةٌ كأنني لست هنا، تضاءل الذين يصلون، ومن يؤدونها فيكون إرضاءً لسيدهم، ولا يعبدون الله كما أخبرهم الكتاب، صمٌ بكمٌ عميٌ لا يفقهون، ويتعملق في أنفسهم الشيطان فيتفرد بهم ويصنع منهم عرشًا يتكومون أسفل أقدامه ويبتسم بزهو، فليرحمهم الله ويهدِهم إلى الطريق الصحيح.

انتصرت مصر في الحرب واستردت حقها في استرجاع سيناء، وهزمت إسرائيل وتقهقر اليهود إلى فلسطين، يفسدون ويحرقون معالمها كما ذكرهم الله ولعنهم في كتابه العزيز، فرفع (حكّوم) الحصار عن الناس؛ احتفالًا بانتصار جيش مصر المجيد، وعاد الكل للتخريب، ولم يعترض أحدٌ منهم، فأنتج الإهمال وانعدام الضوابط كارثة أفحمت قلوب الكل؛ إذ إن (شحتة نابليون) مراهقٌ فاسق دنيء، لا يظهر إلا مداعبًا للحشيش بين أصابعه، ويتشاجر مع الناس في كل زقاق، والحيوانات، والحشرات، والهواء إن لم يجد من يشتبك معه، وأمه الست (فوزية) بائعة جرجير تفرش بضاعتها على أول شارع المطراوي، ست غلبانة لا تملك إلا الستر في الدنيا وذكر الله والعمل بعد أن ترملت، وقد علم (شحتة) طريقًا للهيروين، فأدمنه وكاد يبيع كليته ليشتريه، يسلب من أمه ما تملك من ريع كل يوم مع عمليات السرقة التي يطلعها مع بعض الشباب الفاسدين، ليشتري نفحة هيروين وحقنة فيدسها بين عروقه، وينسى ربه ونفسه، ولا عتاب على الكافرين، له في الآخرة نار السعير، ودخل عليها في الليل ويومها لم يكن مثمرًا، تملك بضعة جنيهات لشراء ما ينقصها من بضائع، وطلب منها مالًا ليشتري به سمًا يهدئ به جسده، ولما رفضت غرز سكينًا في قلبها، وليواري سوأته قام بتقطيعها وتغليفها في أكياس بلاستيكية، ثم رماها في المنور، كأن أحدًا لن يعلم، تلف عقله مما يحرقه، ومر يومان وفاحت الرائحة، فاكتشف الجيران وانقلبت الزرائب.

حضر (إسماعيل الخياط) ليحقق في القضية، سرعان ما اكتشف أن القتيلة السيدة (فوزية) بائعة الجرجير،

ومع التحقيق الذي دار ثلاثة أيام علم أن القاتل ابنها (شحتة نابليون)، فقبض عليه، وانقلبت الدنيا في مصر؛ إذ إنها أصبحت قضية رأي عام، بعد أن علم بها صحفي وكتب عنها، وذكر بضع كلمات عن المنطقة رغم أنه لم يستطِع زيارتها، فجمع بعض المعلومات المتناثرة، وكتب عمن يسكنونها، ولما اشتعلت الوزارة يسألون عما يحدث في الزرائب، زار (إسماعيل الخياط) (حكوم) وأخبره بأن أقاويل تتردد في الوزارة عن بناء قسم شرطة في الخصوص، سيضم منطقة الزرائب، لمراقبة أفعال الجرم التي ترتكب فيها، وعليه أن يحذر مما هو قادم.

شحب وجه (حكوم)، ونشر رجاله في المنطقة، يحجمون من الجريمة، في محاولات بائسة، لكن الناس تحولوا إلى وحوش، فلن يقدر على ترويضهم مرةً أخرى، بعد أن خلق شياطين لا يسجدون ولا يتوبون، وإن سجد بعضهم، يكون كذبًا ونفاقًا.

***

تقدسنا الأهالي لأننا نحفظ أبناءهم القرآن، ولا نبغي تنزيهًا، نريد نشر كلمات الله في صدور الناس، صغارًا وكبارًا، ولا يفرق معنا شيء آخر إلا رضاه، وانصرمت السنوات، مبهجة، حياتنا تزداد نورًا، وتتخضب بالسرور، ست سنوات، مرت تداعبنا بالسعادة والفرح، والتحق ابن الحاج (حسين) الولد (أحمد) بدورتنا لتحفيظ القرآن، لم أنس أن تشريفه كان سببًا في إنقاذنا من الموت ووحش الجوع الذي كاد يزهقنا حين وفدنا إلى هنا، فتعلقنا به وزاد حبنا له كأنه ابننا.

وانصرف الوقت متلاحقًا، ولاحظنا شيئًا غريبًا، كنا نحفظ الأطفال، ذكورًا وإناثًا، ولكن البنات تقل مع الوقت، حتى اختفين، وبقي الأولاد، وتساءلنا في أنفسنا عن السبب، حتى أخبرنا أخ لبنت امتنعت عن المجيء، أن هناك سيدة تدعى (فاطمة)، تحفظ الإناث القرآن في بيتها، فسحب الأهالي بناتهم، وألحقوهن بـ(فاطمة) لتعليمهن، وشعرنا في أنفسنا بارتياح، أن هناك من يأخذ على حمله شيئًا نفيسًا كهذا، وتقصينا بخجلٍ عن (فاطمة)، نريد أن نشكرها، أو نعرفها، لم نفهم اضطراب قلبنا، وكنا في الدكان، نسرح فنغيب، ولاحظ الحاج (حسين)، فتساءل: «ما بك؟».

استحيينا من أنفسنا أن نخبره عما يشغل بالنا، ولكننا لا نكذب وقد سألنا، فقلنا: «أتعرف سيدة اسمها فاطمة يا حاج حسين؟» فترك ما بيده وقال: «أي فاطمة فيهن، ابنة الست دنيا بائعة الجبن، أو الحاج صالح الله يرحمه؟» فلم نعرف أيهما المقصودة، ولكننا انتبهنا لمعرفته كل الناس، فسألنا: «التي تُحفظ البنات القرآن». فبش بوجهٍ ناصع بالنور وتلفظ: «نعم أعرفها كما أعرفك تمامًا، إنها ابنة الحاج صالح، بنت طيبة تخدم أمها منذ مات أبوها، وتساعدها في مصاريف البيت مع المعاش الذي توفره الحكومة؛ إذ إن أبوها كان يكنس الشوارع، فصنعت الحكومة لأهله معاشًا صغيرًا يقضي الحرمتين، ماذا بها؟».

اقتربنا من مجلسه، وقد لمعت أعيننا، فقلنا: «حدثنا عنها يا شيخ». فضربنا على رأسنا ضاحكًا: «ماذا بك يا صابر؟ تلك المرة الأولى التي أراك فيها هكذا». فلم نرد، وكأننا غبنا في عالمٍ وسحرنا، فقال: «طيب، البنت منتقبة، لا تترك فرضًا، وتصلي في الجامع، خاتمة للقرآن، وسنها خمسةٌ وعشرون عامًا، وليست متزوجة إن كنت ستسأل». تنهدنا وتطلعنا إلى الفراغ قائلين: «أتظن بأنها تقبل برجلٍ تجاوز الأربعين؟» احتضننا وضمنا إلى صدره، تسربت إلى دواخلنا قشعريرة وكدنا نبكي، وقد قال: «الله يكتبها من نصيبك، والله إنك لأطيب الرجال».

فسمعنا صوتًا يداعبنا: «من التي تضع عينيك عليها يا ثعبان». كان صوت (ميخائيل) وقد نمت بيننا صداقة، أربعيني ولكن الشعر الأبيض قد غطى وجهه السمين المحتقن بالدماء، وتحرك صوبنا بجسده البرميلي، فخرجت الكلمات من فمنا سريعًا: «أستغفر الله العظيم، والله لم ترها عيناي يا ميخائيل، أنا فقط أشم رائحة طهارتها كأنها في روحي». فضحك الرجل قائلًا: «أتريد أن تتزوج واحدة لم تزها؟» فبششنا وذكرنا الله دون أن نعلنها وقلنا: «وماذا ستفيد الرؤية، الجسد بالٍ والجمال زائل والروح الطاهرة باقية». فرمق (ميخائيل) الحاج (حسين) وقال: «ذلك الرجل غريب يا حسين». فالتقط نفسًا عميقًا وتحامل على قدميه ووقف قائلًا: «ليتنا

مثله يا ميخائيل».

وفتح الحاج (حسين) الأمر مع الست (عنايات) والدتها، وأطلعها أخبارًا عنا لم نسأل فيها، ولكننا أحسسناها عندما أخذنا ميعادًا للزيارة، لرؤية العروس، فعلمنا بأننا مرحبان بنا، ولم نكن لنتوقع يومًا بأننا ستكون لنا زوجة في حياتنا، والله نزهد في الدنيا ولا نبغي ملذاتها، ولكننا عندما سمعنا عن (فاطمة) وددنا لو تكون زوجتنا في الجنة، فسعينا للأمر في الدنيا، ليكتبها الله لنا في الآخرة.

واشترينا جلبابًا زاهيًا لترانا به العروس في المرة الأولى، ومررنا من أمام دكان عم (منصور) الحلواني، وطلب منه الحاج نصف كيلو بسبوسة، وقام بلفها في ورقةٍ لامعة، ووضعها الحاج في يدينا كأننا من جلبناها، وصعدنا لشقة الست (عنايات)، وتنحنح الحاج ثم طرق الباب، والله كأن رأسنا تعلق بالأرض، لم ترتفع أعيننا، لم نرَ الست (عنايات)، لم نكشف ملامحها، لم نبصر جسدها، وكأن الأمر خارج عن إرادتنا، فقط نسمع صوتها ترحب بقدومنا بخجل، وجلسنا في الصالة على أريكة، ووضعنا البسبوسة بجانبنا، وتقدمت الست (عنايات) والتقطتها قائلة: «ربنا يحميك». انعقد لساننا، لم نستطع الرد، فقال الحاج (حسين): «يا ست عنايات صابر ابني، تمنيت من الله أن تكون لي بنت فأزوجها له، لم أرَ في حياتي من يخاف الله مثله، وتعلمين بأنني رجل لا أحب الكذب والنفاق». فشكرت الست (عنايات) في الحاج (حسين) ولم نسمع كلمة أخرى مما يقال، وحلقت أنا في فراغٍ وخلاء، وانفصلت عن جسد (صابر)؛ إذ إن شيئًا جذبني، ظهور (فاطمة) هزني، كأن روحها تعرفني، تقترب مني، تلمسني، كأننا تقابلنا من قبل، يعرف بعضنا بعضًا، كروحٍ واحدة، اهتز كل شيء حولنا، ونزعنا صوت الست (عنايات) وهي تقول: «البنت كاشفة النقاب لتراها، ارفع رأسك الله يكرمك، الحاج حسين يقف على الباب منذ عشر دقائق وأنت لست هنا». ارتجف جسدنا، ولم نقدر على الرؤية، حاولنا، جاهدنا، حتى صعدت عيناناً، فأغمضناهما دون قصد، نور وهاج كالشمس كاد يعمينا، ترجرجت أناملنا، ودق قلبنا كالطبول، وتوقفنا مرتبكين، فتنحنح الحاج (حسين) ودخل، فنطقنا بحبور: «حورية».

فضحك الرجل وبارك على الزيجة، ودعا لنا بالذرية الصالحة، وقرأنا الفاتحة غير قادرين على رفع رأسنا مرةً أخرى، كأن أعصابنا قد تصلبت، وغمرنا السرور.

***

أخرجنا مدخراتنا، وقمنا بتجديد بعضٍ من أثاث الشقة وتلوينها بألوان زاهية، وعلمنا من (فاطمة) بأن روحها كانت متعلقةً بنا، وأنها سمعت اسمنا من البنات اللاتي تحفظهن القرآن، وأحست كأن شيئًا يجذبها نحونا، كأننا روحان في جسد، ما أحست به نفسي كان من نصيبها، وانغمسنا في الحب والغبطة، وتواءمنا، وحلمنا بيوم زواجنا، وأن تكون (فاطمة) نصيبنا في الدنيا، ونعيش معًا في جنات الرحمن، وساعدنا الصالحون في المسجد، الحاج (حسين) والشيخ (قاسم) الإخواني، وبعض الأصدقاء، وحتى (ميخائيل) ساعد لنصنع عرسًا، وتصدقوا علينا وقبلنا.

أقمنا عرسًا في وسط الزاوية احتفالًا بزواجنا، وحضر معظم ساكنيها تقديرًا لدورنا في نشر العلم، فلنا مكانةٌ خاصة في قلوب أبنائهم، واخترنا شارعًا واسعًا، وصففنا الكراسي وشققناها نصفين، شقًّا للرجال والآخر للنساء، منعًا للاختلاط، وصنعنا ممرًا طويلًا في المنتصف للمارة، وفي ذيل العرس جلبنا ولدًا ليصنع الشاي، وخضبنا السماء بالأنوار الملونة، ودفعنا كل ما تبقى من مالنا مع ما جمعناه من الناس، حتى إنهم فتحوا صندوق الجامع، واشترينا عجلًا ذبحناه، وفتحنا شقة الست (عنايات) للوليمة، فكان الحاج (حسين) يسير بين المدعوين يجذب ثلةً منهم ليطعمهم ثم يعودون فيقابلهم الولد مسؤول المشروبات بالشاي والماء، والبهجة لم تفارقنا، وصنعنا خشبة مستطيلة صغيرة، وضعنا في جهة كرسيين جلسنا عليهما نحن و(فاطمة) بنقابها الأبيض الناصع، كانت كالقمر المضيء، وهي من أنيرت حياتنا بسببها. وفي الجهة الأخرى جوقة من الموسيقيين الذين يعزفون بهدوءٍ ويسر شيئًا يليق بمدح النبي -صلوات ربي علي، وأحضرنا مادحًا للرسول صادفناه في أحد الموالد، ولما طلبنا منه لم يعارض، ومن ثم وصل المأذون، ووضعنا يدنا في يد الحاج

(حسين)؛ إذ إنه وكيل العروس، وكتب الكتاب والكل قاعد يبارك ويهلل فرحًا، وعينانا لم تحيدا عن أعين (فاطمة)، وشعرنا في نفسنا بقشعريرة تهزنا، وبعد أن انتهينا امتلأ العرس بالزغاريد.

سحب الحاج (حسين) المأذون ليذوق لحم عرسنا، وجلسنا بجانب (فاطمة)، ثم عزف الموسيقيون، ورتل المادح بأناشيد صوفية، يمدح النبي وآل البيت، وغرقنا في ملكوتٍ خاص، أغمضنا أعيننا، وأسررنا حديثنا: «مدد يا صاحب المدد». وصدح الرجل: «مولانا، عظيمٌ أنت، بشرٌ من نور، مولانا، مدد، مدد، مدد يا جميل، نطلب منك الشفاعة، فكن شفيعًا، وكن رفيقًا، وكن عونًا يا جميل، مدد، مدد، مدد يا جميل، أنت خليل من يقل كن فيكون، وأنت حبيب من يقل كن فيكون، فمدنا بنورك، وأعنا على ما آلت إليه الظروف، مدد، مدد، مدد يا جميل، اللهم صل عليه، أنت بشرٌ من نور، اللهم صل عليه، اذكرنا مع الصالحين، اللهم صل عليه، مدد، مدد، مدد يا جميل».

وفي عمق الأهازيج، وروحنا تحلق وتبغي رؤية الحبيب، توقفت أمام العرس أربع سيارات نزل منها أحد عشر شخصًا بزهو، آخر من ظننا بأننا قد نراهم بعد الرحيل، ترجلت من الأولى أمنا (لبيبة) تتعكز على منسأة، (حكّوم) وزوجه (جواهر)، (خباس) وزوجه (عزة)، والثانية (الوحش) وزوجه (سعدية)، والثالثة (البغل) وزوجه (فيروز)، والرابعة (العربجي) وزوجه (سكينة)، فأعمانا الكدر وران على قلبنا الحزن، كأنه تمزق، اقتحموا الفرح، ولم يحترموا انشقاق الصفوف؛ إذ إنهم سحبوا كراسي من الجهتين، وقعدوا في منتصف الشارع صانعين كتلةً ضخمة وصلت بين الناس، يمسك (حكّوم) هراوة يهزها، ووضع القدم فوق الأخرى بأبهة، وابتسم إلينا، ثم ضم يديه نحو رأسه تحية وقال: «مبارك يا عريس». وصلت الكلمات تقطع آذاننا، وضحك (خباس) وقال بصوتٍ عالٍ مسموع للجميع: «من كان يصدق بأن هذا العبيط سيتزوج يومًا». ثم رمقنا بسخرية وقال: «مبارك يا شيخ صابر». وتبعه كلاب الحراسة الثلاثة: «مبارك يا معلم». وانفجروا ضحكًا، فانتبه الكل من الضجة التي صنعوها، وزعق (حكّوم) في الولد المسؤول عن المشروبات وقال: «اجلب لي شيشة». فركض صوبه قائلًا: «شاي وماء فقط». فوقف وضربه على قفاه: «أحضرها من أي مقهى». رمقه بغيظ، فدفعه بالهراوة، وانتصب (الوحش) سريعًا فجذبه من منكبيه وقال: «أحضر شيشة للمعلم قبل أن أولع رأسك وأصنع منك حجر قص». هرول الولد، دقائق يتندرون علينا، وعاد بالشيشة، فصلبها أمام (حكّوم)، وسحب (البغل) منه خرطومها، ثم رص قطع الحشيش على الفحم، واجتذب منها أنفاسًا، ثم ناول الخرطوم لـ(حكّوم) قائلًا: «اكبس يا سيد المعلمين». فتسلمها منه (حكّوم)، ثم تندر (الوحش): «أنحن في عزاء لا سمح الله، ماذا يقول هذا الرجل؟» وتفجر ضحكًا، فرد (العربجي): «والله لم أرقص على أغانٍ كتلك». فوقف (الوحش) ضاحكًا فوق كرسيه وأخرج مطواة، وسحب (العربجي) الكرسي الآخر ووضعه أمام (الوحش) وصعد عليه، ثم أخرج مدية، وشرعا في الرقص بضحكٍ هستيري، يحرك كل منهما الأسلحة في وجه الآخر كبلطجيين يؤذيان الأعين ويسببان الاشمئزاز، والذكر والمدح يتصاعد، ولم يعطيا احترامًا للحديث عن النبي، وتسابقت الأعين نحوهما بتساؤل، فوقفنا على أقدامنا بذعر، وأمسكنا مكبر الصوت من الشيخ، وقلنا: «انزل يا معلم وحش أنت والمعلم عربجي، هذا عيب». فقالت أمنا: «العيب أن تتزوج ولا تخبر أمك يا بن الحرام». فتحزب (حكّوم) فاتحًا شدقه: «منذ متى وهو يعترف بأهله يا حاجة». فحابى له (خباس): «ماذا تنتظر من قرد الجميزة الذي لم تعجبه عيشتنا ورحل؟» علا ضجيج الناس، أخذتنا الصاعقة، فقلنا: «ارحلوا، لا أريدكم هنا». استقام (العربجي) وقال: «عيب أن تطرد ضيوفك يا صابر». وبغتة، صاح (حكّوم) بصوتٍ فج: «لا يتحدث أحدٌ آخر».

هدأ رجاله، وانكتمت أصواتهم، وصخب المدعوين لم يخبُ، فنطقنا في مكبر الصوت: «في عمري كله لم أخرب شيئًا في حياتكم». استوى (حكّوم) وألقى بالكرسي على الأرض، ثم ضرب الشيشة بالهراوة فحطمها، مجحف، جائر، فأردفنا: «ظهوركم الآن يخرب حياتي». صمتنا لحظةً واستطردنا: «توكلوا على الله، أنتم لستم ضيوفي». رفع (حكّوم) الهراوة وهاجم فرع نور فتناثر زجاج لمباته، اندفعنا وهبطنا من خشبة المسرح عازمين على صدهم وطردهم، فأجهض الحاج (حسين) طاقتنا، وقبض على جسدنا وأوقفنا خوفًا علينا، فتحرك (حكّوم) صوب فراشة الشاي وكسرها بالهراوة، ومن خلفه رجاله وأخونا (خباس)، فقلنا بصوتٍ عالٍ نحدث

الناس: «ساعدوني لوجه الله واطردوهم من هنا».

قام الرجال وانقضوا عليهم، فأخرج (الوحش) و(البغل) و(العربجي) أسلحةً بيضاء من ملابسهم، وكشف (خباس) عن شومة وارتصفوا أمام (حكّوم) وأمنا وزوجاتهم، فأبرز (حكّوم) سيجارةً من جيب جلبابه وأشعلها وهو يقول دون النظر إلينا: «أتريد أن تدفن أحدًا اليوم يا صابر؟» ثم أعلن عن مسدس، ورفعه إلى السماء وضرب طلقتين، فتورع الناس بذعر، كأنهم خرفان يهابون الراعي، وصخب صوت (حكّوم) بغلظة: «نحن هنا لنحييك في فرحك». وضرب طلقتين أخريين في السماء أصابتا فرع نور فانفجر، تقهقر الناس بذعر، والبعض منهم انسل ورحل، فضرب (حكّوم) طلقةً أخرى متفقدًا أعيننا.

وفجأة، لف صوب الناس وسلط المسدس عليهم بعينين ثعبانيتين، فهرع الكل في رهبة راحلين عن عرسنا، حتى الموسيقيون والمادح الصوفي، الكل ولى، إلا الشيخ (قاسم) وجماعته، ترسخوا كالوتد في الأرض، فاقترب منهم (حكّوم)، ولصق فوهة المسدس على جبين (قاسم) وقال: «تعرفني يا صابر، لن أتراجع». فنطقنا بصوتٍ مهتز: «ارحل يا شيخ قاسم فليحمك الله». فاتكأ الشيخ على عصاه ومن حوله شباب أشداء يزمجرون في وجه (حكّوم)، وظل الحاج (حسين) باقيًا، يقبض على يدينا، والست (عنايات) تحتضن ابنتها (فاطمة) التي تحول يوم فرحها إلى حربٍ يطلق بها الرصاص.

وقدم (حكّوم) نحونا، تصلب أمامنا، صوب فوهة المسدس بين حاجبينا، ولم نهبه وهو يعلم من دواخله بأننا لا نخاف شيئًا إلا خالقنا، دقيقة كاملة يبتسم في أعيننا بغلبة، ثم رفعه إلى السماء وضرب أكثر من خمس طلقات، وتزعم الصمت، ثم شقه بقوله: «هذا طلق فرحك»، وتبسم متلفظًا: «مبارك يا عريس».

وتقدم نحو أمنا، التي تفلت علينا، واستندت إليه، ومشت خلفه كلاب حراسته وأخونا (خباس) وزوجاتهم الخمس، وركبوا سياراتهم واختفوا.

فقعدنا نحن على خشبة المسرح بجسدنا الهزيل نتمنى الموت، بعد أن أبصرنا عيني (فاطمة) تنزفان دمعًا، والهلاك كان علينا أهون من هذا المشهد.

***

رجع (حكّوم) من الفرح الذي حوله إلى عزاء متلطٍّ، وكان من أخبره به (الوحش) فرجاله يراقبون (صابر)، عاش أيامًا بوجهٍ كظيم، لا يطيق الحديث مع أحد، إمساكي بإصبعه جعلني مرافقًا، أراه في كل أوقاته، مع ذاته وغيره وأحلامه، وأفهم مكنوناته وغضبه وهدوءه، وتلك المرة الغيظ لم يتركه، يتنفس نارًا، وينفجر بركانه من أقل كلمة، وأخبر رجاله بعدم مراقبة (صابر)، وأن أخاه قد مات، وقرر مسحه من حياته.

ومع مرور الشهور، حاول (حكّوم) تقليل أعمال الشغب، وهدأت تجارته إلا من الحشيش، وكان رائدًا في مجاله، والتجار يخضعون لكلماته، فأفسد وزاد فساده، وتضخمت علاقاته مع الشرطة، التي كانت تعرقل الإجراءات حتى لا يتم صنع قسم شرطة الخصوص، ولا أعرف كيف تسير الأمور بالداخل، ولكن المال يحرك الأصنام، كأن (حكّوم) قد اشترى الدنيا كلها وتحكم فيها، فيحرك الناس بأصابعه ويتلاعب بهم فيخضعوا وينفذوا ما يطلب.

والحال في الزرائب لا تسر، الاعوجاج لا يستقيم، قلل (حكّوم) من الجرائم المرتكبة، لكنه لم يقدر على منعها، الناس القدامى أصبحوا يقدسونه لدرجة العبادة، يسمعون حديثه بتأنٍ، يخضعون لقوانينه، ويسيرون على أحرف كلماته دون الانشقاق عن القطيع، ولكن الشباب، العيال، الأطفال، يكبرون في تعفنٍ أخلاقي امتدت جذوره في كل ركن، فلا تفارقهم الأسلحة البيضاء، ومن لم يقدر على شرائها يحتفظ بمشرطٍ ينبعج للتشريح إن وجب، أو موسى حلاقة يتشبث في الحلق. وبعض الشباب يملكون مسدسات، يخفونها. يعظمون (حكّوم) ورجاله في أثناء مرورهم، وفي الخفاء ترتكب جناية، فيعثرون على جثة، وتقع سرقة، ومعرفة المقترف شاقة.

وأصبحت الزرائب وباءً، حتى إن البعض لجأ إلى رجالها ليرتكبوا أعمال الإرهاب خارجًا، وأغلق (حكّوم)

صمام عقله، إذ إنه لم يقدر على تحمل تربيتهم كأنهم أطفال، وأن يكونوا مسؤولين منه، فيعاقب تارة، ويسكت تارة، ويشجع كثيرًا من الأحيان.

ووفد بعض المسجلين ليتخفوا في المنطقة، منهم الذي أضحى من رجال (حكوم)، ومنهم الذي كنف وعاش واندمج مع الساكنين، وفي الأعوام الستة الأخيرة، استحالت منطقة الزرائب إلى مرتع للمجرمين.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwaya2025

خلق الله (آدم) ليكون خليفته في الأرض، ونسله خرج سواسية، كأسنان المشط، كما قال رسولنا الكريم، ولا خلاف على أن الناس يختلفون، يتقاتلون، ويظلمون، فالأخ قتل أخاه، ولو كانت الدنيا وردية، جميلة، فاتنة، لما خلقت الجنة، هي فتنةٌ واختبار، أعدت فقط لتكون صورة، نظنها خلابة، لكنها في مكنونها زائلة، قمينة، مرحلةٌ تمر، ويأتي من بعدها الفصل، فما كان منا إلا أننا عشنا حياتنا بزهد، وتزوجنا لأجل الجنة، اخترنا (فاطمة) لتكون حوريتنا، وما نبغي من الدنيا سوى رضا الله.

وانسلت الحكايات تتأرجح في الدنيا، وصنع كل إنسان حكايةً له، نفش تسير فتتنفس فتحب وتكره وتتألم وترضى وتقنط وكل بيد الله، ولا نتدخل في تدابير قدره ولا نعترض، والله نرضى، حتى في حكايتنا بكل ما فيها من عصيب، ونعيش الآن في طمأنينة، ننتظر الآخرة بفارغ الصبر، والموت يكون زائرًا خفيفًا بهيًا، وتقلبت الحياة مبهجة، (فاطمة) جميلة، طيبة، بشوش، تزيل جراح العالم وتحفظها في نفسها، ولا تشكو، تلون حياتنا، وتحبنا، ونحبها، وحياتنا امتلأت سعادة بعد الزواج، وسألتنا عن أهلنا، فحكينا لها ما يصنعون، وساندتنا على تركهم، وشجعتنا على أفعالنا الطيبة، وزاد بيتنا نورًا ونقاءً وطاعةً لله، وبعد أشهر عرفنا بأنها حامل، ويا للسعادة التي غطستنا، سيكون لنا ابن، سنربيه على الصلاح، سنعلمه كيف يعبد الله، وكيف يفني عمره لله وطاعته، أو تكون بنتًا، فتكون كـ(فاطمة)، تقيةً مثلها، جميلة، تشبهها، وسنحفظها القرآن، وتحفظ هي البنات فيما بعد، وسيكون بيتنا أكثر دفئًا.

نكد في عملنا على غير أوقات الصلاة بدكان الحاج (حسين)، وفي أوقات الصلاة نكون في الجامع، نصلي، ونذكر الله جزءًا من الساعة، ثم نعود إلى العمل، أما بعد صلاة العصر فنحفظ الأطفال القرآن. واندلعت قصةٌ من قصص القدر في الحي، وكل شيءٍ مكتوب، أن مصنع الدواجن الذي يعمل فيه (ميخائيل) سيخصص قطعة أرضٍ خلفه لصنع زاوية للصلاة، وهناك أقاويل أخرى بأن قطعة الأرض ملك لـ(ميخائيل) وقد قرر المسيحيون شراءها وبناء كنيسة عليها، وزادت الاختلافات وراجت، وقعد (ميخائيل) في الأرض بشكيمة، وغرز كجبلٍ بحجة أنها أرضه وملكه، وليست ملكًا للمصنع، وقال صاحب المصنع إنها ملكه وليست ملكًا للمسيحيين، فانشق الناس في الزاوية الحمراء إثر ما حدث، وبدأ الكلام في التناقل، فيقول المسلم إن المسيحيين سرقوا أرض المسلمين ومنعوهم من صنع زاوية للصلاة، والمسيحيون قالوا إن المسلمين يريدون سرقة قطعة أرضٍ من مسيحي ومنعه من بناء كنيسة، ولم نقدر على تحديد مالكٍ للأرض.

وتبدلت النظرات في الشارع، بين مسلم ومسيحي، إلى زجرٍ وغضب، حتى رفع مالك مصنع الدواجن قضية لطرد (ميخائيل) الذي قعد في الأرض ولا يريد الخروج مقسمًا إنها أرضه ويملك ورقها، وقد جلب بعض المعدات ليعيش عليها، ومسك شومةً لحمايتها، وتناقلت الأقاويل بين الشيوخ في الجوامع عازمين على طرد (ميخائيل) وضربه وتهذيبه على ما يفعل، والقساوسة في الكنائس يتهمون المسلمون بالعنف ضدهم وأنهم لن يصمتوا أمام تلك العنصرية، وسيحمون الأرض بدمائهم، فقرر صاحب المصنع حل المشكلة بالقانون، وقضت المحكمة بأن الأرض ملك لمالك المصنع، وحضرت قوة من الشرطة وأخرجت (ميخائيل) منها، ولم يقبل المسيحيون فعلًا كهذا، والمسلمون لم يستسيغوا حديثهم واتهموهم بالسرقة ومهاجمة الدين الإسلامي، وكثرت الأراجيف.

أيام مرت، الشارع أضحى موحشًا، غريبًا، مريبًا، ففي كل ركن وكل ساعة اشتباك بين مسلم ومسيحي، وتمنينا أن تكون هناك مهادنة، ولكن زادت البلوى، إذ إن هتافات خرجت من منشية الصدر إلى الوايلي متجهة إلى الزاوية الحمراء تطالب بحرق منازل النصارى، تترأسها مجموعةٌ من العيال الصغيرة وقد كانت تركض في الحي وتترك علامات على بيوت المسيحيين ليعرفها المسلمون، وتكاثرت الأقاويل في المساجد والكنائس فينضحون بالشر في أحاديثهم، وأحسسنا بأن شيئًا يدبر من المسلمين والمسيحيين، كأن حربًا ستقام، وتوالت الأحداث المرعبة، وكنا نسير في الشارع بترقب، وأحسسنا بأن الشيخ (قاسم) وتابعيه من الإخوان يرسمون

مخططًا لأشياء جمة.

وفي يوم، والدنيا مشتعلة، نزلنا نصلي صلاة العشاء، وبعد انتهائنا جلسنا بجانب جدار نقرأ قرآنًا، فقدم إلينا الشيخ (قاسم) ومن معه، جلس بجانب وأمسك بمسبحته التي تركض بين أصابعه، ثم بش ونطق: «أرى فيك الصلاح يا شيخ صابر». افتر وجهنا وتلفظنا بكياسة: «نسأل الله أن يحتسبنا من الصالحين». فاقترب أكثر وسأل: «ما رأيك بالأحداث الراهنة؟».

رددنا بهدوء: «لله الأمر من قبل ومن بعد». لمس كتفنا وأزاد: «لا جدال في ذلك، أنا أسألك عن الأوضاع الراهنة» بدماثة، خرجت الكلمات لينة: «وما أنا لتسألني يا شيخ قاسم، أنا أقل من في خلقه». سند جسده إلى الجدار بجانبنا بمساعدة شخص في مجموعته ونطق: «قل لي يا شيخ صابر، إن طلب الله منك فعل شيء لنصرة دينه، ما تصرفك؟» لم تختلف نبرتنا: «ومن أنا ليطلب الله مني يا شيخ قاسم، الله يفعل ما يريد بعباده». اخشوشن صوته قليلًا: «ألم يطلب الله منا الجهاد في سبيله؟».

تنهدنا، استندنا إلى الجدار نتحزب به: «الله يعلم أنني أجاهد نفسي أكبر جهاد». حرشت نبراته وحملق بنا: «وماذا عن نصرة دينه؟» بصصنا نحوه وقلنا: «الله القاهر الجبار، الرحمن الرحيم، ينتظر مني أنا العبد الذليل أن أنصر دينه؟» قابلنا بالصمت فأردفنا: «يقول كن فيكون، ولو أراد أن تنطبق السماء على الأرض لانطبقت». بدا أنه يحاول تمالك أعصابه في أثناء قوله: «مؤمنٌ قوي خيرٌ من مؤمن ضعيف». نطقنا بفطنة: «أتركت أولي الأمر واتجهت لي». رد: «فلنبدأ بأنفسنا». قلنا: «طريقتك غير طريقتي». مال بأذنه نحونا وتفوه: «نحن في حالة جهادٍ وحرب ضد النصارى أعداء الإسلام، نريدك معنا». فلم نجد قولًا فصيحًا إلا آيةً من سورة الكافرون: «لكم دينكم ولي دين». فأخذ القرآن دليلًا: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظّالمين». فناقشناه بالحجة والبرهان: «ولتجدنّ أقربهم مَودّةً لّلذين آمنوا الّذين قالوا إنّا نصارىٰ ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يستكبّرون».

أجاب بلين: «يا شيخ صابر، ذلك الزمن ولى، من يعيشون الآن يسبون ديننا وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، أليس من الصحيح مقاتلتهم؟» حاولنا إفهامه وإنهاء جدال لا نريد خوضه: «كل زمنٍ يشبه الذي قبله، سيكون دائمًا هناك طيبون وأنقياء، يحتاجون فقط إلى فرصة، مثل التي أخذوها من عاشوا في الزمن الذي ولى، ولا تكره أحدًا في الدين، ولو شاء ربّك لآمن مّن في الأرض كلّهم جميعًا أفأنت تُكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين». ثم تبسمنا وربتنا على كتفه وقلنا لنقتضب الجدال: «اعذرني يا شيخ قاسم، فزوجتي تنتظرني على العشاء، سعدت بالحديث معك». وسلبنا أنفسنا ورحلنا دون أن نحقق له مرامه، ودعونا في صمت أن يهدي الله الناس جميعًا، مسلمين ونصارى.

وفي اليوم الثاني، قعدنا في الدكان نحن والحاج (حسين) يقضمنا القلق، وتضخم بسبب صوت طلقات نارية صعد خارج الدكان، فخرجنا مدهوشين، نبص ناحيتها، ولم تكشف أعيننا ما حدث، فصداها في مكانٍ بعيد، وردد الحاج (حسين): «يا لطيف يا رب».

هدأ صوت النار، فبزغت أصوات صرخات وولولة نساء في جهةٍ أخرى قريبة من بيتنا، فرددنا: «أنزل السكينة والهدوء على عبادك يا رحمن». ثم ولجنا إلى الدكان، وأحسسنا كأن قلبنا انكسر فتاتًا، فتألمنا وجلسنا، فقال الحاج (حسين): «ما لك يا صابر». نظرنا إليه بأعين واهنة: «والله لا أعرف يا شيخ حسين، أتأذن لي بالعودة إلى بيتي اليوم باكرًا؟ أشعر بالدوار وقلبي يؤلمني» فأسندنا وهو يقول: «سأوصلك». منعناه: «لا، بالله عليك لا تتعب نفسك». واستقمنا على أقدامنا، فاقتحم الدكان (أحمد) ابن الحاج (حسين) وصرخ بصوتٍ مهزوز: «الحق يا أبي، خالي، وأمي». ثم مال بجسده وظل يتنفس كعداء طاف الأرض كلها، فأمسكه (حسين) يحثه على الحديث: «انطق يا أحمد، ما الذي حدث لأمك؟» فأشار بيده النحيلة المرتعشة صوب مكان إطلاق النار.

ركض الحاج (حسين) مهرولًا رغم كبر سنه، وأمسكنا نحن قلبنا كأنه يعتصر، الألم يقتلنا، وهرعنا ننهج

وتتخبط قدمانا، فسقطنا ثلاث مراتٍ ويزيد حتى إن أيادينا كحتت في الأرض فتخضبت بالدماء، والناس ترمقنا بتساؤل، فتضرب أخماسا على أسداس ويتلفظون: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ولم نفهم نظراتهم، نريد اللحاق بالحاج (حسين) ومساعدته، ومعرفة ما آل للست (خديجة)، وما حدث لصديقنا (ميخائيل)، وسقطنا مرةً أخرى، الألم يقتلنا، نموت ولا معين، وساعدنا على الوقوف شخص يرتدي جلبابًا، تقي في هيئته، بص في أعيننا، ورمقناه فعلمناه، فردٌ من جماعة الشيخ (قاسم)، ربت على كتفنا وقال: «البقاء لله، والله لن نسكت، ستشتعل الزاوية الحمراء كلها من أجلك يا شيخ صابر». لم نفهم، تقفقف جسدنا واهتزت أصابعنا ترجوه على الكلام، فأردف: «أنت رجلٌ مؤمن، تماسك». ثم تنهد وأردف: «أمرنا الشيخ قاسم بقتله، قطعناه تقطيعًا، وأشعلنا النار في زوجه». أمسكنا قلبنا، لم نعد قادرين على التصبر، كأن سكينًا تقطعنا، فقلنا: «ماذا حدث لميخائيل والست خديجة؟» وتركناه وهرولنا صوب إطلاق النار، جذب جسدنا وأحاق بنا، كدنا نسقط ونبراته الحادة تحلق برذاذ لعابه: «أستركض خلف النصارى وتترك زوجتك». ارتعشت أقدامنا وتهاوت عند تذكر (فاطمة)، انكب جسدنا، فقعدنا، أوقفنا وأقامنا، وسحبنا يسندنا إلى جسده نمشي لمنزلنا، ويا ليتنا متنا قبل أن نرى مأساةً ستخلد في حياتنا، تكتظ الناس أمام بيتنا، نملٌ يسير على الأرض، وبعضٌ يركض صوب إطلاق النار عند بيت (ميخائيل) في الجهة الثانية، الناس ترانا فتنشق لنمر، ويرددون: «لا حول ولا قوة إلا بالله، البقاء لله يا شيخ صابر». وأقدامنا تضطرب، ولا يكف الرجل عن سحبنا.

توسطنا لجة الزحام، فكشفت أعيننا ثلاثة أجسادٍ مكومة على الأرض مغطاة بملاءات، وسحبت أنا من جسد (صابر) صوب واحدة، فتأرجح، وانطلق إليها، ربضنا أرضًا، ثم سحبنا الملاءة من عند الرأس، فظهرت عينا (فاطمة) من أسفل النقاب تبتسم مغمضة وفي وجهها رضة، لم يخبُ بريق الحورية رغم موتها، وكأن صاعقةً نزلت من السماء فقتلتنا، مشاعرنا تداخلت وتضاربت فغطاها ظلامٌ وحزنٌ عميق، وتربعنا البقيعة بجانبها بقنوط، الدمع لا يتوقف عن النزول، ثم وضعنا يدنا على بطنها نتفقد الطفل الصغير فقد كانت حاملًا، ولكنه لم يكتمل النمو بعد، ففقدنا اثنين في لحظةٍ واحدة، زوجة وابنًا، وقد طعنا في سويداء قلبنا، نظرنا إلى السماء وتلفظنا بتنشج: «يا رب، القلب لا يتحمل كل هذا، اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه، إنا لله وإنا إليه راجعون». وانهمر البكاء دمًا، رحلت جنتنا على الأرض، (فاطمة) الحورية التي لم تؤذِ أحدًا في حياتها، ولم تمس شيئًا بضر، تنشر البهجة وتلون الحياة بابتسامتها النقية، واقترب منا الشيخ (قاسم)، ونحن غارقان في الدمع نسبح، وقال بصوتٍ صليد: «الناس يقولون إن الست فريال زوجة سمعان المسيحيين اللذين يسكنان فوقك، غسيلها نقط على غسيل زوجتك، فخرجت في النافذة تشكو لها، فالست فريال نهرتها وسبتها أمام الناس، حاولت زوجتك أن ترد الإهانة باللين رغم الجرح الذي سببته لها، وأن تبعد الخلق عن المشاهدة، فصعدت إلى شقتهما تكلمهما، دخلت، فتطور الأمر ودفع سمعان زوجتك دون قصدٍ فسقطت من النافذة وصعدت روحها إلى خالقها، فاقتصصنا لها في الحال، وقتلناهما وجثتاهما بجانبك، فعلنا هذا إرضاءً لك ولأنك رجلٌ طيب وصالح». فلم نقوَ على الكلام، ولكنه كان يخرج دون قصد: «لله الأمر من قبل ومن بعد، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، إنا لله وإنا إليه راجعون، الصبر يا صاحب الصبر». ومطرت أعيننا كالسحاب، حوريتنا ماتت، ولا نعرف كيف أحكم الله على قلبنا الهدوء، والله إن بركانًا يتفجر في نفسنا، ولو خرج لأحرق والتهم العالم كله، مال جسدنا وقبلنا رأسها، وتصرخ نفسنا ولا يحس بها بشر، الله يعرف ما فينا، ورددنا اسمها ندعو لها، ونذكرها عند الله بالرحمة والمغفرة، ونطلب أن يكون الطفل شفيعًا لها، ولم تفارق ذهننا ابتسامتها في أثناء موتها، ونحتسبها عند الله من الصالحين، يئن جسدنا وأصرخ أنا روحه ولا معين سوى الله الواحد القهار.

نهضنا على أقدامٍ رخوة، وألهمنا الله القوة، فرفعنا جسدها بين ذراعينا بكلفة، الناس أعينهم تطق شررًا، هناك شيطان يحوم في المكان، شعورٌ يخنقنا بأن جحيمًا سيندلع في أي لحظة، المئات تركض صوب بيت (ميخائيل)، لا نتبين ما ينشب، ونخاف على جثة المسكينة، علينا أن ندفنها، ثم تناقل الحديث حولنا بين الناس، يذكروننا وزوجتنا، ومن ثم (ميخائيل) وما جرى له، فالنار اضطرمت عند منزله؛ إذ إن مجموعة من

المسلمين هجموا على بيته يريدون تأديبه على ما ارتكبه، فأخرج سلاحًا ناريًا وضرب رصاصات عشوائية عليهم، فأصاب واحدًا، فاقتحموا المنزل وهجموا عليه كالأسود، ونهشوه وقتلوه وأحرقوا داره، صعدت روحه كزوجتنا، ولم يصِب الست (خديجة) شيء، هي فقط حزينةٌ على موت أخيها، وهناك تجمعات في كل مكانٍ بالزاوية، تدابير وتخطيط وإبليس قد تربع بيننا، فتنةٌ طائفية على وشك الاندلاع، وسمعنا صوت إطلاق نار في جهاتٍ متفرقة، وأوار نيران تنهش بعض المنازل، فركضنا حاملين جثة (فاطمة) ننقب عن مخبأ بقلبٍ واجف، دخلنا البيت، وصعدنا على الدرج حتى وصلنا إلى شقتنا، ولجنا وأغلقنا الباب خلفنا بالمتاريس، ثم وضعنا (فاطمة) على الأريكة في الصالة، وبصصنا من النافذة، الناس تجري بارتعاب، كأن القيامة ستحط على البشر، خفنا ألا نقدر على دفن زوجنا، نكرمها وهي ميتة كما كانت حية، وجلسنا بجانبها نفكر، تصلب عقلنا، وانغلقت صماماته، وظللنا ساعةً نسمع طلقات وعويلًا، وتصاعدت مكبرات الصوت من المساجد والكنائس، وكلٌ يدعو لإنقاذ طائفته، ففي المساجد يدعون لأن يتحد المسلمون، وفي الكنائس يحضون على تكاتف المسيحيين، وأحسسنا بأن النهاية وشيكة، شغلنا الراديو، قلبنا على كل المحطات، فعرفنا ما يدور في الخارج، دعوات للقتال من المسيحيين والمسلمين، وساحة حربٍ على وشك الاندلاع في الزاوية الحمراء.

أغلقنا الراديو، وجلسنا على الأرض، دهمنا الحزن في غب أعماقنا، فسبحنا وذكرنا الله نستمد منه السلوان، ننظر إلى (فاطمة) بأعين منكسرة، نأمل أن يعطينا الله حلًا، فالأمر لا يسر، فأملنا تدخل الشرطة فتنهي تلك النكبة، وظللنا ساعتين وأكثر قاعدين أرضًا نسبح باسم الله وندعوه أن يرحم ضعفنا ويرحم (فاطمة)، النيران تتضاعف في المنازل، والهتافات لا تبكم، والحياة تموت خارج منزلنا، الجثث تتساقط، والسعير يتعملق، وظلام محدق في الأركان، والخوف يخربش قلبنا على المسكينة التي لا نقدر على إكرام جثتها.

انقضت الساعتان، فعلمنا بأن الشرطة لن تقدر على حل الأزمة، وأتممناهما بساعةٍ أخرى، على أمل أن تعرف الست (عنايات) أم (فاطمة) ما جرى لابنتها فتقبل وتساعدنا، ولكنها لم تجئ، وقلبنا ينسحق، فتطلعنا الشارع من النافذة، جهنم على الأرض. فكرنا أن ننزل ونتجه إلى بيت الست (عنايات) لنطمئن عليها، ولكننا خفنا إصابتنا وترك جثة (فاطمة) تتعفن وحدها، فناقوس الخطر يدق بمقبضٍ ضخم، ورجحنا أن الست (عنايات) لا تقدر على الخروج من بيتها، ولا تعرف بموت بنتها، أو أنها قد أصابها مكروه.

بعد تفكيرٍ مضنٍ، انتصبنا على أقدام تصطك، حاولنا إخماد فزعنا، خلعنا الجلباب ووقفنا بالكلسون نهتز، ثم وضعنا المسبحة على طاولة، ودلفنا إلى بيت الخلاء، توضأنا ونظفنا جسدنا من التراب والرجس، ثم حملنا جثة (فاطمة) ودخلنا إلى غرفة النوم وما زالت أصابعنا تتراقص، أرحناها على السرير، ثم خرجنا وسحبنا الأريكة في منتصف الصالة، أزلنا الفراش من الأرضية، ثم من على الأريكة، ودلفنا المرحاض، أحضرنا ماءً في طست ووضعناه على النار حتى غلى، ثم خففنا من سخونته بماءٍ بارد، فأستحال دافئًا، ودخلنا على (فاطمة)، أزلنا ملابسها برفق والدمع ينسكب من أعيننا بغزارة، ثم غطيناها بملاءةٍ نظيفة، وحملناها، ووضعناها على الأريكة، نمشي باهتزاز والسقوط حليفنا لكننا نلتمس القوة من الله، وأصوات الصراخ تتصاعد في الشارع، وهتافات بالموت، ولكننا لم ننتبه إلا لقطعة الجنة في أيادينا.

وبدأنا في تغسيلها برفق، وأعيننا تتطلع إلى وجهها المبتسم، والدمع يهوي كالمطر، وحاولنا تحجيمه حتى لا يمس جسدها، خمس عشرة دقيقة أو يزيد وانتهينا، ثم دخلنا غرفة النوم، وفتحنا الدولاب وأخرجنا كفنًا كنا قد اشتريناه تحسبًا لأي ابتلاء، وزجاجة المسك خاصتنا، وكيسًا من القطن، ثم أغرقناها مسكًا، ووضعنا القطن في مكانه، ولففناها بالكفن، ومسحنا ماء الغسل، ووقفنا أمامها نرتجف، لا نعلم سلوكًا ينجدنا، ارتدينا الجلباب مرةً أخرى، وحملنا الجثة، ووضعناها في اتجاه القبلة، ثم وقفنا، وصلينا صلاة الميت وأسناننا تتكسر من تخبطها خوفًا وهزيمة، ثم تحركنا نحو النافذة، نتفقد ما آلت إليه الأمور، أصوات القتال تحاوطنا، كأن بركانًا قد ابتلع المنطقة، الناس تركض كعدائين، والذعر يلتهم محياهم، عجائز وشباب وسيدات وأطفال، كأنه يوم الحشر، والنيران تلتهم بيوتًا كثرًا، وهتافات وسباب ولعنات، فلم تقدر أعيننا كشف ما وقع للناس، فأغلقنا النافذة، تحركنا نحو المسبحة، فتعثرت قدمانا في الهواء وسقطنا، تحاملنا وتوقفنا، تناولناها، ثم قعدنا أرضًا

نسبح، ونبكي، ننظر إلى الجثة بهلع، نأمل دفنها، ولكننا لا نجد طريقة. ساعةٌ أخرى انقضت، ولم يحدث شيء، أصوات الصراخ تزداد، والشرطة لا أثر لها، كأننا في بؤرةٍ منعزلة عن العالم، ينهش فيها المسلمون والمسيحيون بعضهم بعضًا، فأيقنا بأن الاندثار قادم.

ولم نعثر على حل، وإن ظللنا قاعدين ستتعفن الجثة ولن ندفن (فاطمة) الطاهرة، فحملناها بجسدٍ يترجرج وأدمع تنزف بغزارة، ليس فقط على موتها، بل على ما لاقته بعد قتلها، ومددناها على الأريكة، وقررنا الخروج والتفتيش عمن يسعفنا في أتون الحرب، وطلعنا من البيت، وشفنا أهوالًا، كأن الله سينزل عذابه، الناس لا تقف ولا تسمع، اختلط الحابل بالنابل، نسير بهلع وتتعثر أقدامنا كأننا نخط على أراجيح، نستقصي عن الحاج (حسين) والست (عنايات)، ندور وتحاوطنا النيران، والناس يتبارون لأجل الحياة، يتلونون كشياطين، يتساقط القتلى في كل مكان، فلم نعرف في أي بقعةٍ يكون الأمان، والناس يرمقوننا بارتياع، وبعضهم يشير إلينا بأن نتوارى، فلم نفهم، ورفعنا عقيرتنا: «يا شيخ حسن، يا ست عنايات». وأحبالنا تتهدج من الخوف، وجسدنا لم يكف عن الارتجاج، والخوف تربع على صدرنا وقبض عليه، فالموت إن زارنا الآن ماذا سيكون نصيب (فاطمة)، وكنا نسير في لظى بأقدامٍ مرنة، وأيقنا بأننا على شفير الموت.

هل هي الساعة؟ نهاية الأرض والبشر والكون والأحياء؟ تصورنا بأن السماء ستنطبق على الأرض فنفعص ونموت، وتنتهي القصة بكل الظلم والجحود، ويهدأ قلبنا الذي انفطر وضرب بسكين ثلم، ففي ما يزيد على أربعة عقود لم نستشعر ألمًا كهذا، الجحيم تبتلعنا، فالموت أيسر وأفضل، ورغم النور حولنا، كتلةٌ من الظلام تتربع على جسدنا، ونسير والدمع ينزف من أعيننا، نصيح بأسمائهم لعلهم يسمعوننا، ويموج جسدنا فلا نقدر على انتصابه، نسقط، نقف، ننكب على وجهنا، فينجرح وينزف، ثم نتشبث بأظافرنا، ونقف، ونقع، ونتدحرج، وحولنا الناس تجري، الفزع يلتهم محياهم، والأموات يتساقطون في كل ركن، وصراخ الرجال والنساء لا يهدأ، والأطفال ينتحبون، والنيران تمسك في كل مكان، والناس يسيرون بالأسلحة النارية والبيضاء عيانًا، وانقلبت الزاوية الحمراء جهنم، ولم يتبقَّ لنا أحد، ونأمل أن يكون الشيخ (حسين) على قيد الحياة. وأبصرنا دكاكين الناس حولنا، مسلمٌ يعلق يافطة مكتوبًا عليها «صاحب هذا المحل مسلم، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، وعلامات على بعض البيوت تثبت بأن أصحابها نصارى، والإخوان أشعلوا النار، ونتعجب البذرة التي صنعت الكارثة، وما آل لـ(ميخائيل)، و(فاطمة)، ويا لحسرة قلبنا على (فاطمة)، ويا ليت القلب يخرج من الجسد فنموت وننتهي، ويا ليتني أحلق وأبتعد عن جسد (صابر) فأهرب من كل هذا الأسى، فلا نتحمل ولا نقدر على المواجهة، فالظلم سيد هنا، والعقل في حيرة، والنفس تضعف، وسقطنا للمرة كم؟ لم نعد نتذكر، ونتحامل على أيدينا المخضبة بالدماء، أعيننا ترى الكل غائمًا.

لما عجزنا عن إيجاد حل، فكرنا في العودة والمكوث بجانبها حتى نموت معها، أو نخرج من الزاوية بحثًا عن النجدة، ولكننا خفنا ألا نقدر على الرجوع، فلففنا جسدنا عائدين إلى مقطننا، الأرض تمور، ولا نشوف أمامنا من الدخان والدمع، ولكننا شعرنا بهجمةٍ على جسدنا فتجندلنا أرضًا من عزم الدفعة، وحاولنا بيأس للنهوض، لم نستطع، خارت قوانا، لففنا جسمنا، فحدقنا إلى شخصٍ مسيحي يقبض على سكين ووشم الصليب يلمع، برك علينا وهو يهذي: «أنت سبب كل هذا». أأشعلنا الفتنة؟ والله لم نرضَها لخلق الله، أولم يرَ بأننا قد نلنا أكثر العذاب نصيبًا، وحاول ضربنا بالسكين، فأمسكنا يده نعافر للنجاة، كل ما شغل تفكيرنا جثة (فاطمة)، والدمع ينهمر يخضب وجهنا، فصرخنا بصوتٍ عالٍ هدم الدنيا حولنا، نستغيث بالخلق، وقاتلنا من أجل البقاء، ولكن الضعف غلبنا، والموت قريب، وقوته تتضاعف وقساوته تنز من عينيه، ويصرخ بغلظة في وجهنا، يدفع السكين أملًا اختراق صدرنا، ولكننا نصده بآخر ما تبقى من عزم، ولما خارت قوانا، والنفس انقطع فلم نقدر على التقاطه، وعلمنا بأنها لحظة الموت، تفوهنا بصوتٍ ذابل سقيم: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». وقررنا إفلات السكين فتنغرز في قلبنا، ولكن شخصًا غائمًا سحب الرجل من على صدرنا، وغرز سكينًا في جانبه، ثم أخرجها ودفسها مرتين أخريين، ثم دفعه فسقط بجانبنا جثةً هامدة، لنفزع بارتجاف.

حملنا الشخص يدعمنا للانتصاب، ودقق في أعيننا بهلع، فمسحنا الدمع لنراه، فظهر أمامنا أخونا (حكوم)

يزعق بصوتٍ عالٍ لنسمعه: «أأنت بخير؟» فصعقنا وانعقد لساننا، وشفنا من خلفه (خباس) وحوله (الوحش) و(البغل) و(العربجي) وأكثر من خمسين رجلًا يمسكون الأسلحة البيضاء والمسدسات، جيشًا يجره (حكّوم)، يشق الحرب لينتشلنا، وينقذنا من فم الليث، وكدنا نسقط فأشار إلى رجاله ليحملونا، فتلفظنا بوهن: «زوجتي فاطمة». وغابت نفسنا عن الدنيا.

***

مشى (حكّوم) في الزرائب قابضًا هراوته، بعد أن أضحت جزءًا من نفسه، وألف أنا إصبعه مراقبًا تحيات الناس في خنوع وتبجيل، حتى وصل إلى خمارة (خباس) قعد إلى الطاولة أمام عتبتها، فجلب (حميد) شيشة قص، وكوبًا من الشاي، يرصد المارة في سكون، حتى قدم (خباس) وجلس بجانبه قائلًا: «سمعت ما حصل؟» فالتقط خرطوم الشيشة ونطق: «الذي يحصل كثير». فرد عليه: «الدنيا مقلوبة في الزاوية الحمراء». فترك (حكّوم) الشيشة وتنبه له، فهتف (خباس): «يا حميد، افتح التلفاز» فتجلى بعض المذيعين يتحدثون عن فتنةٍ طائفية اشتعلت في منطقة الزاوية الحمراء، وسقوط قتلى وضحايا، والشرطة لم تتمكن من الدخول إلى المنطقة، ولكنها تؤكد أن الأمور سيتم حلها دون المساس بحياة المواطنين، وأن رئيس الجمهورية يباشر الأمر بنفسه، قام (خباس) ولف مفتاح التلفاز ليغير القناة، فظهر مذيع يتكلم عما يتردد في المساجد والكنائس، ثم فتح الراديو، وقلب في القنوات كلها، الجميع يتحدث عن الفتنة، وأن الشرطة لا تعرف عدد القتلى حتى الآن، ولكنهم يحاصرون المكان وقد أغلقوه بالكامل.

وثب (حكّوم) منتصبًا وقال: «جهز نفسك، سنذهب لنحضر أخاك». فصاح (خباس): «الذي طردنا وأهاننا أمام الناس من عرسه». اخشوشنت نبرات (حكّوم): «خباس، نحن الذين خربنا له الفرح». شده (خباس) من كتفه: «لا أفهمك، تترك واحدًا يموت كالكلاب، وتعرضنا للخطر لإنقاذ واحد من الممكن أن يكون مات». ضربه في صدره: «أتظنني كعمك خطاب؟ كنت أؤدب يونس فقط، ونويت أن أعيده إلى البيت بعد أن تأذن أمك، والموت سبقني إليه». فتثعلب (خباس): «وهل أخذت رأي أمك في جلب صابر؟» أمسكه من تلابيبه: «لن تعارض، اجمع أشد الرجال لدي، وعلى رأسهم الوحش والبغل والعربجي، وأنا سأذهب إلى أمك وأطلب منها».

أفلته ورحل، استفهمت الناس بقلق، فذاع (خباس) الخبر في الزرائب، خرجت الأسلحة من الجحور، وتجمهر البلطجية أمام بيت (حكّوم) ينتظرون إشارته، يترأسهم (خباس) و(الوحش) و(البغل) و(العربجي).

ودخل (حكّوم) على أمه التي ترقد في فراشها، والمرض يسعى للنيل منها، تنحنح ففتحت عينيها، أسندها فقعدت، جلس بجانبها، قبل يدها، وأخبرها عن نيته إنقاذ (صابر)، فأيدته وباركت ذهابه، فسحب مسدسًا من دولابه، أغمده في كلسونه، وارتدى جلبابه وساعدته (جواهر) مستفهمة: «إلى أين؟» فرد: «مصلحة خارج المنطقة». تساءلت: «لم تتجمع الناس أمام بيتنا». دفعها فسقطت على السرير وهو يقول: «لا دخل لك».

خرج، تصلب أمام الباب، فتحرك (خباس) و(الوحش) و(البغل) و(العربجي) ليصطفوا بجانبه، وشرع في تقسيم الناس؛ إذ إن أكثر من مائتي رجل من كل الأعمار يقفون أمامه كالمجرمين في ملامحهم المشوهة، ينتظرون إشارة لتخريب الدنيا، فاختار منهم ما يقارب السبعين، وتحركوا في سيارات وعربات كارو، حتى اقترب من الزاوية الحمراء، ركن السيارات والعربات وأوقف عشرة رجال حمايةً لها، ومشى حتى وصل إلى حرف المنطقة، والشرطة تطوقها من كل جهة، رفعوا الأسلحة عليهم ومنعوهم من المرور، فخرج (حكّوم) من وسط رجاله يرفع يده وطلب مقابلة المسؤول، فبرز (إسماعيل بيه الخياط) وقد ترقى ليضحى لواءً، فسأل: «إلى أين يا حكّوم؟» فرد الأخير: «أخي بالداخل يا باشا».

اقترب منه وهمس: «الدنيا والعة يا حكّوم، والرئيس بنفسه يتابع الأحداث، ولولا أنه منع إطلاق النار لفضضنا تلك المهزلة، ولكننا ننتظر أوامر جديدة، ولا أعرف ما الذي سيحدث بعد ساعات قليلة». فرد: «أعدك بأنني لن أتسبب في الخراب، سأخرج أخي وأرحل». تنهد (إسماعيل) كأنه يقلب الأمر في رأسه، فأردف (حكّوم): «لا تخف يا باشا، لن يصيبني مكروه، اطمئن، سأعود». وقف بضع دقائق، يبدو أنه يخاف مصالحهم

المشتركة، ثم أشار للجنود والضباط بأن يفتحو طريقًا للعبور، فولج (حكّوم) ومن خلفه رجاله، فابتلعتهم الدائرة التي أغلقت عليهم بعد مرورهم.

الخراب في كل ركن، كأنها الحرب والعدو من أهلها، وأمر (حكّوم) رجاله بعدم الانشقاق، وصنع دائرة حتى لا يجرؤ أحدٌ على خرقها، ومشوا دون مس الناس بأذى رافعين أسلحتهم البيضاء بحذر، وهاب الناس الاشتباك معهم، وصل إلى القرب من بيت (صابر)، فهو يعرفه، تلفت (حكّوم) يمنةً ويسرة، حتى وقعت عيناه على اثنين يشتبكان، فلمح الساقط أرضًا، فوجده (صابر)، ركض صوبه والكل تبعه، وحمل الرجل من فوقه، وغرز مطواةً في جنبه عدة مرات، ثم ألقاه أرضًا، وأوقف (صابر) على أقدامه يسأله عما إذا كان قد أصيب، لكن الآخر ذكر زوجته وفقد وعيه، رفعه رجال (حكّوم) الذي ركض ومن خلفه (خباس) و(الوحش) و(البغل) و(العربجي) حتى وصلوا إلى بيت (صابر)، صعدوا الدرج آملين إنقاذ زوجه، ولبث الرجال في الشارع يحاوطون البيت تحسبًا لأي ضرر، طرقوا الباب بعزمهم كله، فلم يستجب الساكن، دكوه، فأبصروا جثةً مكفنة على أريكةٍ تتوسط الصالة، رفعها (حكّوم) و(خباس)، وخرجا من البيت، وسارا بحذر حتى وصلا إلى مكان دخولهم، أشار (حكّوم) لـ(إسماعيل) الذي تساءل عن الجثة فأخبره بأنها زوجة أخيه، ففتح لهم فرجة للخروج، بلغوا السيارات وعربات الكارو، استقلوها، انتهوا في منطقة الزرائب، وضعوا الجثة في تابوت بزاوية الصلاة، وصعدوا إلى البيت، وجاهدوا لإفاقة (صابر).

***

تحسسنا خبطات جمة على وجهنا، تبعها دلو من الماء أغرقنا، فانتزعنا من غياهب وعينا، كأن الموت ينتشلنا، وما إن أدركنا مكاننا، إننا في ربوع أمنا، قعدنا أرضًا ننتحب، نكشف الوجوه بهلعٍ وتبسم، ونظرات الحزن لم تتبخر من قسماتنا.

تحاملنا على أقدامنا، وأخرجنا المسبحة من جيبنا، يسندنا أخونا (حكّوم) ومعه (خباس)، فتفقدنا الأول وسألنا: «فاطمة؟» خرج صوته لينًا: «الله يرحمها ويحسن إليها، وضعناها في الزاوية تحت، سنصلي عليها وندفنها». وكان اليوم خميسًا، والصلاة عشاء، فنزلنا وولجنا إلى الزاوية، توضأنا، ثم تقدمنا نحن لنترأس الناس للصلاة على زوجتنا، ولو ابتغى (خباس) لتلقفنا الجثة وصلينا عليها في الشارع ودفناها وحدنا.

وارتصف خلفنا سكان منطقة الزرائب كلها من الرجال، شبعت الزاوية من الناس، فاصطفت البقية في الشارع واختفت أسفلهم الأرض، قبضنا على مكبر الصوت، وقلنا بهدوء: «صلاة الجنازة أربع تكبيرات لا سجود فيهم، التكبيرة الأولى نقرأ سورة الفاتحة، والتكبيرة الثانية نقرأ النصف الثاني من التشهد الصلاة الإبراهيمية، والتكبيرة الثالثة ندعو للمتوفاة وهي سيدة، والتكبيرة الرابعة نسلم تسليمة واحدة عن يميننا».

وأبصرنا في أعين الناس تساؤلات جمة، وبعضهم أخذ يهمهم مع من يقف بجانبه، وأدركنا بأنهم لم يفهموا، فكررنا حديثنا مرات عدة، ونظرات (خباس) تأكلنا، فتجاوزناه ودعونا له بالهداية، وظللنا نعيد كلامنا حتى مل الناس وحفظوه، ومن ثم لففنا جسدنا نحو المحراب وقلنا: «الله أكبر». وشرعنا في الصلاة، انتهينا وسلمنا تسليمة واحدة يميننا، ثم اقتربنا من النعش، ليتدافع الناس ويحملوه معنا، وسرنا نردد والسبابة إلى فوق: «لا إله إلا الله، أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

وصلنا إلى المدافن، وطلبنا ألا يحملها أحدٌ غيرنا، وفتحنا التابوت واحتضناها ونزلنا القبر مع اللحاد، ورائحتها الممسكة غمرتنا كأنها قطعة من الجنة، تركناها في مثواها، ثم خرج اللحاد، فتبعناه بجسدٍ محدودب، وارتكنا بجانب القبر، رحل بعض الناس، ولكننا ظللنا، حتى مل (حكّوم) والباقون فانصرفوا، وجلسنا نقرأ قرآنًا ونسبح وندعو لها، نؤنسها في وحدتها، وبعد ساعات طوال، انتقلنا إلى أبينا، ألقينا عليه السلام وقرأنا له قرآنًا ودعونا له، ثم انتقلنا إلى أخينا (يونس) وقمنا بالمثل، ثم غدنا إلى زوجتنا نقرأ ونسبح وندعو حتى اقتربت صلاة الفجر، فسلمنا عليهم وانصرفنا والدمع يتسرب من أعيننا.

وصلنا إلى زاوية الصلاة، وقعت أعيننا على (خباس) يفتحها، دخلنا خلفه، وتبعنا بعضٌ من الناس و(حكّوم)، صلينا خلف (خباس) وقد كان ينطق الآيات بنطقٍ خاطئ فنصححها له ونحن في الصف، حتى سكت، وأكمل صلاته دون صوت، وسلم، ولف يرمقنا بشرٌ وغيظ، فاقتربنا من (حكّوم)، صافحناه فمد يده ببشاشةٍ قائلًا: «مرحب بعودتك بيننا». ابتسمنا في وجهه، ثم تلفظنا: «نريد أن نخطب في الناس خطبة جمعة اليوم». فتخشب جسد (خباس) وكاد يتفل عينيه، في حين أن (حكّوم) سكت بضع ثوانٍ ثم قال: «أأطلب من جواهر أن تحضر لك شيئًا تأكله؟ أنت لم تقرب الطعام منذ جئت». فقلنا بكياسة: «اشتاقت بطني إلى الجميز». فتحامل على يديه وهو يقول: «كما تحب».

استقام، ثم نظر إلى (خباس) قائلًا: «خطبة اليوم من نصيب صابر يا خباس». وخرج راحلًا، فامتقع وجهه، وتبارزت أعيننا معًا، فأبصرنا شيطانًا جاثمًا.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

لم ننم في تلك الليلة، جلسنا فوق شجرة الجميز نتفقد السماء في غسق الليل، ونشم أريج الأزهار، نسمع نقيق الضفادع، ونعيق البوم، ندعو ونطلب من الله أن يمدنا بالعون، ورددنا: «رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي». وكنا نشعر بالرهبة تغطينا، فما هو آتٍ، تحدٍّ عظيم على أكتافنا، عشنا حياتنا كلها في الزرائب فلم نجد فرصةً واحدةً لنغير ما في قلوب الناس من جحود، تلك فرصتنا، تأتي متبخترة وتتربع حجرنا، كأنها رسالة نكلف بها من الله لهدم أصنام الجهل التي تضخم نباتها وفرد غصونه. وتسرب الخوف إلى قلبنا، يقبض علينا ويعنفنا، يعتصرنا ويمزقنا، نخاف ألا نكون على قدرٍ من الرسالة، وأن يتغلب علينا الوجل، فيلين لساننا ويلجم.

وبزغت السماء بنورها، وأشرقت الشمس، وظللنا نردد اسم الله، سرًا وعلانية، نسبح بحمده ونستغفره، حتى دقت الساعة العاشرة، فترجلنا من على الشجرة، وتجاوزنا معدية الترعة، ثم الممر الكبير، وولجنا شارع آل أبو حماقة نسبح ونذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى بلغنا بيت أمنا، تفقدنا باب زاوية الصلاة، ثم ولجنا البيت وصعدنا الدرج، وصلنا إلى شقة أمنا، طرقنا الباب برفق، ففتحت (جواهر)، فقلنا بكياسة: «أخبري حكّوم بأنني أريد مفتاح الزاوية». طلبت منا الدخول ولكننا رفضنا، اختفت عن أنظارنا، دقائق وخرجت بالمفتاح، نزلنا، فتحنا الزاوية، تبسمنا في رحاب الله، وشعرنا بأن قوةً تمددت في دواخلنا، خلعنا الجلباب، وشددنا الحصائر من الأرض، وجلبنا طستًا وملأناه بالماء، وأتينا بالخيشة ومسحنا البلاط كله حتى أضحى براقًا، ثم فرشنا الحصائر، وكنسناها لتتلألأ، ثم أشعلنا أعواد بخور وحشونا بها الزاوية، ودخلنا الكنيف فتحممنا، وارتدينا الجلباب، هذبنا لحيتنا وشعرنا، ثم لففنا شالًا على رأسنا، ووضعنا مسكًا، ثم خرجنا، وصلينا ركعتين تحيةً للمسجد، ومن بعده قمنا بتشغيل الراديو على محطة القرآن الكريم، وقربناه من مكبر الصوت، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة.

قعدنا ساندين إلى المحراب، وأخرجنا المسبحة، نذكر الله وندعو، ولم نحضر كلامًا لنقوله، بل فكرنا أن نتحدث من قلبنا، وبأعيننا الشاهدة، ودعونا الله أن يخرج الكلام رزينًا لينًا، رفع الأذان في الراديو، فأغلقناه، وأمسكنا مكبر الصوت، وبصوتٍ عذب نقي رفعنا الآذان، حتى إن الناس تعجبت وكانوا يتفقدوننا برؤوسهم من الباب، ثم صلينا ركعتين، وجلسنا منتظرين، دقائق وولج (خباس)، ربض أمامنا يرمقنا بتأفف، ومن بعده (حكّوم)، ثم (الوحش) و(البغل) و(العربجي)، ومن بعدهم غشي رجال المنطقة تباعًا، دقائق أخرى وشحنت الزاوية، وكانت الهمهمات تتشعشع بينهم، لمَ نحن جالسان مكان (خباس)، وتساؤلًا عن الخطبة.

كحتت المخافة قلبنا، رهبةً مما قد نقول، ومن الرسالة التي اختصنا بها الله، وأن يتخلل خطبتنا الخطل، فانتصبنا على أقدامنا، جسدنا يرتعش، مهزوزان، والناس تتفقدنا بأعين مرتقبة، أغمضنا أعيننا، تنفسنا بهدوء، ثم فتحنا، فوجدنا أن الرؤية أمامنا كلها بيضاء، كأنها غارقةٌ في النور، والناس كالنطف، لا ملامح لهم، نقط فقط مرصوصة، لا زاوية، لا ناس، لا شيء، فراغ أبيض، كأنني أنا التي أراهم، الروح، وجسد (صابر) غير موجود، عيناه عمياوان، فنطقنا: «إن الحمد لله، نشكره ونستعين به، والصلاة والسلام على نبي الله، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أما بعد، فلننظر إلى الحياة حولنا ونتأملها، ولنرَ إن كانت ذات قيمة، ولنتعمق في قوله جل علاه (وما الحياة الدنيا إلّا لعبٌ ولهوٌ وللدار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون أفلا تعقلون)، وأنا أذكركم وأذكر نفسي، بأن الله الخالق الواحد الأحد، خلقنا لنعبده، (وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون). اليوم، يسلمني الله رايةً لأخطب فيكم، وقد اخترت أن تكون خطبتي أمثلة من السلف الصالح وقصصًا من ديننا، محاولًا من خلالها لمس شيء في نفوسكم، ولنبدأ بواحدةٍ من أهم ما ذكر عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولنبدأ بقوله (يا أيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ منْ عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)، في واقعةٍ يغفلها بعض الناس عمدًا، أن ابن سيدنا عمر ابن الخطاب شرب الخمر، فلما عرف أبوه وكان أمير المؤمنين جلده مائة جلدة أمام الناس ليقيم الحد، لم يقل له استغفر ليتوب الله عليك، والله غفورٌ رحيم، لكنه

أقام عليه الحد، ولكل فعلٍ في ديننا حد، أولئك هم السلف الصالح، وأولئك هم الذين نقتدي بهم».

وكأن الأرض أسفلنا تتبدل، خفت النور الأبيض، ووجدنا أنفسنا نقعد في صفحةٍ بيضاء، لا شيء ظاهرًا أمامنا إلا (خباس)، الذي ارتكزت أعيننا في مقلتيه، نبلغه من حديثنا رسالةً لاتقاء الله وغلق خمارته، وكأن الله يختصه بكل ما نقول، فرمقنا بشرٍ ومقت، ولم نشف شيئًا آخر غيره، فحركنا أعيننا في الأبيض، فانبلج (حكّوم) ورجاله الذين بان عليهم عدم تقبل ما نتلفظ به، فاستطردنا الخطبة: «فمن ينظر إلى حال الدنيا ويتعلق بها فهو من الخاسرين، إنها حقيرة، دنيئة، فانية، وزائلة، والإنسان قليل، نهايته ترابٌ ودود، (فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين)، ولا تظهروا بثوب الصلاح وفي قلوبكم نفاق، فالله شاهدٌ وعالمٌ بما تجهرون وما تخفون، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرّحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه). وأرى فيكم من يأمر بالمعروف وهو ليس معروفًا، ومن ينهَ عن المنكر وهو ليس منكرًا، ولنتأمل في قوله تعالى (وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تّجارتهم وما كانوا مهتدين).»

سكتنا ثوانٍ أخرى، إذ إن الوجوه تظهر في البياض الذي يغلف الدنيا حولنا، فبان (الوحش) و(البغل) و(العربجي) يحدقون إلينا بسخطٍ وكره، ومن بعده بزغت ثلةٌ من الناس في آخر المسجد يتكئون على الجدار ويغطون في نومهم يصدرون خنفرة، ووضح رهطٌ من الشباب يتسامرون ويضحكون فلا يسمعون، وانتهت أعيننا عند (خباس) الذي يرمقنا ببغضٍ واشمئزاز، وبدا كأنه سيقتلنا، فتلفظنا لينتبهوا: «ادعوا لأنفسكم وسائر المسلمين يتقبل الله منا ومنكم».

رفعوا أياديهم وأسروا دعاءهم، وظللنا ندعو الله أن يعيننا ويآزرنا، ولما انتهينا نطقنا: «إني أراكم في خير، أنعم الله عليكم بوفرةٍ في المال والصحة، وأنا أخاف على نفسي وإياكم من عذابٍ كتب على غير المؤمنين، وحرم الله القتل بآيةٍ واضحة وصريحة، (من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا)، وضرب لنا مثلًا في ابني آدم، إذ إن واحدًا قتل الآخر، (فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)، أصبح خاسرًا، مكانه في النار، وحرم الله السرقة بآيةٍ واضحة وكان لها عقاب، (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله)، والرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: (وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها). ومهما كسب الإنسان من ذلك الفعل القبيح لن يرى في حياته إلا الظلام، والله مبارك في خيرٍ قليل كسبتموه حلالًا أفضل من كثير حرام».

وأجبرنا على السكوت، إذ إن الناس كلها تجلت أمامنا، نصف المسجد نائم، والنصف الآخر يتسامر ويضحك، كأننا غير موجودين، وهم لا يفهمون ما نقوله، شعرنا بالجزع، ولا يرانا ولا يسمعنا سوى أخوانا، البغض يرتسي على وجه (خباس)، والنفور من نصيب (حكّوم)، وأطرافهما متخشبةٌ باشتداد، ولكن اللون الأبيض ما زال مغطيًا الدنيا فتلفظنا: «أسألكم ألا نفاق في الدين، ولا تعبدوا الله رياءً، وأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتطبقوا ما تقولون على أنفسكم أولًا، وليرحمني الله ويرحمكم، وتذكروا قوله (والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون)».

وأحسسنا بأن الدعاء وجب، وأن علينا أن نسمعهم دعاءً صحيحًا ينفع أنفسهم، وأملنا أن يتقبل الله منا جميعًا، فتفوهنا: «انتبهوا للدعاء لعلها تكون ساعة استجابة». أغرقنا رئتينا هواءً، أغمضنا أعيننا، ورفعنا أيادينا بتضرع، وخرجت الكلمات: «اللهم أصلح شأننا، وبدل حالنا، واجعلنا من الصالحين، المتقين العابدين لك، اللهم تقبل صلاتنا، واهدنا يا أرحم الراحمين، أنت مولانا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والعصيان، اللهم اجعلنا ممن يزورون الأرض فيعبدونك ويعمرونها فيدخلون جنتك بقلبٍ طاهر».

قطعنا دعاءنا، وفتحنا أعيننا، كشفنا الكل في البياض نتفقدهم، إذ إننا لم نسمع ترديدهم خلفنا، ولم تثقب

آذاننا كلمة «آمين» واحدة، فأبصرناهم لا ينتبهون، كأننا ندعو لهم وهم لا يبغون لا صلاح الدنيا ولا الآخرة، صاغرين خلف سيذيهم (حكّوم) و(خباس) اللذين لم يرفعا أياديهما للدعاء، فنهش عذابٌ دواخلنا، واعتصمنا بالله من قلة حيلتنا، ولم نجد بدًا إلا قول: «أقم الصلاة».

أقمنا الصلاة فانتفض الكل وانتصب، ثم شرعنا في قراءة آياتٍ من القرآن توصل نفس المعاني في نفوسهم، ولما انتهينا وسلمنا، لففنا جسدنا فلم نرَ خلفنا إلا (حكّوم) و(خباس) جالسين والأبيض أضحى خافتًا، كأن الناس ركضت هاربة، أو أنهم لم يصلوا خلفنا، لم نفهم ما دار وراء ظهرنا، كل ما كشفته عينانا (حكّوم) و(خباس) يقفان خلفنا وينظران إلينا كأنهم شيطانان، ثم تحرك (حكّوم) ولف جسده ورحل، وبقي (خباس)، الذي رمقنا بابتسامةٍ ساخرة وتشفٍّ، ثم خطا نحو الأنوار، أغلقها ليقل البياض ويبدأ في التلاشي، تجاوز باب الزاوية خارجًا، ودفعه برفقٍ دون غلقه، وبقينا نحن وحدنا، نقعد وفي ظهرنا المحراب، يرتعش قلبنا لضياع فرصتنا، ونناجي الله لينجدنا من هؤلاء القوم، واندثر البياض تدريجيًا، حتى غلبه السواد، ليس ظلامًا، بل لونٌ أسود فلم نبصر شيئًا، حتى أصابعنا اختفت، والجسد، والمحراب، والزاوية، كل شيء صار أسود، وكل شيء فينا تحطم.

جثمنا على شجرة الجميز، نتطلع إلى الناس بأعين عجوز، وبقلبٍ وجل، ونفس مهيضة، وعقل ينحب، قضينا اليوم كله نبكي ونستجير بالله، نكتوي بنارين، الأولى موت زوجتنا، ولكننا صابران، والثانية إضاعة فرصتنا في تغيير مسوخ الزرائب، كأن كلماتنا كانت هراءً، يقابلها الناس بعدم الفهم، التبلد، والتقزز، وأحيانًا الكراهية، وكلما مر أحدٌ بجانب الترعة يضحك ويتندر علينا، ولولا أننا أخو (حكّوم) لقذفونا بالحجارة ونعتونا بالعبيط، وأن عقلنا به وسواس، والله ما تلوث إلا أدمغتهم، وتلاعب الشيطان بنفوسهم الهشة، وانساقوا له صاغرين.

تربعنا نشكو همنا إلى الله الواحد القهار، فهو المعين والمنجي، وفي اليوم الثاني، فكرنا أن نسير في الشوارع نشاهد أثر خطبتنا، ونحن نعلم بأنها لم تحدث فارقًا، وأكلنا هاجس بأنهم لم يصلوا خلفنا من الأساس، وتركونا وحدنا تلتقمنا الدجى.

كأن الخطبة كانت حلمًا، الناس كما هم، بنفوسهم السوداء البالية، وأفكارهم المعتمة، يضرب بعضهم بعضًا، يسبون، يجرحون، ويسرقون، ويمارسون البلطجة والجباية، والله إن لظى أعدت لمن هم مثلهم، وسيأكلون الزقوم طعامًا، ولا نعرف ما نفعله، أنحاول ثانيةً ونصبر، أم ندعو عليهم، فالأنبياء والرسل أصيبوا بالابتلاءات، وما نحن مقارنةٌ بهم، فإنا أضعف الغثاء، ولا تتحمل النفس أكثر من هذا.

وتأذت آذاننا من سخريتهم، فنزلنا من على شجرة الجميز، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بوحدة، والضائعون قابعون أمام النواصي يبيعون المخدرات، متهدلة أجفانهم ومرتخية عقولهم، ولم نرَ منهم شخصًا قد حضر صلاة الجمعة، ولكنهم مع ذلك عندما رأونا ضحكوا علينا، إذ إن صدى ما قلناه في الزاوية وصل إلى مسامع أهل المنطقة كلها، وما زال الفسق والفجور يمارس عيانًا، الأسلحة البيضاء بارزة، والحشيش والبانجو يدخنون، والأفيون يلحس على مرأى الجميع، والهيروين يسخن في معالق ويدس في الأجساد بحقن تالفة، والشجارات لا تنضب، فساقتنا قدمانا حتى وصلنا إلى خمارة (خباس)، وأبصرنا الناس سكارى يغنون ويهزون أجسادهم بدناءة، وبينهم راقصة أحضرها (خباس) من ماخور خارج الخصوص، تتمايل على الكل ويدندنون: «النفس تميل والله يا جميل، لليلة وسهرة وشرب كثير».

وقفنا أمامهم نبكت نفسنا، حتى انبثق (خباس) من بين الناس ضاحكًا يهندم شاربه ولحيته، ثم قال بسخرية: «منورين يا معلمين». وهو يرمقنا باستخفاف، وخرج فقعد أمام الخمارة، وأخرج سيجارة حشيش وأشعلها، شرع يسحب منها أنفاسًا، حتى تحرك (حميد) أمامه فقال: «ولد يا حميد، أسمعت نكتة العزاء؟» فهرع (حميد) نحوه وقال: «لا يا معلم». فجلجل (خباس) ضاحكًا مسلطًا ناظريه إلينا قائلًا: «شيخ ذهب إلى عزاء ليقرأ قرآنًا، فخرج الميت من النعش وقال له يا شيخ أنا مسيحي، فقرأ آيات من سورة مريم». وجلجل مقهقهًا هو و(حميد) ولم نجد جمالًا في ما قال، يستهزئ بكلمات الله، فليغفر له ويعفُ عنه ويحمه من نفسه، ونعرف ما يرمي إليه بحديثه، ومشى (حميد) فوفد (حكّوم)، ولم يلقِ السلام، بل كأنه لم يبصرنا، قعد بجانب (خباس) وطلب شيشة، ممكسًا إصبعه وقد بدا وارمًا، فقال (خباس): «ما لها إصبعك؟» فأمسك (حكّوم) الشيشة وشرب نفسين ثم قال: «البارحة بعد صلاة الجمعة، الولد زغلول كان معه شوال أحضره من مخلفات المستشفيات، ووقف يبيعه لسمير سلكة، وكنت أمر من أمامهما، وكانا يتبادلان الشتائم حتى أخرج زغلول مطواة وحلف أن يضربه بها، فدخلت عليهما لأحل المشكلة، أخرجت محتوى الشوال فغرزت حقنة في إصبعي، فضربته على قفاه وقلت له أن يأخذ تلك الزبالة ويرميها في الوسعاية، ومنها على هذه الحال، إصبعي كل دقيقة يزداد ورمًا». فرد (خباس): «لا تتركه هكذا، اذهب إلى طبيب».

ثم استأذن (حكّوم) ورحل، وظللنا نحن واقفين، فهزأ (خباس) قائلًا: «قردٌ نزل من شجرته، فسقط على موزة، رشقت في وجهه الأحمر». وانفجر ضاحكًا بدمه الثقيل، ثم ولج إلى الخمارة، أحضر زجاجة نبيذ ورسخ أمامنا يستعرضها ويقول: «هدية أحضرتها لحكّوم أخي حبيبي ونسيت أن أعطيها له». ثم اقترب منا وتلفظ

ساخرًا: «خطبتك الوحيدة في حياتك أطول من عمرك، نصف الناس كانوا نائمين». وازداد ضحكه ثم أردف: «الجمعة القادمة احضر وانظر كيف تكون الخطب». ثم مال على آذاننا وأكمل: «بعض الأشياء التي قلتها تحتاج إلى أن تتأكد منها في الدين، الناس لم تفهم منك شيئًا».

ثم أدبر ورحل وهو يهز عجيزته ويردد: «النفس تميل والله يا جميل، لليلة وسهرة وشرب كثير». ثم لسع الراقصة على مؤخرتها فأصدرت ضحكةً عاهرة، فرحلنا والحطام يزداد في نفسنا.

***

منذ بناني (حكّوم) لم يخطب (خباس) مرة واحدة بفصاحة كـ(صابر)، ولو يعلم الناس دينهم لساروا خلفه، يرددون القرآن في كنفي أحيانًا، على مدار سنين طوال، والكتب والتفاسير مركونةً حتى غطاها التراب، ولكنني أعلم كل ما فيها، وكلمةً مما قال (صابر) أبلغ مما أخرجه لسان (خباس) النجس في عمره كله، ولكن الناس لا يبصرون، غشاوة آل أبو حماقة أعميت أبصارهم، وخلق الله (صابر) من ذرية أبو حماقة، ولكنه لا يشبههم، إلا أباه -رحمه الله- الذي كانت تحمل نفسه كثيرًا من الإيمان.

تبقت على الفجر ساعتان، وأنا مغلقة مظلمة، وعلى غير العادة فُتح بابي، ولجت منه (جواهر) تتلحف بعباءة مصنوعة من الجوخ، تنشبث بمجمرة وإبرة وحبيبات بخور وأعواد ثقاب وفحم، وكتاب، ومجموعة من الأوراق، أغلقت الباب خلفها، وبركت في وسطي، وعلمت ما أحضرته، كفرْ بين، أوراق أعمال وأسحار، أعوذ بالله من هؤلاء ناسًا، أفي بيت الله؟

رمت بعض مكعبات الفحم وأشعلت الثقاب ثم ألقت بعض أوراق الكتاب على النار، اشتعلت فتأجج الفحم، دقائق وتوهج، ثم ألقت بحبات البخور، فتصاعد الدخان، وأخرجت الإبرة، وخرمت بعض الوريقات وهي تردد طلاسم وأحرف وكلمات غير مفهومة، ثم قطعت ورقة من الأوراق جزيئات صغيرة، وأمطرتها على النار وهي تصرخ بهستيريا، ثم وقفت على قدميها، ورسمت دائرة حول المجمرة بالورق، ولفت حولها في أثناء اهتزازها وتراقصها ببشاعة، وسقط الإيشارب عن رأسها، فظهر شعرها فشدته وهي تنعق، في أي كتابٍ ذكر هذا، أن تقام أعمال الشعوذة والسحر في بيت الله؟ ظلت على حالتها أكثر من عشرين دقيقة، حتى دفع بابي بقوةٍ مهيبة، فخبط في جداري وكاد ينكسر، وظهر (حكّوم) يبص على (جواهر) التي تسمرت مكانها، فدخل الحمام أحضر إبريقًا ممتلئًا بالماء، وقام بصبه على الفحم، ثم ضرب المجمرة بقدمه فانكبت على حصيرتي فساحت إثر حرقها، أمسك (جواهر) من شعرها وشدها نحوه، ولطمها على وجهها ثلاث صفعات، فصرخت وتملصت منه وهي تدفعه قائلة: «ابتعد عني لقد قرفت منك». فاندفع نحوها كالثور ولكمها في وجهها حتى انشق حاجباها ثم قال بجلف: «كان عليّ أن أفكر قبل أن أدخلك بيننا».

خرت أرضًا وتمتمت: «أأدخلتني الجنة؟ كلكم وسخون». قرفص بجانبها ولطمها مرةً أخرى وقال: «ما الذي كنتِ تفعلينه؟» فصدحت في وجهه: «لا دخل لك». صفعها ناطقًا: «ستعيشين أسود أيام حياتك». فقالت: «أنا أعيشها». وقف على قدميه وسحبها من شعرها متجهًا صوب الباب: «سواد حكّوم ليس قبله ولا بعده سواد، ستتمنين الموت ولن تطوليه». فصرخت بهياج وهي تصيح: «طلقني واتركني أرحل من هنا». تركها من يده، ونزل على ركبتيه: «ألهذا لا تريدين الإنجاب مني؟» فردت: «أنا لا آخذ شيئًا يمنعني من الإنجاب، ولا أعرف العيب من من، وكنت أحاول تسخير الجن لمساعدتنا».

تسخر الجن في بيت الله، أعمال كفرٍ وفجور، فأوقفها (حكّوم) وأمسكها من منكبيها: «من اليوم، لا أريد رؤيتك خارج البيت، تكنسين وتمسحين وتطهين الطعام وتخدمين أمي، وانسي هذا الجنون الذي تعيشين فيه، وعندما أشعر بأن كيفي يطلبك سأنام معكِ، هذا دورك في الحياة».

أنهى كلماته وحمل الإيشارب وربط به رأسها، وسحبها أسفل إبطه وخرج، أغلق بابي وبعض الناس كانت تتصلب في الشارع تستفهم الصوت العالي، وعندما شافوا (حكّوم) فروا راحلين.

***

يترجرج الفراش بعنفوان، يمتزج معه صراخ (عزة) ولهاث (حكّوم)، ومن ثم همد فانطفأت النيران، ومن بعده تخضب الهواء بدخانٍ كثيف أبيض خلقته شيشته، بعد أن هدأت أنفاسه فأشعل صدره من نار المعسل القص وهو يرص الفحم عليه، وإصبعه المتورمة تضغطني لآخره، ثم نام ممسكًا خرطوم النارجيلة وضم جسد (عزة) الغض وهي تقول: «كنت أعرف بأنك ستزورني». فسعل ضاحكًا متلفظًا: «أتحضرين الجن أنت الأخرى؟» ارتمت في حضنه تعد شعيرات صدره ضاحكة: «وهل تأتي بالعفاريت؟ أنت لا تأتي إلا عندما يحضر مزاجك». عدل جسده وقعد يلتقط أنفاسه بسبب القص الذي كبس على نفسه، سعل ثم تفل بجانب الجدار بلغمًا وأخذ يسب: «حشيشة مقفولة، الله يحرقك يا بغل».

ثم نظر إليها لتسترسل: «خباس الصبح أخبرني بأنك أرسلته إلى مصلحة خارج المنطقة، فعلمت بأنك قادم». قهقه وقال: «والله لولاك لما أرسلته إلى أي مصلحة، فأنت تعرفين بأنه ليس فالحًا إلا مع المومسات». قبلته في جبينه وقالت بغنج: «والختمة الشريفة كنت أعد الأيام في غيابك، وأتمنى أن يدخل علي ويخبرني بأنك أرسلته إلى مصلحة، ولكنك عديم الإحساس». ثم وقفت أمامه، بقميص نومها الأسود الملتصق بجسدها، وقالت بدلال: «ما الذي أحضرك؟» خبطها على فخذها بدلال قائلًا: «الشوق». ثم انتزع الحشيش من حجر المعسل، ووضع غيره وشد نفسين وقال: «بنت الكلب تصنع الأعمال لتنجب مني». مال على السرير وفرد جسده واستطرد: «سأخبرك سرًا، كنت أحس بأن الولد يوسف ابني من أول يوم جاء للدنيا». كادت تنطق لولا أنه سعل بحرقةٍ واعتدل، فأبعدت عنه الشيشة قائلة: «خذ نفسك، وامنع الدخان يومًا على الأقل».

انتصب، ثم خطا مترنحًا صوب الكنيف ناطقًا: «روحي فيه». فتح صنبور المياه، فرد يديه أمامه فأغرقتني شلالاتها، ضرب وجهه بقليلٍ منها، ثم تحرك، ولج إلى المطبخ، فتح الثلاجة، أخرج زجاجة ماء، تجرع نصفها، ثم وقعت عيناه على زجاجة نبيذ، تبسم ورفعها، فتحها وتجرع منها بنهم، حتى وصل إلى الربع، ثم أغلقها وأعادها إلى مكانها، عاد إلى الفراش، ارتمى في أحضان (عزة)، قبلها بشره، ووقعت عيناها على إصبعه فشهقت: «ما الذي أصاب إصبعك؟» فحكى لها قصة (زغلول) و(سمير سلكة)، فماست إلى الحمام بمؤخرتها المفلطحة، أحضرت طستًا ممتلئًا بالماء، وضعته على النار حتى غلى، ثم قامت بتبريد الماء حتى فتر، وجلبت قطعة قماش قطعتها نصفين وإبريقًا ملأته من الطست ومطهرًا، ثم عادت، افترشت الأرض بعجيزتها ومدت يدها تمسك إصبعه، فتركها لها، جاهدت حتى خلعتني منها، ومن ثم وضعتني بداخل الطست لأتطهر، وضغطت بكل قوتها على إصبع (حكّوم) فأخرجت صديدًا ودماءً، لم يتحرك أنملة، بل ظل متابعًا السقف كأنه في ملكوتٍ آخر، تغطس قطعة من القماشتين في الطست وتمسح الإصبع، لأكثر من نصف ساعة ظلت تعتصر إصبعه، ثم رفعت إبريق الماء وغطستها، ثم غرقتها بالمطهر، وربطت عليها بقطعة القماش الأخرى، وقالت: «خذ حذرك يا حكّوم كان من الممكن أن تُقطع، وتعال لأغير على الجرح كل يوم أو اثنين». فضربها في كتفها وهو يقول: «تأخذينها حجة». ثم هز جسدها بين يديه وهو يقول: «مرة طرية».

استقام على قدميه وشرع في ارتداء ملابسه، ورفعت (عزة) الطست والإبريق وأنا غارق فيه، ولجت الحمام، أخرجتني من الإبريق وقذفتني أرضًا بجانب صنبور المياه، وأفرغت الماء في عين الحمام، ثم غسلت الإبريق والطست، وأعادتهما مكانهما، وركضت نحو (حكّوم) تساعده على هندامه، حتى انتهى، وقبلها في جبينها، ثم توجه صوب الباب وخرج، وتركاني في الحمام، ألمع بجانب صنبور المياه.

***

قررنا أن نغيرهم بأنفسنا، أن نهيم في الشوارع ونتكلم مع الناس، وتركنا شجرة الجميز، وتحركنا في الزقاقات، نرى شبابًا يعاقرون المخدرات، فنتحدث معهم ونخبرهم بأنها حرام، فيسخرون منا، ولا ينتبهون لحديثنا، ثم يهددوننا، فنرحل. نوقف شخصًا آخر، نحدثه عن الدين، فيخبط على دماغه من ألم كلماتنا، ويتركنا ويهرب، ونهرع هنا، وهناك، وفي كل صوبٍ وحدب، نحدث الكل ولا يسمعون، نلف في الشوارع حتى نحلت

أقدامنا، وقررنا زيارة خمارة (خباس)، فكانت الناس سكارى، خربت الخمر عقولهم، فحاولنا التحدث معهم فكانوا يتجاهلوننا، وجلس (خباس) إلى طاولة يلعب القمار مع ثلاثةٍ يسبون ويلعنون، ويشرب الأربعة البيرة، وكان كلما نظر إلينا يضحك ويشير للناس إلينا فينعتونا بالمهبول. غمز إلى الراقصة فتقدمت نحونا وحاولت جذبنا وهي تهز عجيزتها وصدرها تحاول القفز في أحضاننا ولكننا ابتعدنا مستغفرين الله، فخلعت عمامتنا وأمسكتها وألبستها لرأسها وشرعت تلف بها وترقص والناس تضحك باستهزاء، فخرجنا من الخمارة ونفسنا مكسورة مذلولة.

تحركنا نحو القرافة، ولجنا وجلسنا أمام زوجتنا، ننتحب ونقرأ قرآنًا، ندعو لها ونشكو حالنا، ونحكي ما جرى لنا، وظللنا ساعات طوالًا لم نعدها، حتى إننا صلينا الفجر في المقابر، وعدنا إلى المنطقة بالقرب من الساعة الخامسة، وفي أثناء دخولنا، صعقنا مما جرى، أن (عصام) المراهق ابن المعلم (سيد زكيبة) كان قد دار بينه وبين أبيه شجار منذ ثلاثة أيام، اشتعل ولم يهدأ، حتى اليوم، من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى الرابعة يتشاجران، انتهى الأمر بأن (عصام) ركب مطواة في عنق أبيه، ليسقط الرجل صريعًا مضرجًا في دمائه، وتنتهي صفحته مقتولًا على يد ابنه، وأمسكه (حكوم) وربطه وسلمه إلى الشرطة، ولم يتأثر أحدٌ بالواقعة، وجدناهم يحكون القصة كأنها شيءٌ مسلٌ، ويتراقصون ويتعاظمون بأنهم إن قرروا القتل سيكون شابًا عتلًا وليس رجلًا خمسينيًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ولم يذكر أحدٌ أن الجريمة شنعاء، وعلمنا من أنفسنا أن هؤلاء الناس سكنهم الشيطان.

مشينا حتى وصلنا إلى شجرة الجميز، وجلسنا عليها والحزن يهزمنا في كل المعارك، وصدح صوتنا مفعمًا بالحزن ننشد مغمضين الأعين: «يا رسول الكرم، أين صفات المؤمنين، يا أشرف الخلق، أتلك أمتك، أأنت شفيعهم، وهم لا يصلون، يا رب يا معين، أعِني عليهم، وانصرني فأنا ضعيف، يا رب يا كريم، ألجأ إليك من قوم كافرين، يا أيها الزبانية، انزلي للأرض وانشري العذاب، فأنا لا أرى سوى معاصٍ والمؤمنون أذلاء».

انغمسنا في الغناء حتى علا صوتنا ووصل إلى نهاية الزرائب، لينبثق حشد من الناس يهزون شجرة الجميز، فانتفضنا منتزعين من بحرنا، يطلبون منا السكوت، ألا يملكون الجرأة على غلق خمارة (خباس) التي تصرخ بالغناء والألحان حتى السادسة صباحًا، ولكننا صمتنا، فلا نريد شيئًا الآن سوى الموت لنهرب من تلك المآسي، نمنا على الشجرة، وتفقدنا السماء بأعين حمراء تعاني، والدمع يسقط في هدوءٍ ممتزج مع صوت صرصور الحقل والضفادع التي تؤنس وحدتنا.

***

تركني (حكوم) بجانب صنبور مياه شقة (خباس)، وباب المرحاض مفتوح، أراقب ما ينشأ في الشقة، تكومت (عزة) على الفراش تنام من الجهد والتعب حتى تجاوزت الساعة الثانية عشرة ليلًا بعدة وحدات، وقامت فشرعت في طبخ بعض الطعام، ومن ثم تتراقص وتتغنج وتكنس وتمسح، فيها قوةٌ عجيبة، حتى سمعت (خباس) يؤذن للفجر، ومن بعدها بساعةٍ صراخ في المنطقة، خرجت تبص من النافذة وعلمت بقتل المعلم (سيد زكيبة)، لم تأبه، فتحت الراديو لتسمع بعض الأغاني لـ(أم كلثوم) و(عبد الحليم حافظ)، وصلت الساعة إلى السادسة صباحًا، وفتح باب الشقة و(خباس) يسعل، ثم أغلقه خلفه فركضت نحوه تزيل عباءته من جسده، جلس على كرسي بجانب الباب فقرفصت أرضًا تخلع نعليه، ثم شرابه، ومشى قائلًا: «الولد ابن الحرام قتل أباه». ربتت على كتفه قائلة: «لا تشغل بالك ببلاوي الناس، أأحضر لك الأكل؟».

تنهد قائلًا: «تناولته في الخمارة، اليوم كان طويلًا». خلع ما بقي من ملابسه ووقف بالكلسون يمد يده داخله ويهرش بطنه، ثم تحرك صوب المطبخ قائلًا: «أين العيال؟» فردت: «عند الحاجة تحت». فضحك مداعبًا: «تعجبني دماغك».

فتح الثلاجة، أخرج زجاجة مياه، تجرع نصفها، ثم وقعت عيناه على زجاجة النبيذ الناقصة، ارتسم العجب على وجهه، رفع الزجاجة يتفقدها، ثم صاح: «أهناك أحدٌ دخل البيت وأنا في الخمارة؟» برز صوتها عاليًا من

غرفة النوم: «لا، لم يأتِ أحد، أنا وحدي منذ تركتني، حتى أمك لم تعد تزورنا، تقول لي إنها لا تقدر على طلوع السلم».

أعاد الزجاجة إلى مكانها، ثم ولج إلى غرفة النوم، ادرعت (عزة) بقميص نوم شفاف هفهاف، فضمها إليه وقبلها قبلةً سحبت أنفاسها وهو يقول: «تزدادين حلاوة كل يوم». ثم دفعها حتى سقطت على السرير، وقعد بجانبها قائلًا: «ما رأيك بأن تصبي لنا كأسين؟»

فأعرضت بدلال: «أنت تعرف أنني لا أشرب الخمر». تنحنح متعجبًا: «لا تشربينها نهائيًا؟ ألم تصبي لك أي كأس وأنا في الخمارة كتجربة؟» لكزته في كتفه مازحة: «ما لك يا خباس، متى رأيتني شربت خمرًا؟» تجهم وجهه، واعتدل في جلسته، ثم وقف أمام المرآة، فتحيرت، ولكنها لم تنطق، خلع ملابسه، وخطا نحوي، ملأ الطست ثم خرج ووضعه على النار، وقف بجانبه وقسمات وجهه بدت كأن الأفكار تعصره، لمس المياه فأخمد النار، عاد إلي، أغلق الباب، ووقف فوقي يتحمم، يدلق الماء على رأسه والبخار يخضب الهواء، وبعد أن انتهى، ناداها لتحضر إليه منشفة، غطى بها جسده، ثم مالت عيناه فرآني، اهتزت قدماه وكاد يسقط، فانحنى وأمسكني، تفقدني وقلبني عدة مرات، ثم ضغط علي في قبضته، وخرج، دخل إلى غرفة النوم، ارتدى كلسونًا، ثم أطفأ الأنوار، ونام على الفراش، تدللت عليه (عزة) ولكنه أبعدها برفق، وفي الظلام ظل يتفقدني بعينين مبحلقتين، كأن عقله يرفض فكرة أنني خاتم أخيه (حكّوم).

***

خبأني (خباس) بين ملابسه في أثناء نومه، وقبل صلاة الظهر هزت (عزة) جسده ليفيق، قام وتوضأ ونزل فصلى ومن ثم عاد فنام، وقبل صلاة العصر فعل المثل، وعند المغرب تيقظ وارتدى جلبابًا وقفطانًا ولاسة مزركشة، ودفنني في جيب جلبابه، ثم تعطر بعطرٍ ثمين، وقبل (عزة) في خدها ونزل، يضمر نيته، ولا نعرف ما ينويه، ولج إلى الزاوية، أم بالناس صلاة المغرب، ومن ثم ارتحل إلى الخمارة، وجد بعض الزبائن يخدمهم (حميد)، فجلس إلى طاولة منزوية وأشعل سيجارة حشيش يتنفسها وباله مشغول، فاقترب (حميد) منه مستعلمًا: «أأحضر لك مشروبًا يا معلم؟» لفظ (خباس): «ألم تزّ حكّوم اليوم؟» فكر (حميد) برهة ثم نطق: «كان مع المعلم الوحش في زرايب القرود، أتريدني أن أذهب وأبلغه شيئًا؟» فقال: «لا داعي، أحضر لي زجاجة بيرة». فركض (حميد)، جلبها وفتحها، ثم أكمل طريقه في خدمة الزبائن، ظل (خباس) على حاله حتى صلاة العشاء، وذهب ليصلي بالناس، وكان خلفه (حكّوم) كما كان في كل صلاة، أنهى صلاته وسلم عليه ثم تحرك صوب الخمارة، هندم ملابسه وزعق في (حميد): «خذ بالك، لن أغيب طويلًا». فانصاع الأخير، وخرج (خباس) وركب سيارته، سار بها ربع ساعة حتى وصل إلى منطقةٍ سكنية، ركن السيارة، وترجل منها، دخل بناية، صعد الدرج، وصل إلى شقة وطرق بصوتٍ خفيض، ففتح الباب وظهر شاب قصير القامة، قال كأنما رأى الجنة: «مرحب يا معلم خباس، شرفت».

فرج الباب على آخره، فولج (خباس) ليكشف بعينيه أريكتين إحداهما أمام الأخرى في صالةٍ ضئيلة الحجم، وفي المنتصف طبلية مرصوف عليها أصابع حشيش وسجائر بانجو وأحجار معسل، تتوسط أريكة سيدةٌ تشبه البرميل في تكوينها، الدهن يخنق عنقها فبان وجهها كالخنزير، ترتدي قميص نوم ورديًا، وتظهر فخذي جاموسة، تمسك بخرطوم الشيشة وتشد منه، وما إن أبصرت (خباس) حتى قالت: «مرحب بسيد الناس كلهم». ثم رمقت القصير وقالت: «شوف يا زوزا حسنات». فركض القزم نحو ممر مظلم، وقعد (خباس) بجانب الخرتيت وتسلم منها خرطوم الشيشة وشد أنفاسًا وهو يقول: «احذري يا أم بندق أن تكون نامت مع أحد غيري من آخر مرة». شدت منه الخرطوم وهي تقول: «وشرفك لم يلمسها أحد». وجلجلت ضحكتها، فحضر القزم وقال: «في غرفتها يا معلمة».

فأخرج (خباس) خمسة جنيهات من جيبه وناولها له، ومن ثم ثلاثين جنيهًا رماها على فخذي (أم بندق)، وولج إلى الممر حتى وصل إلى غرفةٍ في نهايته، دفع الباب ففتح، لتظهر (حسنات) تتلحف بقميص أحمر

شفاف قصير لا يستر عورتها، وتلون وجهها بمساحيق التجميل رغم أن جمالها أخاذ، جسدها منحوت ممتلئ من عند مؤخرتها وصدرها، بيضاء البشرة خضراء العينين شقراء الشعر، ركضت صوبه وارتمت في أحضانه وهي تقول: «نار تكويني وأنت بعيد». ربت على كتفها، ثم خلع القفطان واللاسة، وجلس على الفراش، أحضرت له كأسًا ملأتها بالخمر، فتجرعها، ثم قبلها وضمها إليه، فقفزت فوقه وتمدد على الفراش، ولم تتركه إلا وشحنته فارغة.

ظل ساعتين في ذلك الماخور يتمرغ في أحضان (حسنات) ويدخن الحشيش ويشرب الخمر، ثم ارتدى ملابسه، فقبلته وتساءلت: «متى سأراك؟» فضحك باستهزاء: «كل يوم». أخرج من جيبه خمسين جنيهًا ودفسها بين ثدييها، ثم تجاوز الباب، وركض القزم أمامه يفتح له باب الشقة، وقبل أن يخرج نظر إلى (أم بندق) ونطق محذرًا: «لو علمت بأن أحدًا لمسها غيري ستقضين الباقي من عمرك أنت والمسخوط هذا في الليمان».

خرج من البناية، استقل السيارة، وعاد إلى المنطقة، ركنها بعيدًا، ثم مشى حتى وصل بالقرب من البيت، دقت الساعة بالثانية عشرة ليلًا، صعد على الدرج، وقف أمام شقته نصف ساعة كاملة يتنصت، فلم يترجم إلا صوت (عزة) تضرب الولدين، ففتح الباب ودخل، خلع ملابسه، تناول الطعام، ثم رمى جسده على الفراش وغط في نومٍ سحيق.

اليوم الثاني تصرفاته بدت أعجب، يصلي كل الصلوات في ميعادها، وفي الليل يذهب إلى الخمارة، وكل برهة يخطف عشر دقائق يطلع إلى البيت ويقف أمام شقته، يسترق السمع، ثم يعود إلى الخمارة، يظهر نفسه ويتحرك في كل مكان، كأنه يرغب في إخبار الناس بوجوده في خمارته، ثم يهرب دقائق ليراقب زوجته ويعود، حتى تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، خرج من المنطقة، زار (حسنات)، ثم عاد إلى البيت بميعاد الفجر، تحمم وأم بالناس الصلاة، ثم طلع إلى شقته، لم يأكل شيئًا، تسامر مع (عزة) بضع دقائق يضحك معها بتصنع، ومن ثم نام.

في اليوم الثالث صلى كل الصلوات في ميعادها، وبعد العشاء زاره (حكّوم) في خمارته، قعد إلى الطاولة خارجها، طلب شيشة يراقب تحركات الناس، ومن ثم نادى (خباس) وجلسا يتسامران، ثم قال (حكّوم): «أريدك أن تخلص لي مصلحة في الإسماعيلية». أخرج حزمة أموال وقال: «ستعطي تلك للشيخ عبد الصبور، وتخبره بأن البضاعة جيدة ولكن عليه أن يهتم بالرائحة».

تسلم (خباس) الأموال منه مبتسمًا، ثم رحل عنه، ركب سيارته، ومشى بها حتى خرج من المنطقة، ركن على طريقٍ جانبي، نصف ساعة، ولف عائدًا إلى الزرائب، ترك السيارة خارجها، عدل من عمامته حتى غطى جبهته كلها، ومن ثم لف الشال على وجهه وتحرك على قدميه، وتلك العادة لا تلفت الأنظار؛ إذ إن سكان الزرائب يقومون بها ليحموا وجوههم من الهواء البارد في الشتاء، دخل المنطقة، بلغ شارع آل أبو حماقة، وقف ثوان أمام البيت، ثم دلف، صعد الدرج، أدرك باب الشقة، انتصب أمامه، ومال بأذنه يسمع، فخرج صوت (حكّوم) قائلًا: «ألم أنس الخاتم عندك في المرة الفائتة؟» صمت مر قبل أن تشقه (عزة) ويبدو أن بينهما مسافة، أو أنه يعبث في الشقة ويقلب: «لا أتذكر، ابحث عنه». دقائق مرت، ثم قال: «هذا الخاتم ملك أبو حماقة». سكت دقائق، ثم أضاف: «لو علمت بأن أحدًا سرقه سأعلق رأسه على البيت». تكتم طال، ثم أردف: «إصبعي تحسنت». فطلع صوتها: «قميص النوم هذا اشتريته البارحة من أم فارس الذلالة». احمر وجه (خباس) كشيطان، وبزغ صوت (حكّوم) يقول: «حضري لي الشيشة، مصلحة اليوم طويلة» فطرقعت ضحكتها بخلاعة.

أغلق (خباس) صمامات أذنيه بغلظة، لم يقدر على استمرارية وقوفه، فأبعد رأسه عن الباب، ونزل على الدرج، توجه صوب السيارة، ركبها، وسافر إلى الإسماعيلية ليقضي المصلحة التي أرسله إليها (حكّوم)، وفي عمري كله مع (حكّوم)، لم يظهر (خباس) بهذا الاهتياج من قبل.

***

أتعلمون شيئًا؟ إن الله على كل شيءٍ عليم، يعلم ما بين أيديكم وما خلفكم، ويعلم ما تخفيه صدوركم ونفوسكم، ويعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم بأن سكان منطقة الزرائب قد ظلموا حتى تجبروا وحجزوا مكانهم في الهلاك ينتظرهم، والله غفورٌ رحيم ولكنهم لا يتوبون.

بعد خطبة (صابر) التي ألقاها في جوفي، كلامٌ يغير صخرًا، لم يتبدل أحدٌ، وكان الهدف أن يزداد الناس يقينًا بالله ويعبدوه على نحو صحيح، وأن يتقربوا منه فلا يتبعوا (حكوم) بما ختمت أمه به على صدره وطبقه فقلدته الناس، كانت الخطبة في هدفها تحذيرًا للناس من عذاب الله، وأن يبتعدوا عن القتل والسرقة والسكر والعربدة، وأن يتوبوا يرحمهم أجمعين، ولكنها أتت بشكلٍ عكسي، لم يفهمها أحد، ولم تغير في نفوسهم، بل بعدها قل وجودهم في جوفي، حتى إني اقتنعت في يومٍ ما أنهم سيمتنعون عن زيارتي، وسيقومون بهدمي، فيتمرغون ويسبحون في الأخطاء ويمنعون كل صواب.

والمعاصي تعلقت في صدورهم، وساروا في الأرض يعيثون فسادًا، وغرق الكل في الضلال، ولو يعلمون لخافوا يوم لقاء ربهم، ولكن الله قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذابٌ عظيم.

***

كأن جيب (خباس) كفني، مدسوس فيه، فرد آخر من آل أبو حماقة أجاوره، وقد انقلب حاله عما عاهدته، يجالس نفسه، لا يلعب القمار، يشرب قليلًا، ويفكر طويلًا.

اليوم بدا مغايرًا، بعد صلاة العشاء، تلحف بملابس براقة، وأخذ زجاجة النبيذ من الثلاجة، ولفها في ورقة جرنال، ثم ولج إلى الخمارة، وجلس بضع ساعات حتى أبصر (حكوم) وقد اتخذ من الطاولة أمام الخمارة مقصده، و(حميد) كالعادة أحضر له شيشة، فتحرك (خباس) ورافقه، وفي قبضته زجاجة النبيذ.

أوقفها على رأس الطاولة، ثم أشعل سيجارة، وتنفسها ببطء ونيد، وعيناه مسلطتان على الشارع أمامه، تجاهله (حكوم) يعبث في الشيشة، فتلفظ (خباس) دون النظر إليه: «هدية لك».

تبسم (حكوم) ونطق: «وما المناسبة يا ابن أبو حماقة». لم يجبه (خباس)، ودام ينظر أمامه، فقطع (حكوم) الورقة وعلق عينيه بالزجاجة التي نقص ربعها، لم يهتز، يبدو أنه لم يتذكر، إلا أن (خباس) قال: «اشتريتها بعد خطبة صابر، ونسيت أن أعطيها لك». ثم حدق إليه بعينين ثاقبتين ونطق ضاحكًا: «المرة بنت الكلب فتحتها وشربت منها، أتصدق يا حكوم، عزة تشرب الخمر».

ترك (حكوم) خرطوم الشيشة من يده، وسلط عينيه عليه، صمت لحظات، ثم نطق: «كل الستات تشرب». افتر (خباس)، ثم نادى قائلًا: «أحضر كأسين يا حميد».

جلب (حميد) الكأسين ووضعهما أمامهما، ففتح (خباس) الزجاجة وملأ ربعهما متلفظًا: «لأجل الأخوة». غطى تقاطيع وجه (حكوم) قليل من القلق، فرفع (خباس) كأسه وتجرعها، ثم تطلع إلى (حكوم) الذي حمل كأسه وبلع محتواها.

تزعم الصمت دقائق، يقتعدان ويتابعان العامة، ولا تحيد أعينهما، ألقى (خباس) السيجارة ودهسها، ومد يده في جيب الجلباب، قبض علي وأخرجني، ثم فرجها أمام (حكوم) قائلًا مبتسمًا: «وجدت خاتمك في حمام شقتي». نضحت عينا (حكوم) بالنار، فهمس (خباس): «بنت الكلب لا تشرب فقط الخمر، اكتشفت أيضًا أنها حرامية». سكت ثوان، أسقطني في كف (حكوم) وأضاف: «يبدو أنها سرقته من إصبعك دون أن تشعر».

أنهى حديثه، واستقام، هندم من جلبابه اللامع، وتفقد أصابع (حكوم) قائلًا: «يبدو أن إصبعك تحسنت، تستطيع أن ترتديه مرةً أخرى» ثم التقط كومةً من الاكسجين وبص في عينيه وقال: «اعذرني، سأتركك، لدي مصلحة سأخلصها».

ورحل (خباس) متبخترًا، يدندن: «الليل وسماه، ونجومه وقمره.. وإنت وأنا..» دون أن يلتفت خلفه، حتى

اختفى من مرأى (حكّوم)، وسهم الأخير على كرسيه يقبضني باستفحال، كأن سبعين طنًا تضغطني، كدت أكسر قبضته من القوة المفرطة؛ إذ إنني لا أخدش، وهو إنسان بالٍ. ثم رفعني يتفقدني، يتنفس بعمق سحيق، أغمض عينيه ثوان، ارتداني في إصبعه، وانتصب، عدل من لاسته، ثم خطا حذرًا يغوص بين الناس.

***

يتعقد الزمن، فتتلحف الساعات برداء الأيام وتطول، نبرك فوق شجرة الجميز نبص للزرع بتخيب، نولي ظهرنا إلى الزرائب، لا نتوق رؤية الناس، فالحل في العودة إلى ما كنا عليه في عمرنا البائد، والعيش بسكينةٍ في منأى عنهم، ووميضات الذكريات طفقت تنير أمام أعيننا، نتذكر عيشتنا في الزاوية الحمراء، ونفحص في دماغنا منتهى الحاج (حسين) وزوجه (خديجة)، وما حل بالست (عنايات) أم (فاطمة)، فمن المؤكد أنها علمت بالجريمة التي أدت إلى مقتل ابنتها، أمرّ بشع، ولكنه سيريحها قليلًا بعد اختفائنا وجثتها، ستظن بأننا أخذناها ودفناها في مكانٍ ما، أفضل من الاعتقاد بأنها حية فتغرق في أفكارها وتنهار في محيطات الألم، ويا لعذاب الحاج (حسين) لو أصاب زوجه ضرر، وددنا رحيلنا وتفقدهم ولكننا خفنا اعتقالنا بعد أن علمنا من خلال الراديو وحديث الناس عما جرى بأن الرئيس (أنور السادات) أمر باعتقال الكثير معظمهم شيوخ ينتموت إلى مجموعة الإخوان المسلمين، وإن عرفت الحكومة بأن الشيخ (قاسم) حاول ضمنا سنلقى في الليمان، وسمعنا صوت (السادات) في الراديو يذكر زوجتنا وأن الأحداث اشتعلت بسببها، ولكننا لم نأبه؛ إذ إن الحكايات تتفرع فلا يعرف الصحيح منها.

وفي خضم التقلب الذي غزا عقلنا، جثمت أمنا على رأسنا فتصدعت، بذرة الفساد، ولب الجحيم الذي أعد لآل أبو حماقة، ومع كل هذا، لم نتجادل يومًا، فإن تمكنا من تنقية شوائبها، فمن الممكن أن تساعدنا، فيلين إخوتنا، ويتبدلوا، فيتبعهم سكان المنطقة.

قفزنا من الشجرة، ومشينا حتى وصلنا إلى بيتنا، صعدنا إلى شقتها، ولجنا، تحركنا حثيثًا حتى وصلنا إلى غرفتها، تتربع على فراشها متقوسة الظهر، كتلةً مترهلة، متكومةً في نفسها، تصلي في صمت، جلسنا بجانبها، ولما سلمت، رمقتنا بتعجب قائلة: «تذكرت أن لك أمًا؟».

انبعثت الكلمات بسخرية: «كما تعلمين، أنا عبيط». لفت بتلكؤ، جاهدت ليستعيد جسدها وضعه الطبيعي فولت ظهرها للقبلة، ولما انتهت، سعلت حتى برزت عيناها من جمجمتها وهي تميل لتستند إلى وسادة خلف ظهرها، فسقط الإيشارب، وتفحصنا وجهها، عجوز، شعرها نصفه أبيض والنصف الآخر برتقالي إثر الحنة، التجاعيد تشقق وجهها ككعبيها، وعيناها العسليتان ضاقتا واحمر صلبهما كأن الدماء تغطيهما، وأطرافها منتفخة من السكري، فنطقنا: «ما الأمراض التي عندك الآن يا لبيبة؟» وأضفنا بتندر: «عليكِ أن تمنعي الشيشة». فردت بنفور: «مرض ينهش كبدك، ماذا تريد؟».

تعلق ناظرانا في قسماتها، وجاهدنا لنبش، ثم تلفظنا: «تذكرين جدي جاد الله؟» تهجم وجهها: «ربنا يحرقه، ما له؟» تنهدنا: «أكان ظالمًا؟» رمقتنا بأعين متلظية: «كان ابن كلب».

فضاقت نفسنا، وانفرج فمنا بالسؤال: «ماذا عن قتله؟». جذبت مسبحة من أسفل الوسادة، تلاعبت بحباتها وهي تقول: «كان يستحق». غابت بوجهها ودفست ناظريها بين كفيها، فتعجبنا: «تتحدثين عن القتل كأنه شيء عادي». التقطت نفسًا قصيرًا، ثم رمقتنا بامتعاض وقالت: «الضرورة تجبرنا على ارتكاب أشياء، البعض ممكن أن يندم عليها، ولكنني لم أندم».

مددنا يدنا، تحسسنا أصابعها المكرمشة التي تلفها العروق كالأفاعي، وتكلمنا: «وأمام الله؟» نحتنا عنها، وقالت بضجر: «ألم يقتل الصحابة الكافرين؟ أعتبره كافرًا». ثم تأوهت ومالت بجسدها للخلف حتى قاربت على النوم، فتفوهنا: «لكنه لم يكن كافرًا». أشارت بيدها باستهتار: «أنت لا تعرفه، كنت صغيرًا». تحدثنا: «كنت كبيرًا كفاية لأفهم». أبعدتنا عنها ونطقت بتندر: «أنت كبير الآن وما زلت لا تفهم».

انعقد لساننا، وانكمش جسدنا، هي ترانا مخبولًا، فألجمتنا بحديثها، ولكننا قررنا التنقيب في روحها، لعلنا نمس شعاع نور في ظلامها، فقلنا بحنو: «لم لم تندمي؟»، ردت: «تكفي التوبة، ألم نصلّ؟ لقد صلينا، وحسنة تمحو سيئة». ثم صدحت: «بنت يا جواهر». وهي تميل بجسدها حتى تمددت على الفراش، ووفدت (جواهر)، وقبل أن تخبرها مرادها، قررنا تصاعد فلسفتنا سخطًا على أفعالهم جميعًا، ونطقنا: «التوبة بدون ندم لا قيمة لها، لأن الندم هو الذي يجعلك تصدقين أن ما ارتكبتِه خطأ، وإن لم تندمي ستظلين ترتكبين الذنوب، تعتقدين بأن الحسنة ممحاة، وهذا غير صحيح، الندم جزء من التوبة يا أمي».

وقد كانت المرة الأولى التي نناديها أمنا منذ يوم الصلاة، وقد خرجت متهدجة من لساننا تقطع قلبنا، ونظرنا في عينيها بتقلبات جمة في دواخلنا، وانتظرنا ردًا طيبًا، ولكنها نطقت بالحمم: «أغلقي النور يا جواهر».

أظلمت الغرفة، وانطفأت روحها، ولفت نحو الحائط واضطجعت على جانبها، وشدت الغطاء على جسدها كله حتى إنها خبأت رأسها، فهمنا بأنها تطردنا، فخرجنا مدحورين من جحرها، يضعف قلبنا ويئن، من أناس لا يقبلون حديث الله، ويظنون في نفوسهم بأنهم الأعلم بما أنزل الله، ورنا الحزن علينا، وتسمرنا، بعد أن كشفت أعيننا (حكّوم) يجلس في صدر الصالة ولا نعرف منذ متى، فوقفنا أمامه، وفكرنا أن نتحدث معه إذ من الممكن أن يلين قلبه، فنطقنا: «اليوم الذي صليت فيه...» فأشار بيده بامتعاض إلى باب الخروج، كدنا نكمل حديثنا، إلا أنه قام ودفعنا حتى خرجنا من الباب، وأغلقه في وجهنا بحدة، فخطونا بأكبر انفراجة لساقينا نلتهم الدرج، خرجنا من البيت، ثبتنا جسدنا أمام زاوية الصلاة وأعيننا كادت تنز، فكرنا في الدخول والتعبد، ولكننا لا نملك مفتاحًا، فخبط الهواء الباب فارتجف، دفعناه برفق لينفرج، فكشفت أعيننا (خباس) يقف على برميل ويعبث في النجفة ببعض الآلات الحادة، فارتد جسدنا إلى الخلف، لا نقدر على مواجهة ذلك المغيب بعد أن تاه عقلنا وجرح قلبنا وما عدنا نقدر على الصمود، فرحلنا مفتتين.

***

لم يذق (حكّوم) النوم منذ البارحة، يخلعني من إصبعه ويركبني كل برهة، وعاقر الشيشة لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، حرق عدد أحجار مهولًا، وقطع حشيش سميكة، ومص جرعات كبيرة من الأفيون، وتجرع نصف زجاجة النبيذ، لم يُخرج كلمة من فمه، ولم يصلّ أي صلاة، وبعد أذان الفجر، ترنح للحمام، أغرق رأسه ماءً، ثم خرج من البيت بالكلسون، وتحرك إلى البناية الثانية التي كانت ملكًا لـ(سيد زكيبة) رحمه الله، أخرج الحصان، وشرع في تحميمه، ثم أخذ يجز شعيراته، فمر عليه (الوحش)، فوقف وقال: «سلامٌ عليك يا معلم حكّوم». فبادله بالسلام وقال: «شد كرسيين والشيشة، رص لنا حجرًا».

امتثل الأخير وبدأ في رص حجر القص، ثم طعمه بقطع الحشيش، وأشعل أسفل الفحم، ولما توهج طرحه على المعسل، وبدأ في شد أنفاس ساخنة، وسعل حتى طرد بلغمًا، ثم قال: «ألم تنم منذ البارحة؟» فرمقه (حكّوم) وأشار إلى رأسه، ولما انتهى من قص شعيرات الحصان، حمل دلوًا وغرقه بالماء، ومن ثم تحرك فجلس بجانب (الوحش) وتناول منه خرطوم الشيشة، ملأ رئتيه، ثم استفهم: «متى ستسافر؟» فرد (الوحش): «خمس ساعات وسأتحرك، أسبوع وسأعود، أتريد أن أدعو لك عند الكعبة؟».

لم يجب (حكّوم)، لاذ بالصمت دقائق يتنفس الهواء العفن، ثم تمخض قائلًا: «لو احتجت إليك في شيء أجدك؟» بش (الوحش) وانحنى برأسه: «عكازك يا سيد المعلمين». صمت مرةً أخرى وقد ظهر العجاب على وجه (الوحش)، وظلا يتبادلان خرطوم الشيشة في معركة سكرٍ هادئة، فشق (حكّوم) الصمت: «ألم تحس بشيء غريب في الأيام الماضية؟». سعل (الوحش) بسبب الحشيش الذي أغلق صدره، ثم قال: «كل شيء يسير كما تأمر» سرح (حكّوم) ثم نطق: «ألم تشم رائحة عفنة من ناحية الحكومة؟» صرح (الوحش): «الحكومة كلها في بطننا».

علق (حكّوم) الخرطوم بالشيشة، وتفوه بلا مبالاة: «وخباس؟» كأنه يرمي بالكلمة ويستشعر رد الفعل فنطق (الوحش): «ما له يا معلم؟» انتصب (حكّوم) وخطا نحو الحصان، مسح على عنقه دون النظر إلى (الوحش)،

ثم ألبسه اللجام وهو يقول: «يخرج كثيرًا من المنطقة». ترك (الوحش) الشيشة ودلت قسمات وجهه على البلاهة: «أنت تعلم بأنه يزور بيت أم بندق، فحسناتِ هناك». رفع (حكّوم) السرج من على الأرض، وألبسه لظهر الحصان في أثناء قوله: «راقبته في مرة، فوجدته يركن سيارته عند بيت إسماعيل الخياط». امتطى الحصان، ثم ثقب (الوحش) بعينيه وقال: «في رأيك، ما الذي يربطهما؟» استقام (الوحش) بعينين جاحظتين ينطق: «أتقصد أنهما...» قاطعه (حكّوم): «أنا أفكر معك بصوتٍ عالٍ».

تبختر بالحصان صوبه ثم وقف قائلًا: «تعبت في هذا المكان، العمر كله هنا، فلو سجنت أو قتلت». كشر (الوحش) بجزع: «تموت الدنيا ولا تموت يا معلم، ما الذي تأمر به؟» رفع (حكّوم) رأسه بشموخ وباح: «ما الذي تراه؟» نبس (الوحش) هامسًا بعد أن تفقد الشارع حوله فتأكد من فراغه: «أرى أن الخيانة تلغي الأخوة». ترجل (حكّوم) من فوق الحصان، وتحدث بلا مبالاة: «سأترك لك التصرف في هذا الأمر، ولا ترجع لي في أي قرار تأخذه». ثم التصق به، حضنه بين ذراعيه قائلًا: «لا تنس أن تدعو لنا عند النبي». ولف ظهره يسحب الحصان من اللجام نافذًا من باب مخزن البيت.

***

ومن عجب العجاب أن (الوحش) سافر منذ يومين ليزور الكعبة، وهو الذي لم يفعل خيرًا في حياته، وأن (حكّوم) لم يعد يصلي على بلاطي، والناس قلت أعدادهم لزيارتي، و(صابر) يمشي في الشارع يحدثهم عن الحرام فلا يسمعون، و(خباس) يصلي بعجالة دون فهم، ويعبث في كل ليلة كأنه يقوم بتجديدي، ولا علم لأحدٍ ما يدور في نفوسهم، ولكنهم يتصرفون على نحو يختلف عن العادة.

وفي هذا اليوم، ارتكبت معصية عظيمة، لا نعرف عنها شيئًا، ذلك لأن الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، فتح بابي ودخل (حكّوم) ثم دفعه برفقٍ وتركه مفتوحًا، يداه مخضبتان بالدماء، فعلمت بأنه قد جرح أحدهم، أو قتل، كل شيء مرجح من أولاد أبو حماقة، وجاء ليصلي طلبًا للمغفرة، أشعل الأنوار فتوهجت النجفة بنورٍ خافت، ضعيف، لا يظهر شيئًا إلا القليل، لمباتها تلفت وتحتاج إلى تبديل، رمقها بعينيه دون مبالاة ودخل دورة المياه، غسل يديه من الدماء، ثم توضأ، ووقف في منتصفي ليصلي، وترتعش أنوار النجفة فوق رأسه، وهو يردد الآيات في سره ولا يعلنها، ينزل فيسجد، ثم يعود بركعةٍ أخرى، وفي غوصه بصلاته، فغر بابي مرةً ثانية، ودلف (خباس)، وقف ثوانٍ يتفقد (حكّوم)، ثم سار متدثرًا بالظلام بمحاذاة جدراني في سكوت مكتمل، حتى وقف بجانب حبل، أخرج مطواة من جيبه، رفع يده، وحك الحبل بها بتلكؤ، وعيناه مثبتتان على (حكّوم)، يرمقه بكرهٍ وبغض، زاد من سرعة يده ليزداد الاحتكاك، وفي منتصفي اهتزت النجفة فتراقصت الخيالات، و(حكّوم) ساجد، فاشتدت أعصاب (خباس)، قبض على الحبل بكل قوته، كحته بالمطواة، قطع بين قبضته، فتركه، لتسقط النجفة فوق رأس (حكّوم) الذي صرخ متألمًا، ومن ثم انقض (خباس) صوبه باندفاع، و(حكّوم) انطرح أرضًا على ظهره ودماغه ينضح بالدماء، يتفقد السقف بوهن، يغمض عينيه ويفتحهما، برك عليه (خباس) فأذعن، وطوق عنقه، شد على حلقه وعصره باستفحال، يصر على أسنانه، تتبدل ملامحه كشيطان، جريمة قتلٍ تقع في بيت الله، بين أخين، كـ(قابيل) و(هابيل)، لكن الاثنين هنا خطائان، حاول (حكّوم) أن يجاهد، لكن جرح رأسه أضعفه، ويزيد (خباس) من قسوته، يضغط على قصبته الهوائية، يحكم إغلاقها، وتنطفئ عينا (حكّوم)، يرفس بقدميه معافرًا، مد يده يحاول إبعاده، لكن قوته سلبت، فخار كالجاموس، فرج فمه بحثًا عن أكسجين، وأخذت أطرافه تهدأ رويدًا، وعيناه جحظتا وبرزتا حتى كادتا تُقتلعان، يتفقد ملامح (خباس) في أثناء قتله بإنكار، سال لعابه، واحتقن وجهه حتى تخضب بالأحمر القاني، أصدر صوتًا مكتومًا، ألجمه (خباس) من النطق والتنفس، وهمد تدريجيًا، حتى أظلمت الدنيا حوله، وأزهقت روحه، فأضحى جثة كحال ابن (آدم)، وما إن أيقن (خباس) بموت أخيه، حتى ارتمى بجانبه، ينهج ويلتقط أنفاسًا متهدجة، افترش جسده الأرض دقيقتين، ثم حاد برأسه نحو الجثة، وتحامل على قدميه فانتصب، تطلع إلى أخيه بامتعاض، ثم تلفظ: «مصلحة اليوم من نصيبك».

وكـ(قابيل) بعد قتل (هابيل)، فكر في مواراة سوءته، ولكن مخططه كان مدروسًا، إذ إنه عدل من وضعية الجثة، وجاهد ليجلسه القرفصاء، ثم أمال رأسه، ليبين كأنه مات ساجدًا، ثم وقف متطلعًا إليه، بطنه ينتفخ ويهبط بسرعةٍ هائلة، ثم قام بحل الحبل من النجفة، ولمه في يده، وهندم ملابسه، ومسح وجهه وعدل من هيئته، وخرج من بابي، ولكنه تركه مفتوحًا، وجثة (حكّوم أبو حماقة) الذي تجبر في عمره كله حتى كاد يقترب من (فرعون)، ظلت منحنيةً في بيت الله، جسدًا بلا روح، تمهيدًا لوجبةٍ هنيئةٍ لدودٍ سينهشه، وسعير تنتظره في الآخرة، هو وقاتله الذي لم يخف الله وتعدى على بيته فقتل نفسًا بغير حق.

***

تمددنا بجانب شجرة الجميز نترقب صلاة الفجر، نسبح ونذكر الله، ونقرأ بعض الآيات، فدهمت علينا أصوات مرتفعة من الزرائب، بالقرب من بيتنا، شرعت بحنجرة رجال يتلفظون كلامًا بصوتٍ عالٍ، ومن بعدهم عويل نساء متتالٍ، وأنيرت اللمبات في المنطقة كلها تباعًا، ثم غرقت في صراخ ونواح نزع قلبنا نزعًا، كأن الشمس أشرقت من مغربها، ولكن دجنة الليل تغطي المنطقة كلها، وصياح الديكة يحوم باقتراب فجرٍ وبزوغ يومٍ جديد، وانقبضت دواخلنا، فركضنا بهلع حتى وصلنا إلى شارع آل أبو حماقة، فلم نتمكن من المرور، المنطقة كلها رجالًا ونساءً، شبابًا وأطفالًا مجتمعون عند باب بيتنا، شققنا الناس بذعر، وصلنا إلى الزاوية التي شبعت حتى تقيأت، لا نرى، لا نبصر، الناس يغطون كل شيء، كأنه يوم الحشر، والأهوال ترتسم على وجوههم، وصرخات النساء لا تتوقف، وبعض الرجال ينتحب، والبعض الآخر يردد: «ربنا يكتب لنا ميتة كتلك». وآخرون: «عاش صالح ومات صالح». وعجائز: «مات وهو ساجد». وشياب: «لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رزقك بالجنة». ونساء تصرخ وتردد: «صغير يا حبيبي». بلغنا بؤرة الحديث والنظر، فسقطت أعيننا على (حكّوم)، مكومًا ساجدًا وحوله نجفة الجامع مكسرة، وروحه منتزعة من جسده، مات وهو يصلي، لا تصدق أعيننا آخر لحظةٍ عاش فيها، أتاب عليه الله فرزقه حسن الختام؟ وشعرنا بألمٍ في نفسنا، لا نفهم لم، وشككنا في قوانا العقلية، أهو صالح أم طالح، ودار رأسنا دون توقف، ومال جسدنا حتى كاد يهوي، وتقدم (خباس) والدمع يمطر من عينيه، عدل من وضعية (حكّوم) وأراح جسده على الأرض وهو يزعق: «أخي لم يمت، أخي يعيش الآن في الجنة، اذكروه بالرحمة، وتمنوا أن تموتوا مثله».

وسمعنا صرخات عجوز تتقطع وتصيح: «ابني». صوت أمنا (لبيبة)، بكاؤها فتح شلالات من البكاء والصراخ، وصنع الناس لها ممرًا لتصل إلى جثته، وتصلبنا نحن بجانب رأس (حكّوم) نتفقد ملامحه الفزعة، المخنوقة، ووجهه كشيطان، أسود، كأن الدماء احتبست فيه وتجلطت، وقعد بجانبه (خباس) ينتحب، ووصلت أمنا إليه فانكبت على ركبتيها، أمسكت بقدميه، وحاولت الناس أن تساعدها فأبت، زحفت حتى وصلت إلى وجهه، تملس عليه بأصابعها والناس تردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون». وصرخات تملأ المنطقة كأن من مات نبي، حتى إن آذاننا كادت تتمزق وتصم، والأرض مادت بنا، تدور كالرحى، شعرنا بأننا سننهار على وجهنا، وتلفتنا بفزع غير مصدقين ما تكشفه أعيننا، وغرقنا في ملكوتٍ آخر، دنيا أخرى، وحياة نائية، وبحر من الذنوب ارتكبه (حكّوم) في حياته، ولم نجد ما يقال إلا: «الله يرحمه».

وانفجر صراخ هستيري من أمنا، صراخ أوشك على تمزيق أحبالها الصوتية، لم نسمع مثله في حياتنا، فظهرها فصم، كأن من صعدت روحها، كأنها ماتت، أو أنها ترى ملك الموت، ترى عذابها وعذابه، ترى النهاية السوداء، ترى جهنم، سعيرًا تلتهمهما، ولكنها في الحقيقة لم تكن ترى إلا أكثر من أحبت في العالم كله وقد رحل عن الدنيا، ابنها الذي ألقى بنفسه في غور الحرب لينفذ طلبها، من قاسى وتعب وجاهد عمره كله ليرضيها، من اتبعها كشيطانة، من قرر بيع نفسه لإبليس إرضاءً لملذاتها وتنفيذًا لرغباتها.

لم تزّ سوى جثة دون روح، همد صوتها تباعًا، تهدجت أنفاسها، ومالت بجانبه، لحظات صمت مريرة وأصوات الناس تتداخل في اضطراب، ولا يفهم أو يوضح صوت، فقط صرخات النساء هي ما تحددها الأذن، وبقيت أمنا بجانب (حكّوم) صامتة دقائق، حتى مال عليها (خباس) وحركها قائلًا: «استهدي بالله». ولكنه

صعق، إذ إنها استجابت لحركته، وعيناها بدتا معلقتين في اللا شيء، وأنفاسها سكتت، ونبضاتها تصلبت، ودموعها تغرقها، حركها برفق فلم تستجِب، فهزها بعنفوان، لم تصدر أي صوت، ماتت (لبيبة)، ماتت أمنا حزنًا على شيطانها، ماتت وقاربت عائلة أبو حماقة على الفناء، ماتت وقلبنا يعتصر لأن آخر ما تحدثنا فيه، كان هلاكها.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

نواح المنطقة لم يخمد لساعات طويلة، ولا يعلم سر موت (حكّوم) إلا (خباس) وأنا، فقد مات على حصيرتي، مات بيدي أخيه، الذي حذق التمثيل فبدا مجروحًا مقهورًا على فقده له، ومرت الساعات حزينة، الناس تقعد على عتبتي يتكلمون عن مكان (حكّوم) في الجنة، وكيف أنه صالح، ويقصون عنه فيرددون: «كان رجلًا بحق». ثم يتبادلون الحديث ويختمون: «الكل كان يهاب نظراته، كبير وصغير يتخفى عند رؤيته». وتطوف الحكايات ثم يضيفون: «هو الذي بنى تلك الزاوية، وكان سببًا في أن تصلي الناس». ويرد بعضهم على بعض: «سبحان الله، ربنا يجازيه على ما فعله في حياته فأماته طاهرًا ساجدًا في بيته». ويروون مواقف وأساطير عنه ويتلفظون: «ذبح كثيرًا من العجول، وكان سببًا في ثراء أناس كثيرين». فيتبع الكلام آخر: «أتذكرون حين وقف أمام المحلمي أفندي ودافع عنا وعن أموالنا؟» فيزيد غيره: «ولا ننسى أنه كان يحمينا من الحكومة وبلاويها». وسافرت الروايات والأخبار في المنطقة كلها كالريح.

وأناخ (صابر) على الأرض سانذًا جسده إلى جدار بيت (الوحش) غائبًا، كأنه يعيد حساباته وما فعله في حياته، ولو يعلم الحقيقة لاستراحت نفسه، سيحزن لموت أخيه، ولكنه مؤمن فإن أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون.

وغسل (خباس) جثة (حكّوم)، قتل القتيل وبان بوجه الملاك، و(جواهر) كانت تعرف كيفية الغسل فغسلت جثة (لبيبة)، حتى أذن ميعاد صلاة الظهر، فأم (خباس) بالناس يصلي ويبكي في أثناء قراءته للقرآن غير السليمة، ومن بعده صلى صلاة الجنازة، وكان من ضمن المصلين بعضٌ من رجال الشرطة، اشتملوا (إسماعيل الخياط) الذي خالل (حكّوم) في حياته، انتهوا من الصلاة فحملوا الجثتين على أكتافهم وسكان الزرائب كلهم من الكبير للصغير ساروا خلف النعشين، حتى إن سكان المنطقة الزراعية والمناطق المحيطة وبعض الوافدين من بلدان وقرى بعيدة حضروا بعد علمهم بموت (حكّوم)، كانوا يتاجرون معه في الحرام، أو رجالًا يعملون لديه، وسارت الجنازة والناس كالنمل يغطون الشوارع، حتى وصلوا إلى المقابر، ودفنوا الجثتين، وعاد الكل، وشرعوا في تجهيز سرادقات العزاء.

ولو يتقي الناس نهاية كتلك، لو يعلمون فيكونوا حريصين في دنياهم، أن يعملوا عملًا صالحًا، أن يهيؤوا أنفسهم للآخرة، يخشوا النار، لما امتلأت جهنم بالكافرين، ولكنهم يدفنون موتاهم ويعودون فيرتكبون المعاصي عيانًا دون خشيةً من الله الذي يراهم.

وانتهت قصة (حكّوم) و(لبيبة) في الأرض، وظن الناس بأنهم صالحون، يتحاكون عن ميتتهم، ولو يعلمون حقيقة الأمور، لاختلفت المعايير، ولكن أكثرهم يجهلون.

***

جلسنا في المقابر نقرأ قرآنًا لـ(حكّوم) وأمنا بعد رحيل الناس، تفيض أعيننا بالدمع ولساننا بالدعاء، حتى ستر الليل الدنيا، فانتقلنا إلى زوجتنا وأبينا، ولم نتركهما حتى اقتربت الساعة من صلاة العشاء، فرحلنا ودخلنا زاوية الصلاة لنصلي، وكانت الزرائب كلها تصلي، فرشوا حصائر في الشارع واصطفوا عليها، ولما انتهوا من الصلاة انبسطوا على الحصائر كالتماثيل، وكان (خباس) قد أحضر مقرئًا من الأزهر ليقرأ قرآنًا في العزاء، وتلك الحسنة الوحيدة التي صنعها في حياته كلها، إذ إننا كنا نشتاق لأن نسمع قرآنًا بصوتٍ عذب ولسان فصيح عليم، وظل الرجل ثلاثة أيام، حتى إن (خباس) حلف بأن يبيت في بيته، وذبح (خباس) عددًا لا نعلمه من الجواميس وصنع ولائم، وكانت الناس تأكل بنهم، ويصطفون في العزاء قاعدين نهارًا وليلًا، والسرادقات غلفت شارع آل أبو حماقة كله، وجزءًا من شوارع أخرى، رجال (حكّوم) من الشباب كانوا يصنعون الشاي والقهوة ويوزعونها على الناس مع الماء، والأكل كانت تطهوه (جواهر) وساعدتها (عزة)، تلك التي لم تكف عن البكاء وكلما رأيناها أبصرنا حزن العالم كله في عينيها، ونحن نعلم السبب، ولكننا نبغضه.

وكانت الناس تأكل في شقة أمنا ثلاث مرات في اليوم، لمدة ثلاثة أيام، منطقة الزرائب كلها ذاقت اللحم على روح (حكّوم)، إلا نحن، لم نستطعم زقومهم، وشهدنا عزاءً لم نرَ مثله في حياتنا كلها، ومضى الحداد مع انقطاع الأعمال في منطقة الزرائب، حلالٌ في القمامة وحرامٌ في الممارسات الليلية، وفي اليوم الرابع تسلم (خباس) إرث (حكّوم) كله وابتلعه وحده، رجاله، حصانه، خاتمه، أمواله، حياته، وأضحى رجل الزرائب الأول، الناس تراه فتهاب نظراته، والرجال يذعنون فينفذوا أوامره، وانتشرت الموبقات كما حال منطقتنا، وأظلمت قلوب الناس واسودت، ولم تتوقف الدنيا، وتفشت المحرمات، فقط خمارة (خباس) هي التي غيرت نشاطها مؤقتًا كما أخبر الناس، فكانت تغلق في الليل، وفي النهار تفتح كمقهى يبيع الشاي والقهوة والشيشة فقط، واصطف الناس عليها يرددون قصصًا عن صلاح أخينا الراحل، ويقعد (خباس) على بابها في المكان الذي كان يحبه (حكّوم)، يشرب من شيشته، يتسربل بأزهى الملابس، قفطان أسود لامع، لاسة بيضاء، وجلباب رمادي، وخاتم أبو حماقة اللامع، ولم نرضَ لأفعال الناس، ولم نستطع تغييرهم، ولم تعد تتحمل نفسنا، ودعونا أن تعمى أبصارنا حتى لا نبصر الهلاك بها.

وعاد (الوحش) من العمرة كأن اليوم خميسًا، ولج المنطقة بعد غياب الشمس منير الوجه مستبشرًا، فرأيناه وافدًا، حتى وصل إلى مقهى (خباس)، وأخونا كان غائبًا فقد خرج من المنطقة منذ ساعات ولم يعد، وألقى السلام على (البغل) و(العربجي) اللذين كانا يجلسان أمام المقهى، أشار إلى (حميد) الذي جلب له كرسيًا وشيشة وشايًا، وكنا نقعد بجانب شجرة الجميز فسمعناه يقول: «أين المعلم حكّوم، أهو في مصلحة؟»

رد (البغل): «المعلم حكّوم تعيش أنت». صعق (الوحش) واختلج الكرسي أسفله، ثم ضرب أخماسًا في أسداسٍ وهو يقول: «المعلم حكّوم مات، لا حول ولا قوة إلا بالله». ثم صاح بصوته يتساءل: «وكيف حدث هذا؟» فأجاب (العربجي): «مات ساجدًا، وهو يصلي». فتلفظ (الوحش): «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ثم مال عليهما واستخبر: «ومن سيكون المعلم بعده؟» ضحك (البغل) ونطق مستهزءًا: «خباس». فنطق (الوحش) بامتعاض: «هذا الخرع؟» ضرب (العربجي) قدم كرسيه، فلف (الوحش) ليبصر (خباس) قادمًا على بعد أمتار، فانتصب فاتحًا ذراعيه يحييه: «مرحب بسيد المعلمين». قرب منه (خباس) فضمه (الوحش) إلى أحضانه ونبس: «البقية في حياتك». جلب (حميد) كرسيًا لـ(خباس) فجلس وهو يقول: «كلنا سنموت يا وحش» رفع الشيشة وسلب قليلًا من الأنفاس وقال: «كيف كانت رحلتك؟» باح (الوحش): «الحمد لله، كلها خير». عبأ (خباس) رئتيه بالدخان، ثم أشار إليه بخرطوم الشيشة قائلًا:«اذهب إلى بيتك واسترح، غدًا عندنا أعمال كثيرة، أريد أن أقابل كل التجار الذين كان يعمل معهم حكّوم».

بش (الوحش) وقال مبتهجًا: «جلبت لك معي ماء زمزم، كنت سأعطيها لك ولكنني رأيت أنه لا يصح أن أوزع الهدايا هنا أمام الناس ولدينا ميت، خذها مني بكرة قبل صلاة الجمعة، لتكون خطبتك برائحة مكان النبي صلى الله عليه وسلم». اخشوشنت نبرات (خباس): «أسمعت ما قلته يا وحش؟» نطق بكياسة: «سمعت، ولكن بالسرعة هذه يا معلم؟ ألا ترى بأن ننتظر قليلًا احترامًا لموت المعلم حكّوم؟» خبطه على كتفه بالخرطوم وتفلسف: «الحياة لا تقف على ميت، ثم إن العمل عبادة والرجل مات وهو يتعبد، وترك كثيرًا من العمل، وسره كان معك». سكت برهة، واستطرد: «وحتى لا يطمع الطامعون». قرقرت الشيشة في يده وأضاف يتفحص (البغل) و(العربجي): «أتريان أن كلامي غير صحيح؟» تلاعب لساناهما: «كل الصحيح في حديثك يا معلم». حاد بناظريه إلى (الوحش) ونطق: «لم أسمع ردك يا وحش». افتر وجهه عن ضحكة ناصعة متصنعة، واستقام قائلًا: «كلنا خدامك وخدام المعلم حكّوم». ثم ربت على كتفه وقال: «مبارك عليك الرئاسة يا معلم، والبقية في حياتك في المعلم حكّوم، كان رجلًا بحق».

ثم خطا بقدميه منصرفًا، فامتص (خباس) الشيشة مشبكًا قدميه إحداهما في الأخرى، يعاين نظرات (العربجي) و(البغل) وهما يصطنعان الراحة ويمتهنان التمثيل، وبدا عليه أنه لاحظ وأدرك هذا، فهندم ملابسه وغادر بأبهة.

***

بعد مصرع (حكّوم)، وفي أثناء تغسيل جثته، اقتلعني (خباس) من بنصره، وارتداني في السبابة اليمنى، فارتحلت إلى أبو حماقة جديد، للمرة الرابعة، ولكنه مختلف، لدن، ضعيف، يتلفت حوله باحتراس، ويهاب ظلاله، يمتهن صنعة التمثيل، ذو لسان لاذع ثعلبي، يتألق بسمو، ماكر، يتلون كحرباء، ويتشكل كصلصال، واستطاع أن يتقلد الرئاسة بعد موت (حكّوم)، فمارس دهاءه ودسائسه.

اليوم السادس بعد هلاك (حكّوم)، يوم جمعة، صحا (خباس) من نومه وتهندم ببريقٍ يخطف الأنظار، ارتدى أفضل ما عنده، زخرف شعيرات ذقنه، ورش مسكًا على جسده، وارتدى لاسة منمقة، وجلبابًا أبيض، ثم لف على بطنه شالًا ذهبيًا، وغلف جسده بجبةٍ بنية، وقام بتلميعي، ثم أمسك عصا سمراء غليظة تتخضب بدوائر على طولها ذهبية، رأسها مدبب، ومشى يدب بها في الأرض بخيلاء، رمق (عزة) التي نحلها الحزن بعينين مشمئزتين، تفترش السرير وجفناها متهدلان، جلس بجانبها، لمس شعرها، ثم قال: «لم لم تساعديني في ارتداء ملابسي؟».

رمقته بوجهٍ كاسف وتلفظت بهدوء: «سامحني، أشعر بالتعب». ربت على خدها بحنو، مال وقبلها، ثم صلب طوله وباح: «من الصبح وأنا أحصي عدد خيانتي لكِ منذ تزوجنا». لف جسده متحركًا صوب المرآة: «لم أستطِع».

لم تنجذب من حديثه، ظلت ساهمة بالسقف، خطا بتباهٍ وأردف: «كنت مخلصة في أحضاني، تعطينني كل ما تملكين، وكنت أخونك». هز العصا في يده يتطلع إليها: «لم أشك لحظةً بأنكِ تحبينني، ولم أكف عن خيانتك». رنت إليه بعينين واهنتين وبانت عليها اللا مبالاة، فاقتعد ملتصقًا بها، وافتر عن ابتسامةٍ مكذوبة، وفاه: «احزني كما تريدين، هذا حقك». ارتعد جسدها من صدى كلماته، فاستقام متشبثًا في العصا وهو يقول: «لن أسألك عن عدد المرات». شدت جسدها وقعدت، فجمد في وجهتها، خياله يتعملق ويهتز بسبب اللمبة خلفه، رفع العصا وأنامها بين كفيه، كشف عن أسنانه بخبث ونطق: «لا بأس، أنا أسامحك».

ثم مال بجسده، اقترب حتى التصق وجهه بعينيها، وهمس: «سأخبرك فقط بشيءٍ أخير». كشف أسنانه بابتسامةٍ شيطانية ونطق: «أنتِ طالق».

ولف جسده راحلًا، السعادة جلية على وجهه، يحتفي بانتصاره الأعظم، تسريحه لمن خانته، ومن مات فترك له ملكه، كأنه ليس بأخ، بل عدو أبدي، أكل الدرج، فقابله (الوحش) في الفناء، كشفه بعينين مبتهجتين، وألمح إلى ملابسه باطراء: «كأنك شيخ الأزهر والله». ثم مد يده بزجاجة ماء ناطقًا: «اشتقت لخطبتك يا معلم». ضحك (خباس) بخيلاء وأعرض: «لا أشعر بأنني عطش». فأصر (الوحش) وحكى: «ماء من عند الرسول قبل الخطبة لتكتمل البركة والأبهة». لم (خباس) الجبة بتباهٍ، ثم تلقف الزجاجة وارتشف منها حسوة وأعادها إلى (الوحش) قائلًا: «مدد يا رسول الله». ربت على كتفه وأضاف: «احفظها معك حتى تنتهي الخطبة».

انبلج (خباس) من البيت رافعًا رأسه بعنجهية، فتطلع إليه الرجال رافعين أياديهم بالتحية، ومنهم من يجري يصافحه يأمل تقربه والعمل لديه، وتصلب (صابر) بجانب باب الزاوية يتحاشاه، فكشف (خباس) عن مفتاحها، فك متاريس الباب، ولج إليها والناس خلفه ومعهم (صابر) الذي انزوى في ركنٍ بعيد، وتحرك (خباس) بتغطرس كملكٍ من ملوك الأرض، مثل أمام المنبر، رفع الأذان بصوتٍ أجش، ثم صلى ركعتين، وقعد مربعًا قدميه سانِدًا إلى المحراب، وامتلأت الزاوية بالناس على غير العادة، كأنهم هابوا مكانته الجديدة، أراح العصا بجانب فخذه، وأخرج مسبحته من جيبه، قلبها على أصابعه، ثم شرع في الحديث: «إن الحمد لله والشكر لله والله أكبر، وكل شيء عليه قدير، يعطي الحكم لمن يشاء، عرفت بأن كان هناك أربعة ملوك حكموا الأرض، فرعون، والنمرود، والإسكندر الأكبر، والرابع».

تلعثم فسكت، تأمل، والناس تأكله بأعينهم، فنطق: «نسيت اسمه، ولكنه كان رجلًا صالحًا، أو كان نبيًا،

سأتذكر وأخبركم، المهم، انظروا فعل الله، أعطى الملك لثلاثة فاسدين، والرابع كان صالحًا، فصنع وبنى وكان طيبًا، ربنا يجعلني منهم».

تنفس الصعداء، ثم روى: «هذا الرجل كان يعيش بعد موت الرسول، وكان يحكم الدنيا، وظهر له في يوم اثنان من الملائكة، فحكم بينهما بالعدل، كان يحكم بين الناس وبين الملائكة، ولم يخطئ يومًا».

يتطلع (صابر) إليه بنفور، وسد صمامات أذنيه متحاشيًا حديثه الخاطئ القريب من الكفر، والناس تستمع بأناة: «ماذا تريد الناس؟ أن يكونوا كذلك الحاكم العادل، الذي كان متواضعًا رغم مكانته، ويرعى كل الكائنات، ليس بشرًا فقط، أبدًا والله، كانت الذئاب في عصره لا تأكل الخراف وترعاها، والناس كانت تراه يرتدي ملابس مقطعة، تشوفه فلا تظن بأنه ملك، ولكنه كان متواضعًا».

أبلم، وضيق عينيه، ثم مضى في حديثه: «أم تريدون أن تكونوا كالنبي المغضوب عليه قارون، الذي انشقت الأرض وأخرجت نارًا وأكلته هو وقومه، لم يكن ملكًا، بل كانت أمواله وجاهه أقوى من كل الملوك، وهذا رقم خمسة من ضمن المجموعة.»

هدأ وتبسم، هز جسده يمنةً ويسرة وهو يردد: «أسأل الله العظيم، أن يتقبل منا الدعاء، ادعوا وأنتم موقنون بالإجابة».

رفع الناس أياديهم يدعون في سرهم، وهو معهم، حتى شق الصمت وقال: «إن الحمد لله وكفاية».

حرك جسده ببطء، يقلب المسبحة على حمم أصابعه، ثم سعل بغتة، ثوان طويلة، أخرج بلغمًا فبصقه بجانبه على حصيرة المسجد عيانًا، هرع (الوحش) إليه وأعطاه زجاجة الماء، ارتشف منها دفقة، ثم استطرد ولكن بصوتٍ مبحوح: «نرجع لموضوع الحكماء الخمسة، هناك ناس تحكم بسلطتها وناس تحكم بأموالها كما أخبرتكم، عليك يا أخي المسلم أن تشوف نفسك مكانهم، وتراوضها، تراوض نفسك، حتى لا يأتي يوم تكون مثل الناس التي تقول أنا لو معي سأعمل خيرًا وأكون صالحًا، وأول ما ربنا يعطيه خمسة جنيهات، يذهب ليشتري لحمًا وفاكهة ويفكر كيف سيكمل أيامه القادمة بها، ولا يخرج نفحةً منها لله، تخيل لو أعطاه الله الملك، سيصرف كل هذا على نزواته».

صمت غصبًا، كأن حديثه قطع، وتنفس ببطء، ثم جاهد ليتحدث: «لهذا يضرب الله لك أمثله كثيرة لناس تستخدم الحكم لنزواتهم الشخصية».

سكت ثوان، يسترد جهده، ارتخى جفناه، ثم تحرك ناحيتهم كأنه يشير إلى ذاته، واسترسل: «ويختار أناسًا صغيرة، يعني عددها قليل، يكونون مثالًا طيبًا، والحمد لله وكفى، نرفع أيدينا وندعو لربنا سبحانه وتعالى، وإن شاء الله تكون هذه ساعة استجابة».

بكم، أغمض عينيه وفتحهما، ضغط على صدغيه، ودعا بصوتٍ باهت: «اللهم اجعلنا من الحكماء الطيبين، اللهم اجعلنا ممن يستخدمون ملكك لصالح الناس لا لصالح أنفسهم، اللهم اجعلنا ضاحكين، اللهم اجعلنا أغنياء، اللهم ارضَ، اللهم أحبنا، الـ .. هم طبـ .. طب عليـ .. نا، الـ .. هم صـ....».

كأن لسانه قد انعقد انعقد لسانه، سقطت المسبحة من يده، تأوه بصوتٍ خافت، فانتبه الناس وجحظت أعينهم، أمسك بطنه بيمناه، ضغط عليها، مط يسراه يطلب العون، مال جسده يسارًا، فتح فمه ليتكلم، فسقط.

هرول الناس كهجرات الجواميس وترأسهم (الوحش)، تدافعوا حتى وصلوا إليه، جحظت عيناه، سال لعابه، شخص ببصره، تحركت ساقاه ببطء، فعدله (الوحش) والكل مذعور، حاول إفاقته، لكنه غاب، وهمد تمامًا، انصرف عن الدنيا، مات، في غمضة عين، ثوانٍ، وأضحى جثة.

قامت ثورة.

هيجان.

اشتبكت الأصوات واختلطت.

تخبطت الأجساد في فوضى.

ضربت الكفوف بعضها بعضًا.

وخرج الرجال من الزاوية يصيحون: «المعلم خباس مات».

الستات صرخن فملأن المنطقة عويلًا.

فزعق (الوحش): «لا إله إلا الله، مات وهو على المنبر». ثم مشى وسط الناس وصاح: «كان يقول كلام ربنا». ونظر إليه بيأس: «الله يرحمك يا معلم خباس». فردد البعض: «إنا لله وإنا إليه راجعون، واحد مات وهو ساجد، والثاني مات وهو يخطب بالناس في صلاة الجمعة» فتحزب آخرون: «هؤلاء الناس فيهم شيءٌ لله».

فانتصب (الوحش) بجانب جثة (خباس) وصرخ فيهم: «هذه الناس صالحة، سيرتهم يجب أن تعيش، حكايتهم تنتقل بينكم، عليكم أن تأخذوهم قدوة». ثم نظر إلى (صابر) الذي ظل مكانه يردد هامسًا: «إنا لله وإنا إليه راجعون، أنتم السابقون ونحن اللاحقون». فجلجل (الوحش): «البقية في حياتك يا شيخ صابر، البركة فيك».

لم يعقب، انحنت عظامه، وسار خارجًا من الزاوية وهو يردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله».

يتطلع إلى الناس بهلع، يتفقد وجوههم، والخوف يأكل محياه، واليأس يغتصب آماله، وظل يردد كلماته، حتى اختفى عن الأنظار، وفي وسط التحركات الشعواء، مال (الوحش) بجسده وخلعني من إصبع (خباس)، ولبسني في إصبعه الأوسط، وهو يرمق الجثة بعينين ساخرتين، وكلمات الناس تدق ويكحت بعضها بعضًا، وصراخ الستات لا يسكت، ومن ثم تناقلت الحكايات والقصص، عن الخير الذي كان يقوم به (خباس)، وعن أنه هو وأخوه (حكّوم) أفضل من عاشوا في منطقة الزرائب، وسيربون أبنائهم على خطا حياتهما، وفي وسط كل الصرخات، لم نسمع صرخةً واحدة خرجت من بيت أبو حماقة، كأن (عزة) قررت ألا تبكي على طليقها، وكرست بكاءها لحبيبها الراحل.

https://t.me/riwayat2025 روايات وكتب عربية وعالمية

طوى الزمن الأيام على وصلة الدجل التي تقام في المنطة لرجليها الطالحين العاصيين المذنبين المجرمين البلطجيين اللذين نشرا ظلمًا وعهرًا وفسادًا وفجورًا وتلاعبا بالدين لحساب نفسيهما، نعيش وحدنا، ننام بتأرق بعد ما نشب، واحدودب ظهرنا من الحسرة، نناشد الله أن ينجدنا، من قوم ظالمين لا يعرفون سر الآخرة، فقد صنع سكان المنطقة السفهاء حلقات وتجمعات يقصون فيها قصصًا خرفة تعظيمًا لأخوينا (حكوم) و(خباس) وأمنا (لبيبة) الصالحة، شككونا في الأولياء وما بهم من تقديس، والأضرحة التي زرناها، فنحن أعلم بما بأهلنا من فسق، والناس يعرفون ولكن على أعينهم غشاوة، صمٌ بكمٌ عميٌ لا يعقلون.

نصلي على سطح بيتنا، وعاهدنا أنفسنا ألا ننكشف لهؤلاء العصاة، ندعو عليهم أن ينزل الله عقابه فتسود سماؤهم وتتعفن شمسهم، ونسمع صوت (الوحش) يؤمهم للصلاة، ولا يحفظ إلا آيتين من سورة الفاتحة، ونصبوه عالم الدين الجديد، وكبير المنطقة وسيدها، فسيطر على كل أعمال (حكوم)، وساعده (البغل) و(العربجي)، تحكموا في شباب المنطقة وتلاعبوا بعقولهم، وغرسوا فيهم السم حتى تجرعوه عن طيب خاطر، وتأذت نفسنا عما يحكى ويقص عن أخوينا الطالحين، ولم نقدر على التأقلم والصبر أكثر مما صبرنا، خلقنا لنعاني، ولكن الكيل طفح مما زرعوا بنا، ولا نجد طريقة لإصلاح ما فسد.

وسرقت (جواهر) (سميرة) ابنة (شربات) واغتربت، ومن بعدها (عزة) أخذت الولدين واختفت، ولم يسأل الناس عنهم، ولم نشغل بالنا بهم، وظلت المنطقة في الفجور والدجل والخرافات، وتغطس يومًا بعد آخر.

اليوم الجمعة الأولى بعد موت (خباس)، انطرحنا على خيشةٍ برأس بناية أمنا اخترناها حتى لا نسمع حكاوي الناس في الشارع، ولو صعدنا السماء ستصل إلينا، ولكننا نسعى لسد صمامات آذاننا، توسدنا أرضًا صلبة بنيت بأموال حرام، رغم الأثاث الوثير المفترش به البيت كملوك مصر، وخشيت أنفسنا ذوق الراحة فنعتاد السحت، سمعنا جلبة وصخبًا عاليًا في المنطقة كلها، فانفرجت جفوننا وأحسسنا كأن الشيطان يتربع فوق صدرنا، يتندر علينا ويضحك، ينتصر بفخرٍ جلل، وانسلخنا من النوم مفزوعين، ولا ننام بسكينة، فالسهد سطا علينا، وصوت الناس في الشارع يزعجنا، فتوقفنا على أقدامنا مشدوهين بجفون متهدلة، وهرعنا صوب النافذة، نتفقد الأمر، دائرة صنعوها قبل صلاة الجمعة، يتحاكون عن أخوينا الصالحين، ويذكرون مواقفهما الحسنة والبطولية وطريقة موتهما، لم تقدر نفسنا على التحمل، كيف يرون فيهما الصلاح وكل الكفر في نفسيهما، المهابيل لا يفرقون بين الجائز والمحجور، الغريب حقًا أنهم يحكون قصصًا ممتلئة بالمعاصي، يحسبونها خيرًا، والله لا يفقهون شيئًا، وما رأينا أناسًا بهذا الجهل في عمرنا، لا يسمعون إلا لصوت الشيطان. فضغطنا على آذاننا نغلقهما، ومن ثم بدأت خطبة الجمعة، وسمعنا صوت (الوحش) يقول حديثًا فارغًا ركيكًا مفعمًا بالمعاصي.

لم نطِق صوته، فالتهمنا الدرج ونزلنا، خرجنا من باب البيت، تفقدنا زاوية الصلاة التي شحنت بالناس حتى تقيأت البقية خارجًا، حدجنا بـ(الوحش) الذي يعبث بدين الله، الخرافات التي تعملقت وهزيمتها تحتاج إلى رسول أو نبي، فرمقنا الناس بتأسف، إذ إن السفاهة قبضت على عقولهم وطوقتها، وصفاتهم البله والغباء والتهتر، دقيقتان كانتا كفيلتين بغليان دواخلنا، عشنا حياتنا كلها دون إحداث أي جلبة، هادئين طيبين لا نغير أمرًا، وعندما حاولنا في خطبةٍ فائتة تندروا علينا، ونتقبل الإهانة من الكل بوجهٍ سمح، علينا أن نغير ذلك المنكر الآن حتى لو فيه موتنا، ولتحترق الدنيا بكل ما فيها من جهل، ناسها وشياطينها ومعاصيها، تبدلت ملامحنا للسخط والكره، وفارت الدماء وغلت في مخنا، فأخرجنا مفتاحًا للزاوية وجدناه في شقة (حكوم) واحتفظنا به، وبعزم قوتنا، سحبنا الباب فأغلقناه، وربطنا متارسيه فسمعنا أصوات من بالداخل يصيحون ويضربون الباب حتى كادوا يحطمونه، ولففنا جسدنا نحو الذين يجلسون في الخارج والذهول ارتسم على محياهم، فرفعنا عقيرتنا بالإقامة، التموا حولنا كالوحوش، ولما انتهينا صدموا جسدنا فاهتز ضعفًا، ولكننا أزمعنا على أن نؤم بهم صلاتهم، ولففنا ناحية القبلة، وقلنا بصوتٍ عالٍ: «استقيموا واستووا». وصحنا: «الله

أكبر».

وشرعنا في الصلاة في أثناء تربصهم لنا كالذئاب، يشاهدوننا بامتعاض، ولا يصلون، ينتظرون انتهاءنا، ولم يلمسونا لأننا نصلي، فأغمضنا أعيننا، وتدافعوا محاولين خلع باب بيت الله، ليخرجوا من بالداخل، فكسر الباب، خرج الناس والتفوا حولنا كالوحوش، ولما انتهينا من صلاتنا، برزت عينا (الوحش) بسخطٍ وكاد يتحدث فصلبنا طولنا وزعقنا: «أنت لست مؤهلًا لتخطب في الناس».

كاد ينقض علينا وبان عليه التماسك، فقال بهدوءٍ مصطنع: «كنت أعيش مع المعلمين خباس وحكّوم، وسمعت خطبًا كثيرة صالحة، وأرى بأنني أقدر على الخطابة». فخرجت الكلمات بصوتٍ يصل إلى المنطقة كلها: «ومن الذي أخبركم بأن حكّوم وخباس كانا صالحين؟»

همهمات صدرت من الناس حولنا، وسمعناهم يرددون: «جن عقله». وتداخلت الأصوات: «هو عبيط منذ زمن». وهمسات: «لبسه الجن، لقد كان يبيت على شجرة الجميز وحده». وأصوات أخرى: «رأيته في المقابر حتى الفجر». وآخرين: «كلنا نعرف بأنه مجنون». ومن ثم اقترب (الوحش) وأمسك منكبنا باستحفال، وجذبنا وهو يقول: «استهدَ بالله واطلع البيت».

جذبنا جسدنا مبتعدين عنه وصرخنا في وجوه الناس أجمعين ومنخرانا يتحركان من الحنق: «لا تلمسوني، لقد بدأت أشك في طهارتكم، الناس الذين يجهلون عقول غيرهم، طهارتهم ليست في قليل من الماء يضعونه على جسدهم، طهارتهم من داخلهم، وداخلكم نجس، تطمعون فقط في لقب الشيخ وأن تراكم الناس صالحين».

اهتزت الأرض بسبب تدافعهم وهجومهم علينا، لكمات حلقت واصطدمت بوجهنا، فمادت الأرض وسقطنا، ركلات في البطن والجنب، فأصابت الكلى والطحال والمعدة، تألمنا من أعماقنا طابقين فمنا، وابتسمنا، ينكل بنا، ونضحك، الرضوض والخمش غطونا من رأسنا حتى أخمص أقدامنا، وتشكلوا كالذئاب ينوون قتلنا، بششنا وسلطنا ناظرينا إلى السماء، نتفقد الله باغتباط، الشمس تداعبنا، لم نشعر بألم، رغم أن كل آلام العالم فينا. انبثقت المطاوي من أغمادها، وشرحوا أجزاء في جسدنا، فعلمنا بأن ملك الموت كلف بانتزاعي اليوم.

انتهوا منا، وطوقوا أقدامنا، وسحبانا على الأرض، فتخضبت دماغنا بالوسخ، فئران ميتة، مجاري صرف صحي، خراء، بول، وسخام أسود، وزجاج مكسر شرخ جلدنا، وظلت الابتسامة متعلقة بنا، وانتصب الكل أمام زريبة (أبو جرجس) مربي الخنازير، جلجل (الوحش) باسمه فحضر، طلب منه أن يفتح الزريبة، فنفذ، رفعونا من الأرض بيسر، وألقوا بنا في عرضها، فسقطنا في خراء ووحل الخنازير، وأغلقوا علينا الزريبة.

بصصنا إلى السماء، ولم نشعر بأي شيء حولنا، دماؤنا تهرب، وجفوننا تتهدل، ونعلم أن الخنازير تأكل النافقة، والمكان مترع بهم، ولو ظللنا على حالنا وتم تجويعهم سيلتهمون لحمنا، أو نموت نزيفًا، تحركوا صوبنا، وحزقوا بنا، وقفوا يشمشمون جسدنا بمنخارهم الملطخ بمخاطهم، يصدرون خنخنة تقشعر لها الأبدان، واستكان جسدنا في فضلاتهم، وهمدت أعصابنا، وسلطنا أعيننا لربنا، نطلب منه السماح والمغفرة، واللقاء في سمائه، وأحسسنا بلسان خنزيرٍ منهم يلمس أصابع يدنا الشمال، فأغمضنا أعيننا في سكينة وهدوء، ثم بحلقنا في وجهه، فصرخ بخنخنة وتراجع إلى الخلف، فعلمنا بأن الله يحمينا.

التقطنا أنفاسًا حامية، ثم اعتدلنا، وتراجعنا إلى الخلف، خلعنا جلبابنا وجلسنا بالكلسون، مزقناها، ولففنا بها الجراح التي تغلفنا لنوقف النزيف، وانتظرنا، يومًا، والثاني، وأصابنا الوهن، والإعياء، والجوع، فربطنا بطننا.

تقلبت الأفكار في عقلنا، أننا في الوحل مع الخنازير، في الرجس والنجس، كنا نصلي ولا نعرف أسيقبل الله أم لا، لم نتوضأ ولم نجد ما يغسلنا، والناس في الخارج شياطين، إن بقينا وسطهم سنكون مثلهم، سنوسخ، ونلطخ بالقذارة أبد الدهر، حتى موتنا، وانتحبنا، أسنموت في الدنس وتلتهمنا الخنازير!

كأن الله معنا، كلما اقترب خنزير ونظرنا في عينيه يتراجع ويخاف، وتم تجويعهم أربعة أيام كاملة، ننزوي في ركنٍ والوحل يغطينا، حتى إن وجهنا لا تبين قسماته، نصلي في النجاسة طالبين من الله أن يتقبل، حتى

سمعنا صوت (الوحش) يصيح: «افتح الزريبة يا أبو جرجس».

فوقر آذاننا أطيط الباب، هاجت الخنازير وركضت في كل مكان، كادوا ينقضون على الواقفين، أكثر سكان الزرائب يصطفون، ويترأسهم (الوحش)، ظنوا بأن الموت خطفنا، ولكننا وقفنا، فقال (الوحش) متعجبًا: «لا أصدق أنك ما زلت على قيد الحياة».

مشينا صوبه قابضين شفتينا دون حديث، فأردف: «أتأدبت؟». لم نتوقف عن السير، دفعنا الباب برأس باسق، يرمقنا بامتعاض، خرجنا، الناس يلتمون حول المكان كالجراد، يتفقدوننا بترقب، مشينا وسطهم، انشقوا، وسيرنا عكس بيتنا، نرحل، نخرج، نهرب من كل هذا القرف، لم نلتفت خلفنا، نبغي مكانًا طيبًا، أناسًا أنقياء، هدوءًا، راحة، سكينة، صلاة، آملين أن نكون في الجنة بعد الممات، وأبصرنا رجال (الوحش) يرمقوننا مبتسمين على حالنا، فبادلناهم الابتسام، إنهم لا يفقهون ولا يعلمون، ولو ظلوا على ذنوبهم لن يجدوا في الآخرة راحة، ولكن كل الراحة في قلبنا.

مشينا، خرجنا من الشارع، ثم مررنا بجانب شجرة الجميز، بشِشنا، ومن بعدها أكملنا طريقنا، فأبصرنا المقابر، ضحكنا، وفكرنا في أن المدفونة فيها أنقى من في العالم، ولكننا لن نستطيع زيارتها مرةً أخرى، فلن نعود ولو ماتت الدنيا كلها بالخارج وبقي الأحياء فقط في الزرائب، سنعيش مع الأموات ولن نقرب العاصين.

استمررنا في السير، الوحل ينقط منا، والدماء تخضبنا، والناس تتفقدنا بنفور، رغم الوسخ الذي يغطي أجسادهم، لم نقف، حتى رحلنا من منطقة الزرائب، ودبنا بقدمينا الحافيتين، لم نعرف كم من الوقت مر، مشينا أميالًا، نسينا الدنيا، تاهت الزرائب خلفنا، وصلنا إلى ميدانٍ واسع، الناس يشاهدوننا بتأفف، يتساءلون من أي مكانٍ بعثنا، بهيئتنا المقززة والرعب مرتسم على محياهم، كأننا وفدنا من الجحيم وهم في الجنة، يتهامسون ويبتعدون عنا، ونسير نحن في هدوء ودعة، آملين أن تكون نهايتنا في مكانٍ نقي، أفضل، وأطهر.

تمت.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية

الكاتب في سطور

محمد صاوي

- مؤلف روائي وسيناريست، من مواليد القاهرة لعام 1993.

- خريج كلية الحقوق جامعة عين شمس.

أعماله الورقية ومسرحياته والجوائز التي حصل عليها:

- رواية معزوفة الإله «سجين البرزخ»: ترشحت للقائمة الطويلة لجائزة كتارا للرواية العربية المنشورة عام 2023.

- رواية الابن الأكبر للسيد روجر: حاصلة على المركز الأول لأفضل رواية وغلاف على منصة iRead Awards بتصويت الجمهور لعام 2021.

- رواية أفراح على قبور الصالحين.

- ثلاثية الأرقم (3 أجزاء): تحول الجزء الأول منها إلى عرض مسرحي.

- رواية الرؤوس المعلقة: تحولت إلى عرضين مسرحيين.

- رواية بهطيش «العقد السفلي»

- وآخرًا: رواية الزرايب.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية http://t.me/riwayat2025

شكرٌ وتقدير

لأسرتي: أبي، وأمي، وإخوتي الأربعة.

لأبناء أختي: «على»، «سليم».

لأصدقائي: «شريف عيسى»، «مصطفى الششتاوي».

لو لم أذكركم في إنجازٍ أتممته في حياتي، فأنا لا أستحقه، أنتم سبب دائمًا في كل خطوةٍ أخطوها إلى الأمام، فشكرٌ أبدي.

---

(1) زاوية الصلاة: مصطلح مصري يطلق على المسجد الصغير الذي يكون جزءًا من بناية أو قطعة أرض وليس مستقلًا.

(2) في الأقاليم كالصعيد والأرياف يقولون بدلًا من القاهرة مصر.

(3) المهباش: أداة لتقليب الفحم المشتغل على الشيشة.

(4) البجقة: تشبه الصرة وتستخدم في الثقافة المصرية.

(5) البلطجي، أو البلطجة: نشاط إجرامي يكون بفرض شخص قوته وسطوته على الاخرين وإرهابهم لنيل منافع خاصة.

(6) المنور: فتحة تقام في وسط المبنى من أسفله لأعلاه لإدخال النور والهواء داخله.

(7) الكارو: عربة خشبية يجرها حمار.

(8) الشوال: يستخدم المصطلح في الثقافة المصرية، وهو كيس من الخيش يعبأ فيه الحب والدقيق، وفي منطقة الزرائب يستخدمونه لتعبأة القمامة، ويختلف حجمه إذ أن بعض التجار يقطعون مجموعةً من الأشولة ويقومون بتخيطها فيصنعون شوال ضخم، والسريحة الصغار يستخدمونه بحجمه الطبيعي الصغير. الجمع: أشولة.

https://t.me/riwayat2025
روايات وكتب عربية و عالمية